د. منذر القباني

زوجة واحدة لا تكفي...

زوج واحد كثير!



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

زوجة واحدة لا تكفي...

زوج واحد كثير!

د. منذر القباني

زوجة واحدة لا تكفي...

زوج واحد كثير!

رواية



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2018 م - 1439 هـ

ردمك ٩٧٨-٦١٤-٠٢-٣٤٢٦-٠



facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1–961+)
ص.ب: 13–5574 شوران – بيروت 2050–1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1–961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1–961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1–961+)

هات المدام واملأ به قدحي...

فلعله يكون لنا اليوم سلوانا...

وإن كنت أعلم جيداً يا ولدي...

ما السكر أعان في الدهر إنسانا...

تمهيد

الراوي

وددت أن أحكي لكم حكاية لعلها تكون تقليدية بعض الشيء. هي ليست حكاية جديدة من نوعها، بل لعلّها قديمة بقدم الإنسان، حتى إن العديد من الرواة تناولوها، بشتى لغات العالم، لأنها تخص جميع الأعراق؛ لا تفرّق بين أبيض وأسود، مسلم ويهودي، شرقي وغربي؛ ولعلّ هذا ما يجعلها حكاية مرغوبة دائماً، وتلاقي رواجاً كبيراً على مرّ العصور... إنها قصة حب، أو لعلّها قصة رغبة، أو شيء من هذا القبيل. ففي واقع الأمر، كثيراً ما يتم الخلط بين الأمرين، حتى أصبحت محاولة التفرقة بينهما، من وجهة نظري، عديمة الجدوى. ولكن على أية حال، سوف أترك الحكم لكم أنتم، لكي تقرروا بأنفسكم، ودون أدنى تدخل منّي (إن كان هذا أمراً ممكناً). بل سأفعل شيئاً لم أفعله من قبل، ولا أدري إن كان فعله أحد من قبلي، وهو أنّني سأترك لأصحاب الأمر الحرّية الكاملة لكي يرووا لكم، بطريقتهم الخاصة، أحداث الحكاية كما وقعت دون حذف أو نقصان، ودون تجميل أو تعتيم؛ وهذا يعني بطبيعة الحال، ويؤسفني أن أقول: إنكم قد تقرؤون ما لا يعجبكم، على خلاف المعتاد لهذا النوع من الحكايات، فالمعذرة مسبقاً... ولكل الحالمين والحالمات الذين يشبعون عطش العاطفة من قصص الحب والغرام والمسلسلات التركية المدبلجة، أقول لكم بكل صدق: لا تكملوا القراءة، وانجوا بأنفسكم من هذا الكتاب البائس؛ فالذي سوف يتم سرده عليكم بعد قليل قد يصيبكم بإحباط شديد! إنها ليست حكاية تحكى لكم من قبل الراوي

العليم، الّذي هو أنا؛ بل هي حكاية تُحكى من قبل أشخاص سُمِح لهم، ولأول مرة، بالتعبير عن أنفسهم دون رقيب!

1

سعود

2016 سنة جديدة، وحفل صاخب... نساء... أصدقاء... شتّى ما لذّ وطاب من النبيذ الفرنسي المعتّق، كلفني جلبه أضعاف سعره، وكاڤيار بحر قزوين... لكن... لكن مع ذلك لا أشعر بالسعادة... ما الذي ينقصني؟ ليتني أعلم... حسبت أنّ هذه الڤيلا الفاخرة التي استأجرتها بحي السفارات، سوف تكون ملاذي الأخير؛ واحتي الّتي ألجأ إليها وسط صحراء مدينة الرياض، ولكن... لا أدري، فلعلّي أحتاج فعلاً إلى تناول الپروزاك الّذي وصفه لي الطبيب النفسي الّذي أخذتني إليه زوجتي... أقصد طليقتي عندما كانت زوجتي. لماذا رفضتُّ أخذه؟ هل حسبت حينها أنّني لستُ بحاجة له؟ ربما... ولكن، ألم تكن هي سبب تعاستي؟ برودها، وانشغالها الدائم عنّي... لكم كرهتُ مهنتها، بل كرهتُ جميع الأطباء! يشعرون وكأنهم أهم أناس في هذا الكون، تبّاً لهم! نعم، هي سبب تعاستي؛ المشكلة فيها، وليست فيّ أنا! هي الّتي كانت تشعرني دائماً بأنّني لستُ في أعلى سلّم أولويّاتها، وأن عملها دائماً هو الأهم؛ بل تواجدها في المستشفى أحب عندها من تواجدها في البيت الذي أقمته لها في أرقى أحياء الرياض! ناكرة الجميل... تزوّجتها وهي طالبة في كلية الطب، وتحملتُ انشغالها عنّي أثناء دراستها، ثم انشغالها عنّي، وعن أبنائنا، أثناء فترة تخصّصها في قسم الجراحة. ومن بعدها، سمحتُ لها بأن تذهب إلى كندا من أجل التخصص في جراحة التجميل، فكان جزائي من بعد ذلك—

حينما عادت، وأصبحت استشارية مرموقة– أن تخلعني! تخلعني أنا الذي تحملتُ قرفها عشرين عاماً!!

– «حبيبي، شو مالك؟»

يد ليليان الناعمة تداعب خدّي، فتوقظ في جسدي ما حسبته في سبات عظيم... منذ أن تعرفت عليها في عيادة زوجتي، أقصد طليقتي، وأنا رجل آخر. أعادتني إلى صباي؛ أشعرتني بأنّني رجل مكتمل الرجولة! صدق من قال: من يحسب بأن اللّذة تكمن بين ثنايا المغربيات، فهو لم يذق أبداً طعم رحيق اللبنانيات.

– «هل باشرتْ اليوم في العيادة؟».

– «من؟».

– «سلوى بالطبع... عمّن غيرها سوف أسأل؟!».

– «ولماذا أصلاً تسأل عنها؟! هي لم تعد زوجتك منذ سنوات!».

– «أجيبيني على قدر السؤال، ولا داعي للفلسفة!».

حتى أنت يا ليليان؟! يبدو أن النساء كلهن سواء في حبهن لمناكفة الرجال! حسبتُ أن الحَلَق الماس الثمين الذي أهديتُها إياه البارحة سوف يجعلها أكثر ليونة، وأقلّ سماجة!

– «نعم باشرَتْ ... ارتحت؟!».

– «أيّة أم هذه الّتي تغيب عن أبنائها شهراً بأكمله؟! الصَرْمَحَة مع صديقاتها في أمريكا أهم عندها من رؤيتهم! لا أدري كيف استحملتُها خمسة عشر عاماً قبل أن أطلقها؟!!».

– «حبيبي أنت لم تطلقها، بل هي الّتي خلعتك؛ أم تحسبني لا أعلم؟».

– «ليليان!!!»

– «ما سر هوسك بها، مع أنّك لم تحبّها قط؟!».

بدأتْ تتجاوز حدّها، هذه الممرضة اللبنانية! لعلّها بحاجة إلى صفعة حتى تعتدل مرّة أخرى، وتدرك من هو وليّ نعمتها!!

– «هل لأنها رفضت الرضوخ لك، ولخيانتك المستمرة لها؟».

– «كفى! أنا لا أقبل بأن تتحدثي معي على هذا النحو!!».

كادت كفّي أن ترتفع لتهبط على خدّها الوردي الأملس، لولا أنها سرعان ما حوَّلت غضبي الجامح منها إلى شهوة تحرق غضبي، وذلك عندما تمايلت نحوي بدلال لكي تصالحني بنهديها البارزين من قميصها المفتوح... لعنة الله عليكن أيتها اللبنانيات! لكم تجدن فنّ شواء قلوب الرجال!!

2

سلوى

عيادة صباحية مزدحمة في أول يوم عمل من بعد إجازة طويلة... لعلّ الأمر ما كان ليصبح بهذا السوء لولا وجود ليليان! ظَلَمها من جعل من هذه البلهاء ممرضة في عيادة جراحية! كان أجدر بها أن تكون عارضة أزياء... يبدو وكأن الذي عيَّنها هنا ظنّ أن خبرتها الواسعة كزبونة مستديمة عند جراحي التجميل تؤهلها لتعمل في المجال ذاته! ولو أنّني سمعت بأن لديها واسطة كبيرة عبر علاقاتها المشبوهة مع بعض النافذين من الرجال، كمدير المستشفى وعدد من أصدقائه الفاسدين مثله! ومع ذلك، أن أصطبح بوجه ليليان عندي أهون من أن أصطبح بوجه سالم العابس دائماً. لكم كرهتُ ذلك الرجل، منذ أن كنت طبيبة متدربة في قسم الجراحة. كرهتُ جراحة الأورام بسببه؛ بل وكدت أكره جميع التخصصات الجراحية! لا أعلم كيف يستطيع إنسان مثله كاره للحياة أن يستيقظ كل يوم ويأتي إلى العمل. أشعر بالشفقة على أبنائه المضطرّين لمعايشته. لو كان بإمكانهم أن ينفذوا منه كما فعلت زوجته السابقة لفعلوا... يبدو وكأن جميع الرجال في السوء سواء؛ هي فقط درجة السوء الّتي تميِّز ما بينهم.

***

الحمد لله، العيادة عدَّت على خير. لم تُفَوِّر ليليان دمّي بأخطائها، كما العادة. يبدو وكأنها تعلّمت شيئاً في الشهر الذي غبته؛ لكنّ الأهم من ذلك أن

العيادة انتهت في موعدها دون تأخير، مما يعني أنّه بإمكاني أن أمرّ على الكافيتريا من أجل تناول بعض الطعام، قبل أن أذهب إلى مكتبي في قسم الجراحة من أجل العمل على المعاملات الإدارية الّتي لا شك في أنّها تراكمت عليّ بعد الغيبة الطويلة. أظنها أطول إجازة أخذتها منذ زمن بعيد، ولكنها كانت بجد مستحقة بعد الذي جرى لي... الله لا يسامحك يا سعود... ما زلت أعاني منك ومن تصرفاتك الحمقاء، حتى بعد ثلاث سنوات من الطلاق!

– «حمداً لله على السلامة يا سلوى. كيف كانت الإجازة؟ إن شاء الله كانت ممتعة؟»

لعلّ أهون الرجال سوءاً الدكتور أحمد صقر... فمنذ أن عرفتُه أستاذاً لي في كلية الطب، وهو في الوداعة والطيبة ذاتهما. هو الّذي حبّبني في جراحة التجميل. لولاه، لما بقيت في مستشفى يعمل فيه دكتور مثل سالم حلبي الّذي مع الأسف أراه يسير دائماً مع الدكتور أحمد، بما فيه الآن!

– «كانت إجازة رائعة ومستحَقة منذ زمن!»

– «وهل توجد إجازة غير مستحقة؟»».

سامحك الله يا دكتور أحمد! لماذا أوقفتني في السيب، أثناء مصاحبتك لهذا الرجل الذي لا أتحمل الحديث معه؟! حتى تعليقه السمج هذا يدلّ على استخفافه بي، وبما أقوله.

– «والله ليست كل إجازة مستحقة؛ فهناك أشخاص في هذا المستشفى لا يعملون، وكأنهم في إجازة دائمة».

لعلّ ردّي هذا يفحمه!

– «أين ذهبتِ؟».

من يكون هذا الذي يسألني؟... للتوّ أتنبه لوجوده بصحبة الدكتور أحمد، والدكتور سالم... أظنّني لمحته من قبل يسير معهما... غريب، يسألني أين ذهبت؟ وكأنه يعرفني، مع أنّ هذه أول مرة ألتقيه.

– «كنت ما بين نيو يورك، وبوسطن.» أجد نفسي أجيبه...

– «نستأذنك دكتور أحمد؛ أنا وطارق سنسبقك إلى المقهى، وأنت حصّلنا على راحتك».

الحمد لله! خير ما فعل سالم... على الأقل، لديه الحصافة لكي يدرك أن وقوفه للتحدث معي أمر غير مرغوب فيه!

– «ها يا سلوى، رُقتِ من المشاكل في الإجازة؟»

– «يعني... ولكن الأولاد، اشتقتُ لهم كثيراً».

الله لا يسامحك يا سعود!

– «غريب تصرف طليقك هذا! أنا لا أفهم ما الذي يريده منك بعد ثلاث سنوات من الطلاق؟ هل يحاول الضغط عليك مثلاً من أجل أن ترجعي إليه؟».

– «بل هذا هو طبع سعود... إنسان أناني لا يحب شخصاً في هذه الدنيا إلّا نفسه! هو على أتم الاستعداد لأن يستخدم الأولاد من أجل معاناتي لأنّني تجرأت، وفكرت في الزواج من رجل آخر!».

– «خسارة والله أنّ الموضوع لم يتم... وجدته رجلاً لطيفاً جداً عندما قابلته في القسم؛ بدا لي حينها أنّه في غاية الإعجاب بك، وعلى أتم الاستعداد من أجل تلبية جميع مطالبك».

– «كل شيء قسمة، ونصيب».

ماذا أقول له؟ يحدّثني عن عريس متزوج لم أكن مقتنعة به من الأساس. أردت جسّ نبض أولادي من خلاله حول مبدأ زواجي مرّة أخرى من رجل غير أبيهم، فكانت الطامّة! ليتني لم أفعل... كم هي الوحدة قاتلة! الله لا يسامحك يا سعود.. فأنت الذي استخدمت الأولاد ضدّي كوسيلة ضغط، فجعلتهم يتحاملون عليّ، ويرغبون في العيش معك!

– «على العموم تفاءلي خيراً، وإن شاء الله ربنا ييسّر لك أمورك... أنت إنسانة طيّبة، وتستحقين كل خير... ردَّة فعل أولادك مفهومة؛ أمر طبيعي ومؤقت، فلا تحْمِلي همّاً».

– «إن شاء الله... هذا ما آمله».

يعجبني في الدكتور أحمد طيبته وتفاؤله الدائم... هكذا هو منذ أن عرفته أستاذاً في كلية الطب؛ يرى الخير في جميع الناس، إلى درجة البلاهة في بعض

الأحيان. أذكر كيف مدح لي «سعود» عندما التقاه قبل طلاقنا، وكيف حاول إقناعي بالبقاء معه عندما اختلفنا وبدأتُ في إجراءات الخلع... كم هو طَيِّب!

- «هيّا... أراك على خير».
- «مع السلامة دكتور أحمد».

الكافيتريا مزدحمة كما العادة، خاصة بطلبة الطب. كم تغيرت الأحوال منذ أن كنت مثلهم قبل سنوات لا أودّ تذكر عددها... الآن، الطلّاب والطالبات يجلسون سوياً أمام الملأ؛ يدرسون، ويتناولون الطعام، ويتحدثون في شؤون الحياة كأناس طبيعيين، في مجتمع طبيعي خالٍ من التعقيدات. ولكن هذا فقط هنا في المستشفى، بل في هذا المستشفى على وجه التحديد. أمّا في الخارج، فكل شيء يسير ببطء شديد. الناس مُتّهمون حتّى تثبت براءتهم، والمرأة كائن فاسد بطبيعتها؛ لذا وجب الحجر عليها! والوصاية ما زالت قائمة، ولكي أذهب إلى مؤتمر طبّي مدعوة إليه من أجل إلقاء بحث كتبته، يجب أن أحصل على إذن من وليّ أمري، وقد يكون وليّ أمري هو ابني الذي ربيته، وجعلت منه رجلاً! الحمد لله أن أبي لا يزال على قيد الحياة، وقد أنشأني وإخوتي على الثقة، وليس الشك. ليت «سعود» كان مثله، فلربما أمور كثيرة كانت على غير حالها اليوم. ولكن... ما فائدة لكن الآن؟ فما جرى قد جرى، وانتهى الأمر. كان زواجاً فاشلاً منذ البداية؛ بل حتى قبل أن يبدأ، عندما صرّح لي بعد الخطبة بأنه مجبور عليّ، وأنّ قلبه ملك غيري... صدمني، ومع ذلك لم أتراجع عن قبوله زوجاً... كم كنت طفلة بلهاء! حسبت أنّه يمرّ بفترة مراهقة، وسرعان ما سوف يتجاوزها بعد الزواج، وأنه

سيحبني مع العشرة بعدما يتعرف عليّ أكثر... ولكنّ هذا لم يحدث... يا إلهي! لماذا هذه الذكريات المؤلمة الآن؟!... أين دينا؟ لقد تأخرت، مع أنّها تعلم بأنّني على عجل...

– «عذراً سلوى، آسفة على التأخير، ولكن العيادة كانت مزدحمة إلى أبعد حد. لا أدري لماذا يصرّون على حجز عدد من المرضى يفوق استيعاب العيادة بكثير؟ والنتيجة أن الكلّ يتذمر!».

– «أووو... أشفقت عليك دينا. سأبكي بعد قليل!»

– «جميل! لقد عادت إليك روح السخرية. يبدو وكأن الإجازة الطويلة قد أدّت مفعولها، وعادت إلينا سلوى الّتي أعرفها».

– «ها ها ... يا خفة دمك!».

– «دعك من هذا، وأخبريني بالتفصيل، ماذا فعلت؟ وأين ذهبت؟ بل أين قضيت رأس سنة ألفين وست عشرة؟ وبجوار من؟!»

– «رأس السنة كانت في تايمز سكوير بنيو يورك، مع سَمَر وزوجها. يبدو وكأنهما حنّا عليّ لكوني بمفردي، فأصرّا على اصطحابي معهما».

– «سَمَر وزوجها؟! حسبتك ستقولين لي إنك تعرفت على شاب وسيم وغني، فعرض عليك الزواج، ووافقت».

ضحكة مدوية خرجت منّي دون أن أشعر... شاب وسيم وغني!

– «ولا تنسي أن تقولي: أعزب ولم يسبق له الزواج من قبل، ويُفَضَّل أن يكون في الثلاثين من عمره، يعني أصغر منّي بعشر سنين!»

– «إيه والله أنت تستحقين أكثر من هذا! يا بنتي أنت ألف من يتمناك... استشارية جراحة تجميل مرموقة في أكبر مستشفى في البلد؛ جميلة، وذكية، وفي غاية المرح... أنا لو كنتُ رجلاً لتزوجتك على الفور، ودون تفكير!».

– «لو كنتِ رجلاً لما قبلت الزواج منك، ولا حتى الجلوس معك في الكافيتريا!»

ضحكة أخرى؛ هذه المرّة تشاركني إيّاها دينا... لكم أحب هذه المخلوقة الّتي دائماً ما ترفع من روحي المعنوية. لا أظن أنّ واحدة من صديقاتي تفهمني مثلها... محظوظة أنا لوجود صديقة مثلها في حياتي؛ وبالرغم من انشغالها مع زوجها وأولادها بجانب عملها، إلّا أنّها دائماً ما تجد الوقت الذي تخصصه من الأجل التواصل معي داخل المستشفى وخارجه، بل وتشاركني أيضاً في جلسات المَعَسِّل التي تزيح عنّي هموم الحياة... هي من القليلات اللواتي أعرفهن وتزوجن عن حب. تعرفت على زوجها في كلية الطب، وكان يكبرها بعامين... إعجاب متبادل أدّى إلى التعارف، ثم إلى عدة لقاءات بين أروقة المستشفى الجامعي، قبل أن يخطبها بشكل رسمي. أول سنوات الزواج كانت في قمّة سعادتها، ولكن حدث بعد ذلك ما يحدث دائماً: بدأ الحب يفتر عندما زاد انشغالها؛ والّذي زاد الأمر سوءاً هو تفوّقها الملحوظ على زوجها الذي تأخر كثيراً عنها، حتى ترك الطب بمجمله واتجه إلى التجارة... يبدو أن كرامة الرجل لا تتحمل تفوق زوجته عليه، وكأنّه ينبغي على المرأة أن تكون دائماً الكائن الأضعف، وبحاجة إليه!

– «سنتشارك في قطعة بيتزا اليوم، أم نكتفي بالسَلَطة؟».

– «أشعر بالجوع!»

– «فلتكن قطعة بيتزا إذاً».

3

طارق

منذ سنوات وأنا لا أبدأ أسبوعاً جديداً قبل أن أستمع إلى سيمفونية بيتهوڤن الخامسة بطرقاتها الأربع الشهيرة، والّتي أصبحت أشهر بداية لأية مقطوعة كلاسيكية... دا دا دا داااااا... وكأنها طرقات القدر تدق على الأبواب. بداية جميلة لأسبوع جديد؛ لعله يكون مختلفاً هذه المرّة، ويحمل إليّ أمراً غير مألوف. لكم أحسد بيتهوڤن على موهبته الفذّة التي جعلته يبدع تحفة كهذه وسط أجواء الحروب النابليونية الّتي عاشها في أوائل القرن التاسع عشر. الثورة الفرنسية الّتي سبقتها بعدة أعوام وعدت بالمجيء بالحرّية والأخوة والمساواة، ولكنّها أتت بنابليون الذي أصبح إمبراطوراً أهلك أوروبا بحروبه الّتي لا تنقطع... كيف يمكن لإنسان وسط تلك الظروف القاسية أن يأتي بعمل بديع كهذا؟

عشقتُ الموسيقى منذ صغري. لعلّي ورثت هذا الأمر عن أبي الذي كان يجيد العزف على آلة العود، بخلاف أمي التي كانت لا تتذوق الفن كثيراً. حاول أبي مراراً– عندما وجد أنّ لي أذناً موسيقية– أن يعلمني العزف على تلك الآلة العربية الشجية، ولكنّ عشقي كان يكمن مع آلة البيانو. لا أذكر متى، وكيف كانت أول مرة استمعت فيها إلى العزف على البيانو؟ لعلّي استمعت إلى العزف عليه في التلفاز، أو ربما في رحلة مع والدي إلى أوروبا أو أمريكا، في ردهة فندق خمس نجوم، أو عند مدخل مطعم فاخر... لا أدري... فمنذ أن وعيت على الدنيا، وأنا عاشق لهذه الآلة العجيبة. اشترى لي أبي أورجاً صغيراً، فأخذت أعلم نفسي عليه.

صحيح، لم يكن بيانو، ولكنه كان أقرب شيء إليه. وعندما رأى حماسي الكبير، بحث لي عن معلم بيانو، فوجد زوجة موظف في القنصلية الأمريكية بجدة تعلم الأطفال العزف على البيانو مقابل مبلغ معقول؛ ومن ثمّ انطلقت في أجمل رحلة مع أروع آلة اخترعها الإنسان!

سنوات قليلة ثم أصبحت أعزف أفضل من معلمتي، ميسز وليامز، حتى إنها أصبحت تطلب منّي العزف في حفلات القنصلية الأمريكية، ومن ثمّ تتابعت الدعوات من باقي القنصليات. أمّي على عكس أبي، لم يعجبها الحال، وخافت أن تلهيني الموسيقى عن دراستي، ولذلك كنت حريصاً على أن أنهي كل عام الصف الدراسي، وأنا من المتفوقين؛ فقط لكي أثبت لها أن الموسيقى لا تلهي، ولكنّها تُلهم! كان طموحي أن أدخل الأكاديمية الملكية للموسيقى بلندن، ولكن الواقع الذي أعيشه أبى ذلك... فما هو مستقبل عازف للبيانو في بلد كالسعودية لا يزال الكثيرون من أهله ينظرون إلى الموسيقى على أنها حرام، وعمل من أعمال الشيطان؟! لا، فتفوقي الدراسي، ومجموعي العالي كانا يحتّمان عليّ أن أدخل كلية الطب، ففعلت... ومرة أخرى، تفوّقت في دراستي، وذهبت في بعثة إلى أمريكا، وتخصصت في مجال جراحة القلب، دون أن أنقطع عن العزف على آلة البيانو... سنوات طويلة تخلّلتها أحداث كثيرة، وكانت رفيقة دربي دائماً تلك الآلة الساحرة. كلّما شعرت بالفرح لجأت إليها، وكلّما شعرت بالهم والشجن وجدتها تُطَيّب خاطري. ما من تجربة مررت بها إلّا وكانت مصاحبة لمقطوعة موسيقية تذكرني إلى اليوم بتلك التجربة. عندما عشقتُ لأول مرّة، كانت المقطوعة هي: سوناتا ضوء القمر. وعندما عشقتُ للمرّة الثانية، كانت المقطوعة هي: من أجل إليس. وعندما

تزوّجت من ابنة خالتي الّتي لم أحبها قط. كانت المقطوعة هي: كونسرتو البيانو رقم2 لرحمانينوف؛ أصعب مقطوعة تعلمتها في حياتي، والّتي لا أزال أعاني من تبعاتها حتى اليوم!

***

خمسة أبناء: بنتان وثلاثة أولاد، هم حصيلة زواجي من هديل... زواج جاء بعد تجربتَي حب فاشلتين، جعلتاني أفقد الثقة في شيء اسمه الحب، فجرّبت حظّي مع الزواج التقليدي. لم أكن أعرفها جيداً؛ بالرغم من كونها ابنة خالتي، حيث كانت، مع أهلها، تعيش في تبوك... منذ ثاني لقاء أدركت أنّني في وادٍ وهي في وادٍ آخر؛ ولكن أمّي أقنعتني بالمضي قدماً في تلك الزيجة...

– «الحب سيأتي بعد الزواج. هي صغيرة، وتستطيع تشكيلها كما ترغب.» قالت لي...

لكنّ الحب لم يأتِ، والذي أتى بدلاً عنه هو ذلك الشعور الدائم بالتعاسة. فكرت أكثر من مرة أن أتركها، ولكن حملها كان يسبق قراري دائماً، حتى استسلمت للحال القائم، خاصة وأنّني لم أرَ من حولي المثال الأفضل... فأين هم السعداء في حياتهم الزوجية، حتّى الّذين تزوجوا عن حب مزعوم؟

حاولت أن أحَبِّبها في الموسيقى، ولكنّها مثل أمّي أبت... حاولت أن أشجّعها على دخول الجامعة، ولكن لم تكن لديها رغبة، ووجدتْ في الأطفال حجّة مريحة لعدم إكمال دراستها الجامعية؛ وإن كنت أعلم جيداً أنه حتى من دون أطفال ما

كانت لتكمل تعليمها، لأنها بكل بساطة ليست من الراغبين في التعلم؛ فجلّ طموحها منصبّ في أن تكون سيدة بيت فقط... لا أكثر ولا أقل.

***

صباح يوم أحد رتيب، أهم ما فيه هو سيمفونية بيتهوڤن الخامسة الّتي أستمع إليها في سيّارتي، وأنا في طريقي إلى المستشفى؛ وكأنّني أستقبل أسبوعي الجديد من خلال تلك الطَرقات القدرية الأربع... ومن يدري؟ فلعلّ قدري يخبئ لي هذا الأسبوع أمراً أفضل من الأسابيع الباهتة الّتي مضت...

أذهب إلى المستشفى قبل الدوام بنصف ساعة لكي أتفادى ازدحام شوارع الرياض. أشتري قهوة الصباح من أحد مقاهي المستشفى المتعددة، ولو أنّني أفضل المقهى الذي يقع بجانب حديقة المستشفى، خاصة في هذا الوقت من السنة؛ حيث السماء صافية وخالية من الغبار، والطقس جميل فيه برودة غير قاسية على الأبدان... يبدو أنّني لست وحدي من يريد الاستمتاع بهذه الأجواء البديعة الاستثنائية؛ فالمكان يعجّ بمن حضر مثلي باكراً، من موظفي المستشفى. لا ينقص الموقع سوى موسيقى هادئة في الخلفية، لكي تبعث النشوى في النفوس. حاولت اقتراح هذا الأمر من قبل، ولكنّ إدارة المستشفى رفضت بحجة عدم استثارة بعض المحافظين الذين يرون حرمة الموسيقى، مع أن هؤلاء هم ذاتهم من يرون حرمة الاختلاط، والمستشفى قائم على الاختلاط! وهم كذلك من يؤمنون قطعاً بوجوب النقاب، ونصف نساء المستشفى كاشفات لوجوههن وشعورهن! لماذا إذاً لا يتقبّلون الموسيقى كما تقبّلوا الأمور الأخرى التي لا يرتضونها؟! يبدو أن منع

الموسيقى مسألة مقدور عليها؛ بخلاف غيرها من المسائل الشائكة الّتي لا تريد الإدارة التطرق إليها مع وجود عدد كبير من الموظفين الأجانب. الموسيقى مع الأسف، كما هي عادة الفن في بلادنا، أصبحت هي الضحية.

***

اجتماع القسم كان أحادياً كما العادة. رئيس القسم يقرّر، والجميع ينصاع لأوامره. دكتاتورية محضة؛ من يتجرأ ويقاومها يجد نفسه في قاع الهاوية، كما جرى من قبل مع الدكتور وحيد سمرقندي، عندما رفض أن يكون إمّعة، وهو الاستشاري المخضرم. مطالبه كانت معقولة بمقاييس الأماكن الّتي تدربنا فيها جميعاً، سواء أكنا في كندا أم أمريكا، ولكن بمقاييسنا هنا فالأمر جداً مختلف... فكيف له أن يطالب بحقه في تقرير شأن حالاته بنفسه دون الرجوع إلى رئيس القسم؟! هذا يشكل تعدياً صارخاً على سلطته! بل هو عصيان مدني متعمد!! فكان لا بد من التخلّص منه، حتى وإن لُفِّقت له قضية إهمال تثير الشفقة من شدّة بلاهتها... سبحان الله، حتّى في اختلاق التهم، رئيس قسمنا فاشل!

كانت لديّ عملية واحدة اليوم: استبدال الصمّام الأورطي؛ أنهيتها في بضع ساعات دون مشاكل تذكر. أنا لست أفضل جرّاح قلب في العالم بكل تأكيد، ولكن أحسبني جرّاحاً جيّداً، أهتم بمرضاي على أكمل وجه. أحب عملي، وإن كنت لا أعشقه كما أعشق الموسيقى. أعتبر نفسي طبيباً ناجحاً، ولكن ليس مبدعاً... في حقيقة الأمر، أنا لم أصادف حتى الآن طبيباً واحداً في هذا المستشفى ينطبق عليه وصف الإبداع...

– «ألو... طارق، ما رأيك في فنجان قهوة سريع؟ معي الدكتور أحمد، وهو مشتاق جدّاً لرؤيتك».

يأتيني صوت صديقي العزيز سالم عبر الهاتف المحمول، ليعرض عليّ استراحة قصيرة عند منتصف النهار... لِمِ لا؟ وكذلك لا مانع عندي من مصاحبة الدكتور أحمد صقر الذي أعرفه منذ أن دَرَّسَني في كلية الطب قبل نحو أكثر من عشرين عاماً... خمسة وعشرين على وجه التحديد... يا إلهي! كم تمضي السنوات بسرعة البرق.

– «لا مانع. أقابلكما في البهو، ثمّ نذهب معاً إلى المقهى».

وكانت تلك هي الطرقة الأولى من طرقات القدر لهذا الأسبوع! هذا ما سوف أعلمه لاحقاً...

***

لوهلة ظننت أنّني أحلم! فهل يمكن لمخلوق أن يكون بهذا الجمال؟ وكيف لم أرها من قبل؟! أين كانت؟ أو أين كنت أنا؟ هل كنت في سبات عظيم، واستيقظت منه هذه اللحظة؟! أم أنّ حجاباً غير مرئي كان بيني وبينها طيلة هذه السنين؟! أشعر وكأنّني اكتشفت سيمفونية مفقودة لبيتهوفن... سيمفونية لم يشهد لها العالم من مثيل!

في السيب استوقفها الدكتور أحمد... يبدو أنها كانت في إجازة طويلة. وجدتني أسألها دون أن أدري:

– «أين ذهبت؟»

ولم أتنبه لردّها على السؤال، حيث كنت مشغولاً في تأمل عينيها العسليّتين اللّتين بدتا لي حزينتين بعض الشيء، بالرغم من السعادة المصطنعة الّتي حاولت أن ترسمها على وجهها عبر ابتسامة لؤلؤية أضاءت عتمة المكان...

– «نستأذنك دكتور أحمد؛ أنا وطارق سنسبقك إلى المقهى، وأنت حصّلنا على راحتك».

سامحك الله يا سالم! هل كان يجب عليك أن تستأذن في الانصراف الآن، وتشملني معك؟! وددت لو أنّك بقيتَ صامتاً ليطول اللقاء العابر مع هذه المخلوقة العجيبة!

***

– «سلوى الغدير؟! الّتي التقيناها قبل قليل في السيب؟!»

لا أدري ما وجه استغراب سالم؟ وكأنّني أتحدث عن امرأة أخرى غير الّتي رأيتها منذ لحظات!

– «نعم، الطبيبة الجميلة الّتي التقيناها قبل قليل في السيب وتركناها مع أحمد صقر... أوليس اسمها سلوى الغدير؟!».

– «بل هي، ولكنّها ليست بذلك الجمال الذي تتحدث عنه!».

– «وكذلك ليست قبيحة كما وصفتَ لي قبل مدّة عندما نصحك الدكتور أحمد بخطبتها، بعدما طلّقت زوجتك السابقة!».

– «مهلاً، مهلاً! أنا لم أقل إنها قبيحة... ما قلته حينها هو أنها لا تجذبني، ولا تعجبني شخصيتها؛ وهذا هو واقع الحال حتى الآن. هي بالنسبة لي شخصية كريهة!».

– «شخصية كريهة؟!».

– «نعم، إنسانة وصولية، ولا تحب أحداً في هذه الدنيا سوى نفسها! منذ أن كانت طبيبة متدربة في قسم الجراحة ونظرتي لها سيئة، ولم تتغير... أذكر أنها كانت كسولة، ولا يمكن الاعتماد عليها في المناوبات؛ ولكنّ أسوأ ما كرهته في شخصيتها هو نفاقها، وتملقها الدائم لرئيس القسم! مثل هذه النوعية من الشخصيات لا تعجبني أبداً!».

– «أنت حتماً تبالغ... لا أظنّ أن هذا هو رأي أحمد صقر فيها».

نعم، أذكر أنه امتدحها حين نصح سالم بالزواج منها...

– «يا سيدي كل له رأيه... خذ عندك الآن مثلاً، أنت تراها ملكة جمال العالم، وأنا أراها جدّاً عادية، وليست بذاك الجمال».

– «وهذا ما لا أفهمه... فكيف يمكن لشخصين أن يريا الشيء ذاته، ولكن بنظرة مختلفة تماماً؟ وكأنّني أرى امرأة أخرى غير الّتي تراها أنت!».

– «لعلّ كرهي لشخصيتها هو الذي جعلني أعافها... ولكن على أية حال، الجمال شيء نسبي، وتختلف مقاييسه من شخص لآخر».

– «عمّن تتحدثان؟».

أخيراً جاء الدكتور أحمد... يبدو أنّه انسجم في الحديث مع سلوى، ولذلك تأخر علينا.

– «عن سلوى الغدير... أظن يا دكتور أحمد أن «طارق» وقع في الحب من أول نظرة!».

سالم يتهكم! كعادته عندما يملّ من نقاش مسألة ما.

– «حب من أول نظرة؟! لا... طارق أعقل من هذا؛ كما أنه متزوج، وسعيد مع زوجته».

سعيد مع زوجتي؟! أنت حقّاً لا تعرفني يا دكتور أحمد...

– «لا تهتم بما يقوله سالم يا دكتور أحمد، فهو دائماً هكذا، يخلط ما بين الجد والهزل... كنت أحاول إقناعه بأن الدكتورة سلوى تبدو مناسبة له جدّاً، ولكنّه أبى إلّا أن يعترض. بعقليته هذه أؤكد لك أنه لن يتزوج مرة أخرى أبداً!».

– «وأنا هكذا مرتاح».

– «حقّاً مرتاح!؟ لا أظن... ألم تتعب كفّك اليمنبعد؟!».

– «خلاص يا طارق! لا داعي للإحراج!».

أنا وسالم نضحك بصوت عالٍ، ولكنّ الدكتور أحمد يشعر بغاية الحرج من تلك الدعابة الجريئة التي لم يتوقعها منّي أبداً... المسكين، يريد أن يضحك هو

الآخر، ولكنّه في حيرة من أمره! لا يعلم إن كان يجدر به أن يفعل ذلك، أم يكتم ضحكته.

– «ما رأيك يا دكتور أحمد بصراحة في سلوى الغدير؟ هل هي حقّاً إنسانة أنانية كما يصفها سالم، ولا تحبّ أحداً في هذه الدنيا سوى نفسها؟»

– «لا بالعكس: هي إنسانة جدّاً طيبة، ولكنها مرّت بظروف صعبة مع زوجها الأول جعلتها لا تثق في أي أحد، وربما لهذا السبب قد تبدو جافة، ومتحفّظة في مشاعرها».

– «سامع يا سَيِّد سالم؟ يعني حضرتك ظلمت البِنَيَّة!».

– «والله يا طارق أنا قلت لك رأيي، وأكَرِّر مرة أخرى: كلٌ له رأيه؛ ولولا اختلاف الأذواق، لبارت السلع».

صحيح كلامك يا سالم... كل إنسان وله رأيه... بل كل إنسان، وله عينان ينظر من خلالهما فيرى ما قد لا يراه الآخرون. ما رأيتُه أنا حين وقعت عيناي على سلوى أمر لا أستطيع وصفه لك بوصف تفهمه؛ إذ كيف لي أن أصف لك شيئاً أجده مُحَيِّراً؟ الإحساس الذي شعرت به حين رأيتها لم أشعر به منذ زمن بعيد... بل بعيد جدّاً، حتّى كدت أنساه. فهل يعقل، بعد كل تلك السنين؟! هل يعقل أن القلب الذي حسبته مات، قد عاد إلى الحياة ينبض مرة أخرى، من جديد؟!

4

سلوى

أشعر بوحدة شديدة كلّما دخلت المنزل الخاوي بعد مغادرة الأولاد له. أخذهم منّي، لا حبّاً فيهم، بقدر ما هو نكاية في! لم يهتم بهم قط في حياته. لم يتابع دراستهم، أو ينَمّي هواياتهم، بل كان مشغولاً بنفسه فقط، وبنزواته! هم بالنسبة له كانوا– كما كنت أنا– مجرد وجاهة اجتماعية، لا أكثر؛ والآن أصبحوا أداة يستخدمها وقتما يريد من أجل الضغط عليّ؛ ولكن لا! لن أسمح له بأن يبتزّني على هذا النحو! أبنائي ليسوا لعبة في يده، وأنا لم أعد دميته العمياء! فهد وسلمان لا بد أن يبيتا معي الليلة... أمّا صالح وعبد العزيز فيمكنهما المرور عليّ في أي وقت، فكلاهما كبيران، ولدى كل منهما سيارته الخاصة؛ أمّا الصغيران، فلا! أنا على أتم الاستعداد لكي أقاضيه في المحاكم إن لزم الأمر! لن أسمح له أبداً باستخدامهما ضدّي!

– «ألو صالح... كيفك حبيبي؟»

– «هلا ماما».

– «أين فهد وسلمان؟ لماذا لم يأتيا حتى الآن؟»

– «لا أدري. أنا الآن في الجيم... هل أخبرك بابا بأنه سوف يرسلهما؟»

– «هكذا اتفقنا عندما تحدّثت معه قبل أمس... ماذا عنك أنت، وعبد العزيز؟ ألم أوحشكما؟ متى سوف أراكما؟».

– «لا أدري عن عبد العزيز، ولكن إن شاء الله أمرّك أنا على الويك اند».

الويك اند؟! لم يرَني منذ شهر، وسينتظر حتى نهاية الأسبوع لكي يمرّني! أخذ صف أبيه ضدّي... تمكّن سعود من إظهاري أمامه كالشريرة، خاصة بعدما... لا حول ولا قوة إلا بالله... حتى بعد الطلاق ما زال ينغِّص عليّ حياتي!

– «على خير حبيبي. تعال وقتما تشاء».

ولكن، أين الصغيران؟ أين فهد وسلمان؟! لماذا لم يأتيا بعد؟! الله لا يسامحك يا سعود! هذه هي طريقته دائماً؛ حتى يرغمني على الاتصال به! يريد إذلالي!!

– «ألو..».

– «هلا سلوى... متى وصلتِ من أمريكا؟».

كم أكره سماع صوته الخشن المتسلط!

– «وصلت البارحة... لقد أخبرتك عن موعد وصولي عندما تحدثتُ معك آخر مرة لكي ترسل إليّ فهد وسلمان حتى يبيتا معي الليلة».

– «آه... آسف؛ والله نسيت مع الانشغال».

– «نسيت؟! وهل هذا أمر يُنسى؟!! ... سعود، لقد وعدتني!».

– «أرسلهما لك غداً إن شاء الله».

– «ولماذا لا ترسلهما الليلة كما اتفقنا؟!!».

– «أظن أنّ الوقت قد تأخر، ولعلّهما ناما الآن... غداً... غداً يا سلوى... أنت غبتِ عنهما شهراً، ويوم واحد لن يفرق معك في شيء».

– «يوم واحد؟!».

يا وغد! يا خسيس!! الله يلعن اليوم الذي تزوجتك فيه يا حقير!!! تعاقبني على الإجازة التي أخذتها بعد الذي فعلته معي؟!!

– «غداً إن شاء الله أرسلهما إليك مع السائق».

رغبة ملحة جعلتني أكلم دينا لكي نذهب إلى مقهى الشلّال بالثمامة. أصبحت الشيشة، وبالأخص المعسِّل، من المتع القليلة المباحة التي ألجأ إليها كلما شعرت بذلك الفراغ القاتل...

كم أغبط ذلك الرجل العجوز مع زوجته في الخيمة المقابلة، وهما يُشَيِّشان، ويتسامران، ويضحكان. لماذا لا أحصل أنا على حياة كهذه، خالية من الهمّ والغمّ والنكد؟! لكم تمنيت، وأنا صغيرة، أن أتزوج من رجل يصبح هو صديقي؛ أتسامر معه، وأضحك، وكذلك أشكو له همومي... سعود تزوجني، وهو لا يحبني، ولم يحاول إخفاء ذلك الأمر عنّي. كان صادقاً منذ البداية عندما أخبرني بأنّ قلبه مع غيري، وأنّني مفروضة عليه. مع ذلك أحببته، وحاولت أن أجعله يحبني. أنجبت له أولاده الذين يتفاخر بهم، بالرغم من كوني لا أحب الأطفال؛ فقط من أجل إرضائه فعلت، ومع ذلك خانني المرّة تلو الأخرى! والأدهى أنه لم يحرص على إخفاء خيانته المتكرّرة، وكأنه لم يأبه بمشاعري! أرادني أن أعلم... نعم... أرادني أن أعلم، لأنّني لم أكن أمثّل له شيئاً ذا قيمة إلى أن هدّدته بالخلع!

حينها فقط بدأ يراعي مشاعري، لا حرصاً عليّ، ولكن خوفاً من أن يكون هو المطلق الوحيد من بين أصدقائه... وجاهة اجتماعية، لا أكثر. وعدني بأنه لن يخونني مرة أخرى، ولا أدري إن كان قد صدق، أم أنه مجرّد أخفى الأمر عنّي... ولكن مع الأيام زادت جلافته معي. بات يغضب من أقل شيء، ويعاتبني على كل شيء، حتّى بتُّ سبب كآبته المستمرة! لم تكن تلك هي الحياة التي أردتها لنفسي عندما كنت صغيرة أحلم... كرهت حياتي، وكرهت تلك المرأة التي أصبحتها! كان لا بد من إنقاذ ما تبقّى لي من كرامة! نعم، حتى وإن كلّفني ذلك لقب امرأة مطلّقة، ونظرة المجتمع الضيقة لهذا الأمر... كان لا بد من استعادة نفسي، أو ما تبقّى لي منها!

5

سعود

تسأل عن فهد وسلمان بعد أن غابت عنهما شهراً! أي أم هذه التي تتحمل البعد عن طفليها الصغيرين كل هذه المدّة؟! ومن أجل ماذا؟ من أجل عطلة مع صديقاتها! أرادت أن تقضي رأس السنة معهن في نيو يورك، وبين مسارح برودواي الّتي تعشقها... يا لتفاهتها، ويا لقسوة قلبها! تلومني لأنّني لم أحبها، ولكن ماذا فعلت هي لكي تجعلني أحبها؟! لم تشعرني في يوم بأنّني أهم شيء في حياتها كما تفعل النساء اللّواتي يرجون حب أزواجهن. بل حرصت على أن تشعرني بأن عملها يأتي دائماً في المقام الأول. اتّهمتني بكثرة التذمر؛ لكنْ ألمْ يكن تذمري سببه إهمالها لبيتها؟! ألم يكن تذمري ناتجاً عن إحراجي المستمر أمام أهلي وأصدقائي كلّما زاروني؟ ليتها كانت حريصة على تلبية متطلبات البيت كما تفعل الزوجة الصالحة، الحريصة على إظهار بيتها، وترتيب احتياجاته على أكمل وجه، خاصّة أمام ضيوف زوجها! تقول لي إنها طبيبة، ولها مسؤوليات كثيرة تمنعها من مثل هذه الأمور... يا للعجب! وما ذنبي أنا؟! كيف لها أن تطالبني بحبها بعد كل هذا التقصير؟! تُصوِّرني دائماً الطرف السيِّئ، الشرير، الأناني، وكأنها هي الملاك! نعم، لم أحبها. ونعم، لقد خنتها أكثر من مرة، ولكنّني لم أتزوج عليها؛ حفاظاً على كرامتها، وعلى مشاعر الأولاد، وكان بإمكاني أن أفعل لو عزمت... لكنّ مِثلها، مع الأسف، لا يُقَدِّر المعروف... بل هي فقط تجيد إنكاره!

***

كلّما فكرت في حياتي السابقة مع سلوى، ازددت إحباطاً وتعاسة! أجد نفسي أتحسّر على سنوات عمري الّتي قضيتها معها هباءً! مكالمتها لي ضايقتني، ولا بدّ أن أمحوها بمكالمة أخرى تبعث في نفسي البهجة والسعادة. لا أظنّ أن ليليان سوف تفي بالغرض هذه المرّة؛ بل أنا بحاجة إلى فاكهة شتوية جديدة...

– «هلا أم عبد الله... أنا سعود الحسن من طرف سلطان العميم... أظنّه حدّثك عنّي... ممتاز، الله يعطيك العافية... إذاً، أنا في انتظارك غداً بالمكتب، حتى أعاين ما لديك من صُوَر. رجاءً أم عبد الله، أريد أفضل ما لديك... الآن سأرسل لك على الواتس آپ خريطة الموقع، على الرقم ذاته الذي تتحدثين منه، أليس كذلك؟... في أمان الله».

لنرَ ما لديك يا أم عبد الله من خيرات؛ فالفاكهة المحلِّية أيضاً لها طعمها.

6

طارق

لماذا يبدو المنزل خاوياً بالرغم من عدد الأفراد الذين يسكنونه؟ كلٌّ في عالمه الخاص... ابني الكبير عدنان يتحدث على الهاتف مع خطيبته، ريم لم تعد من جامعتها بعد، ندى في منزل صديقتها لكي تساعدها في التحضير لحفل عيد ميلاد مفاجئ لصديقة مشتركة، عادل في النادي الرياضي يحمل الأثقال حتى يصبح مفتول العضلات من أجل جذب الفتيات؛ على ما أعتقد، وأيمن مثل الكثيرين من أقرانه ممّن هم في هذه السن المبكرة من سنوات المراهقة مشغول بمحاربة الأعداء على البلاي ستيشن... أمّا زوجتي هديل، فهي على الأرجح لا تزال في المطبخ تمارس هوايتها المفضّلة: الطبخ. أظنّها أخبرتني البارحة بأننا اليوم سنأكل أكلاً جاويّاً... أصعب أصناف الطعام؛ حيث يتطلب إعداده وتحضيره أكثر من يوم كامل. تعلمتْ هديل تلك الفنون المطبخية الباهرة من أمها الّتي بدورها ورثتْ أسراره من أمّها، وهكذا الحال في أسرتها جيلاً من بعد جيل... حمداً لله أنّني أمارس شيئاً من الرياضة، وإلّا أصبحت مثل فرس النهر من شدّة السمنة!

– «العشاء بعد ساعة».

تخبرني هديل وهي تمر من أمامي متجهة إلى الطابق العلوي... تريد الاستحمام، حتى تزيح عن جسدها روائح البصل والثوم والبهارات النافذة التي وصلت آثارها إلى حديقة الجيران. بعض هذه البهارات الجاويّة تُشبه رائحتها رائحة

السماد الطبيعي! لا أعلم كيف قبلتُ أن أذوقها أول مرّة؟ ولكن الحق يقال: فهي لذيذة جداً، إن تمّ التغاضي عن رائحتها...

دائماً ما يُرَدَّد بأن أسرعِ طريقة إلى قلب الرجل هي عبر معدته. لا أدري لماذا لم ينطبق عليّ هذا المثل قط؟ فبالرغم من مهارة هديل الفائقة في الطبخ، إلّا أنها لم تصل يوماً إلى قلبي عبر ما تحضره لي من طعام. حتماً الطريق إلى قلبي يمرّ عبر مسار آخر لا أعلمه. كأن هذا المسار انقطع منذ ستة وعشرين عاماً... منذ منال، ورباب من قبلها...

لعلّي أذهب إلى البيانو من أجل تمضية الساعة المتبقية على العشاء. أشعر برغبة في التمرن على معزوفة جديدة. لعلّها تكون لشوپان هذه المرّة... ولِمَ لا؟

***

مقهى نيس، في شارع التحلية، أجتمع فيه مساءً مع الأصدقاء مرة أو مرتين في الأسبوع. المقهى ليس بالكبير، ولكنّ زبائنه دائمون؛ يأتونه منذ سنين، ويجلسون إلى الطاولة ذاتها، كل مجموعة في ركنها الخاص بها، حتى بات هناك شيء من المودة والألفة بين تلك المجموعات. وجوهنا باتت مألوفة، وإن لم نسعَ إلى التعارف، باستثناء صديقي نايف الّذي أصبح يُلَقَّب بمندوب العلاقات العامة لدى المقهى؛ لمعرفته جميع زبائنه، حتى الوافدين الجدد منهم...

– «أخشى أن يُنفّذ دونالد ترمپ وعده إن حصلت المعجزة وفاز بالانتخابات الرئاسية، فيمنع دخول جميع المسلمين إلى أمريكا!»

نايف كثير الذهاب إلى نيو يورك. وأمر كهذا بالنسبة له يشكل صدمة كبيرة.

– «مجرد وعود انتخابية يا أبا إبراهيم. أنت تعلم كيف يكون الأمر أثناء فترة الحملة الانتخابية، ولكن سرعان ما تُنسى تلك الوعود بعد فوز المرشح بالرئاسة... ترمپ على وجه الخصوص لديه أعمال كثيرة في المنطقة، فكيف يمنع دخولنا؟!».

سلطان العميم يرد على نايف. كلاهما يعشقان الحديث في السياسة.

– «ولكنّ الأمر مختلف هذه المرّة؛ فالّذين سوف يأتون به إلى البيت الأبيض – إن حدث وفاز – هم أقصى اليمين، وهؤلاء لهم مطالبهم».

– «السياسة الأمريكية ستبقى ثابتة مهما تغيّر الرئيس. كلها لعبة، ونحن لهم مجرد قطعة شطرنج يحركونها كما يشاؤون، على حسب أهوائهم ومصالحهم. أوباما يظنّ أن إيران هي الأنسب لمصالح أمريكا. أمّا بوش الابن، من قبله، كان في صف الحلفاء القدامى التقليديين لأمريكا؛ وهكذا تسير الأحداث من رئيس لآخر، يتناوبون اللعب بنا كما قلت، على حسب الأهواء والمصالح».

لا أدري لماذا يعشق البعض الحديث في السياسة، بل التنظير فيها؛ وكأنّهم خبراء استراتيجيون من الذين هلكونا في الفضائيات العربية؟! لا أعتقد أنّ هناك شعباً فيه هذا القدر الكبير من المنظرين كما هو الحال مع العرب... جنرالات مقاهٍ... كلنا أصبحنا جنرالات مقاهٍ. لماذا لا نتحدث في الجمال، والفن، أو حتى في الأدب؟ ربّما لأنّنا لم نعد نشعر بقِيَم الجمال. الحروب المستمرة الّتي من حولنا– سواء أكانت في سوريا، أم في العراق، أم في اليمن– لعلّها جعلت أحاسيسنا

متبلّدة؛ وإن كنت أظن أنّ المشكلة تعود إلى أبعد من ذلك بكثير، لأنّ أحاسيسنا لم تتبلّد مؤخراً، بل كانت دائماً متبلّدة...

– «هلا، هلا سعود، كيف الحال؟»

سلطان يصافح رجلاً ممتلئاً، طويل القامة، لا أظنّني التقيته من قبل... وجهه العابس لا يجعلني حريصاً على معرفته. شكله يذكرني «بأبَضَيات» لبنان الذين يحرسون الراقصات في الملاهي الليلية.

– «مساء الخير سلطان... مساء الخير نايف».

– «يا هلا بسعود... من زمان عنك... لا أظنك تعرف الدكتور طارق أيوب جرّاح القلب».

نايف يقوم بواجب التعريف بيني، وبين هذا الرجل...

– «سعود الحسن، صاحب مؤسسة الحسن للمقاولات، وهو أيضاً صاحب هذا المقهى».

نتصافح، ثم سرعان ما يبدي اهتماماً بالحديث مع سلطان.

– «تحدثت مع أم عبد الله. اتفقنا على أن تمرّني غداً في المكتب».

– «على بركة الله، ولكن لا تدعها تمرّر عليك بضاعتها البائرة. اطلب منها الفئة ألف».

– «هذا ما فعلته».

– «ممتاز. ما ينْخاف عليك يا أبا صالح».

– «عمَّ تتحدثان؟ لا يكون قصدكما أم عبد الله الخطّابة؟!».

نايف يُبدي استغرابه عاقداً حاجبيه، وكأنّه غير راضٍ عمّا سمع.

– «ومن غيرها؟ أعطيت رقمها للشيخ سعود بعد أن أقنعته... والله أرْيَح شيء هو زيجة المسيار، خاصة للمقتدرين من أمثالنا. لا دوشة أولاد، ولا وجع رأس. ادفع لها ما تريد، ودعها في منزلها، تأتيها وقتما تشاء، وعلى حسب مزاجك».

يبدو لي الأمر وكأنّها دعارة، ولكن تحت غطاء شرعي. حتماً حصل سلطان على فتوى كلّفته مبلغاً هو قادر على دفعه... «اجعل بينك وبين النار شيخاً»، أصبح هذا شعار الجميع، وخاصة الأثرياء. ما أستغربه حقّاً هو كون سلطان متزوجاً من الدكتورة دينا السعيد التي تترأس لجنة حقوق الموظفات بالمستشفى، كما أنّها– على حسب ما يُشاع عنها– من أشد الرافضات لمبدأ الزواج الثاني بأشكاله كافة. لا أدري إن كانت سخرية القدر أن يكون زوجها على هذا النحو في معاملة النساء؛ وكأنهن أداة لمتعته الرخيصة، أم أنّها هي الّتي دفعته بتصرفاتها إلى هذا الطريق. أنا شخصياً لا أعرف دينا معرفة جيدة، رأيتها فقط من بعيد؛ هذا بالرغم من معرفتي بزوجها، وإن كانت معرفتي به هي في الأساس عن طريق صديقنا المشترك نايف... أذكر أن دينا منذ زمن ليس ببعيد كانت تتمتع بقدرٍ من الجمال، ولكن حتماً قبل أن تلجأ إلى جرّاح التجميل الّذي نفخ شفتيها فجعلهما تبدوان أشبه بمنقار البطة! لعلّ هذا ما دفع سلطان للبحث عن زواج المسيار، لا أدري؛ وإن كنت في قرارة نفسي أعتقد أنّه لو كانت دينا على ثقة من حب زوجها

لها، لما لجأت إلى جرّاح التجميل. فالرجل الّذي يحب امرأة يتقبلها كما هي؛ بميزاتها، وعيوبها. فإن كان سلطان لا يحب دينا– وعلى الأرجح هذا هو الحال– فلن تُغَيِّر شيئاً نفخة شفتيها.

– «يا رجل، دعك من أم عبد الله وأسعارها المبالغ فيها! على ماذا؟! والله البضائع الّتي تأتي بها لا تستحق... عليك بدبي يا سعود. هناك تجد مبتغاك من أجمل نساء العالم، وأزهد الأسعار، مقارنة بزيجات أم عبد الله».

– «لا يا نايف! حرام عليك! هؤلاء النساء لا تضمن نظافتهن، وقد يأتيك من إحداهن الإيدز، أو غيره من الأمراض!».

– «أنا لا أتحدث عن بائعات الهوى... ماذا تحسبني؟!».

– «عمّن تتحدث إذاً؟»

– «نساء عازبات؛ إمّا مطلقات، أو لم يتزوجن من الأساس، ولا يمانعن الزواج العرفي مقابل أن تدفع إيجار الشقّة، وبعض النفقات. الأمر برمته سيكلفك أقل بكثير مما ستدفعه عن طريق أم عبد الله، وستحصل على بضاعة أجمل بكثير... اسأل مجرباً، ولا تسأل طبيباً».

من سخرية القدر أنّه عن طريق نايف، تعرفت على المرأتين الوحيدتين اللّتين عشقتهما في حياتي: رباب، ومنال، تباعاً... كيف يمكن لشخص يفكر بهذا الشكل المهين نحو المرأة، أن يكون هو ذاته من عرَّفني على أجمل، وأرق، وأطهر امرأتين صادفتهما؟!

- «ماذا عنك يا دكتور طاهر؟».

- «طارق».

يبدو أن «سعود» لديه بوادر مرض الزهايمر! يخطئ في اسمي بعد أن عرَّفه نايف بي قبل قليل... فشتّان ما بين طارق، وطاهر!

- «عفواً طارق... كنت أتساءل: هل تفضّل المسيار، أم العرفي؟».

- «تقصد أن تسأل: المحلي، أم المستورد؟».

سلطان يقاطع، مطْلقاً ضحكة من ضحكاته السمجة... لا أعرف كيف وصل الحال بنايف حتى يصاحب مثل هذين؟! لم يكن هكذا شأنه في السابق. كان مثلي عاشقاً للمرأة، وليس محتقراً لها. تغيّر كثيراً في السنوات العشر التي غبتها عنه، عندما ذهبت للتخصص في أمريكا. عندما عدت، وجدته أصبح شخصاً آخر... لعلّ هذا ما جعل صداقتنا تبهت بعض الشيء؛ بل لولا أن معرفتي به تمتد إلى الطفولة المبكرة، وتربطني بعائلته صلة قوية، لربما انتهت تلك الصداقة نهائياً.

- «طارق ليس له في هذه الأمور يا سعود! هو من الموحدين».

- «أعوذ بالله! ونحن يعني المشركون؟!».

- «نايف يقصد أنني لست من أنصار تعدد الزوجات بأشكاله كافة... أرى أن المسألة لا تجلب لصاحبها غير وجع الرأس.»

– «على العموم أنا لست متزوجاً؛ يعني أعزب، على خلاف نايف وسلطان. وبالتالي، سينطبق عليّ وصف المُوَحِّد إن تزوجت مسياراً، أليس كذلك؟».

لم يحاول سعود إخفاء سخريته منّي، بل أكاد أجزم بأنه حرص على إظهارها، ولكن «نايف» لم يُفَوِّتها له...

– «يا رجل! أنا منذ أن عرفتك، وقبل أن تتخلص منك زوجتك السابقة، وأنت من أنصار التعدد عبر زواج المتعة!».

– «بل كان من أنصار المتعة من دون زواج!»

سلطان أيضاً يدلو بدلوه، مناصراً نايف.

– «يبدو وكأنني أصبحت مادة لسخرية اللّيلة! الله يكون في عونك يا طارق... مثلك لا ينبغي أن يترك وحده وسط هذين، ولكنّني مضطر للانسحاب، فلديّ موعد مهم».

والله خير ما فعل هذا الرجل الغثيث... لقد مللت من تفاهته، هو وصديقه سلطان! ليت زوج دينا يقتدي به هو الآخر، وينسحب من المقهى؛ تكون حينها ليلتي أجمل بكثير! ولكن مع الأسف، ليس كلّ ما يشتهيه المرء يدركه.

7

سلوى

طلبتُ من رئيسة ممرضات العيادات الخارجية لقسم الجراحة أن تستبدل ليليان بممرضة أخرى في عيادتي. لم أعد أطيق التعامل معها. مبالغتها في وضع المكياج، وتغنجها في الحديث مع الرجال من كبار الزوار... كلها أمور أجدها لا تليق مع سمعة المستشفى! مدير العيادات الخارجية الوقح، عندما أخبرته ضحك وقال لي: «ما الضير في ذلك؟ أوليست تعمل في عيادة تجميل؟!»... الجاهل لا يفقه شيئاً عن عملنا؛ وكأنّنا مثل القطاع الخاص، لا نُجري من عمليات سوى نفخ الشفتين، وشفط الدهون، وتكبير الثديين، وحَقْن البوتكس! لا يعلم أي شيء عمّا نجريه من عمليات إعادة ترميم لما أتلفه السرطان، أو حوادث الحريق! أظنّه على علاقة بليليان ولذلك يدافع عنها؛ أو أنّ أحد أسياده على علاقة بها، وقد أوصاه عليها! أيّاً كان السبب، فقد ضقت ذرعاً به وبها، ولذلك طلبت أن لا تعمل في عيادتي مرة أخرى، وإلّا فلن أحضر إلى العيادة! هذه عيادتي، ومن حقّي أن أعمل مع من أرتاح معهم، وليس من حقّ أحد أن يفرض عليّ ممرضة غنجاء، لا أراها كفئاً للعمل معي!

– «سلوى... ماذا فعلتِ لليليان؟ المسكينة أتتني منهارة، تقول إنك تريدين قطع عيشها من المستشفى».

طبعاً الدكتور أحمد صقر! لمن غيره ستذهب تلك المخادعة، وتتمسكن، حتى يأتي بنفسه إلى مكتبي من أجلها؟! لعلّه الوحيد في هذه المستشفى الذي يمكن خداعه بسهولة من قبل ممرضة فاشلة، وممثلة أفشل مثل ليليان!

– «أنا لم أقطع عيشها من المستشفى يا دكتور أحمد. كل ما في الأمر أنّني طلبت استبدالها في العيادة بممرضة أخرى تفهم في مهنة التمريض؛ أو بمعنى أدق، أريد استبدالها بممرضة حقيقية!».

– «حرام عليك، هي ليست بهذا السوء. أعطيها فرصة ثانية. أنت تعلمين جيداً أن استبدالها بطلب منك قد يلحق بها سمعة سيئة».

– «أنت تتحدث عنها وكأنها أصلاً تتمتع بسمعة جيدة، وتخشى أن تتأثر سلباً! الكل يعلم أنها في وادٍ، ومهنة التمريض في وادٍ آخر، ولولا علاقتها بأحدٍ ما من النافذين لما كان لها مكان في العيادة! صدّقني يا دكتور أحمد، هي لو كانت تفلح في أي عمل آخر لتم نقلها إليه، ولكنّ مهارتها الوحيدة تكمن في شكلها، ولذلك وضعوها في عيادة التجميل، على سبيل الدعاية، أو شيء من هذا القبيل».

– «يا شيخة، أنت تبالغين! أنا أيضاً تعاملت معها من خلال عيادتي، عبر السنوات الماضية، وكان أداؤها مقبولاً».

ماذا أقول له؟! أنت طَيِّب زيادة عن اللزوم، وبسهولة يمكن خداعك!

– «ولكنّني لا أرغب في ممرضة أداؤها مجرد مقبول! أريدها ممتازة».

– «هي وعدتني بأن تحسّن من أدائها. أعطيها فرصة ثانية من أجل خاطري. أنا لم أعتد أن أطلب منك شيئاً من قبل، فرجاءً لا تكسفيني».

– «حاضر يا دكتور أحمد... حاضر... سوف أفعل ما تريد».

الخبيثة! عرفت كيف تغلبني!

***

أعود إلى منزلي الخاوي الذي عانيت حتى أقنع أهلي بأن أشتريه لكي أقيم فيه مع الأولاد، قبل أن يسحبهم سعود منّي. الآن أصبحت أقيم فيه وحدي، ومرّات يتعطف عليّ فيها طليقي، ويرسل الصغيرين ليبيتا معي؛ طبعاً عندما يكون مشغولاً عنهم، ويريدني أن أساعدهم في المذاكرة! الأناني، يرسلهم من أجل راحته هو، وليس من أجلهم، أو أجلي!

الهاتف يرن... من الذي يتّصل على الهاتف الثابت هذه الأيام؟! لعلّه شخص يعلم أنّني لن أرد عليه إن اتصل بي عبر الجوّال الذي يظهر هوية المتصل. الهاتف الثابت له فوائده في هذه الحالات؛ ولكن... من عساه يكون المُتّصل؟ أيكون هو؟ هل يرغب في أن يحاول مرة أخرى معي، بعدما أكدت له أنّ كل شيء قد انتهى؟! كنت واضحة معه في المرّة السابقة؛ وعندما حاول الاتصال بي بعدها أكثر من مرّة على هاتفي المحمول، رفضت استقبال مكالماته. لا يمكن أن يكون بهذا الإلحاح!

– «ألو..».

– «سلوى، أرجوك خمس دقائق فقط».

بل هو خالد! يا إلهي، لماذا يصرّ على هذا النحو؟!

– «ماذا تريد؟ كنت واضحة معك في المرة السابقة».

– «أعلم، أعلم، ولكن... أنا واثق بأننا نستطيع الوصول إلى حل في ما يخص أبناءك... طليقك يريد الضغط عليك فقط، ولهذا..».

– «خالد، الأمر لا يتعلق فقط بالأولاد... أنت كذبت عليّ عندما أوهمتني بأنك مطلق!»

– «أنا لم أقل لك قط إنّني طلقت زوجتي».

– «قلتَ لي إنكما منفصلان، وفهمت من ذلك أنك طلّقتها، وتركتني على فهمي الخاطئ حتى اكتشفتُ الحقيقة! ماذا تسمي هذا خالد؟ أليس خداعاً؟!»

– «أقسم لك إن الأمر كان عبارة عن سوء تفاهم غير مقصود. ومع ذلك، أنا أتحمل اللوم كله! لكن أرجوك سلوى، كل ما أطلبه منك هو فرصة أخرى».

– «مستحيل... مستحيل... لا أستطيع. أرجوك خالد، لا تعاود الاتصال بي مرة أخرى. الأمر بيننا انتهى. أخرجني من حياتك، وعد لزوجتك وأولادك... رجاء، لا تتصل بي أبداً».

أُغلق الهاتف في وجهه... لم أعد أريد سماع أي شيء منه. لا ينبغي لي أن أعطيه أية فرصة من أجل إلقاء سيل من المبرّرات الفارغة عليّ! الأمر بيني وبينه

قد انتهى إلى غير رجعة. يجب أن يعرف هذا جيّداً... عليه ألّا يتصل بي مجدّداً بعد اليوم!

8

سعود

تبدو وكأنها في العقد السادس من عمرها، وإن كانت تحاول إخفاء أثر السنين عبر طبقات من مساحيق الوجه. وقد تكون أكبر بكثير من تقديري المبدئي، ولكنّ عمليات تجميل ناجحة أخفت الفارق؛ كما هو الحال مع الكثير من النساء هذه الأيام. ومن يدري؟ لعلّها مرّت تحت مبضع سلوى. فالدنيا أصبحت جدّاً صغيرة. الكلّ يعرف الكل...

– «مكتبك جميل جدّاً يا أستاذ سعود. واضح أن ذوقك رفيع، وأنك لا ترضى إلّا بالأفضل».

– «يا هلا بأم عبد الله... تفضلي هنا... ماذا تشربين؟».

– «كابتشينو لو ممكن، أو قهوة تركي».

– «لدينا كل شيء يا أم عبد الله».

العامل يأخذ الطلب ثم ينصرف. أنظر إلى أم عبد الله، راسماً على وجهي ابتسامة مصطنعة، أنتظر منها أن تريني ما جاءت من أجله في هذه الليلة. لا أحب مضيعة الوقت، وأفضّل الدخول في الموضوع مباشرة، دون مقدمات...

– «أتيت لك بأفضل ما عندي يا أستاذ سعود كما طلبت مني. والله، هذه البضاعة لا تظهر إلّا للخاصة من زبائني، فهي ليست لكل أحد، ولكنك من طرف الغالي الأستاذ سلطان العميم».

تناولني جوالها، وفيه مجموعة من الصور لنساء أقلّ ما يقال عنهن إنّهن في غاية الجمال! حقّاً، فالأمر كما وصفه لي سلطان... هنّ لسن فقط جميلات، ولكنّهن أيضاً في غاية الأناقة؛ وأجسادهن! كأنهن عارضات أزياء!! من أين أتت بهنّ أم عبد الله؟! مستحيل أن تكون كل هؤلاء النساء سعوديات!

– «ماذا عن هذه؟».

تلفتُ نظري امرأة تبدو لي في أواخر العشرينيات؛ هي لا شك أجمل الجميلات اللواتي رأيت صورهن في جوال أم عبد الله! بيضاء، متوسطة الطول، ذات شعر أسود كثيف، هيفاء الجسد، ونحيلة الخصر، حباها الله– أو ربما جرّاح التجميل لا أعلم– بثديين بارزين! وجهها المستدير تزيّنه عينان واسعتان خضراوان، كأنهما تنطقان باللهفة والشغف! في حياتي لم أرَ امرأة في جمالها! لا أظنّها سعودية خالصة. حتماً فيها عرق أجنبي؛ ربمّا إيطاليا، أو شيء من هذا القبيل...

– «يا سلام عليك يا أستاذ سعود؛ فعلاً ذوقك لا يعرف إلّا الأفضل! أنت اخترت أحسن وأغلى بضاعة عندي... هذه يا سيدي للمعلومية، ومن حظك، كانت إلى قبل نحو أسبوع متزوجة من رجل نافذ جدّاً. لا أستطيع طبعاً ذكر اسمه، من باب الحفاظ على سِرِّيَة العميل، وإن كنت واثقة بأنك سمعت به. ظلّ متزوجاً منها

نحو عامين حتّى ملّت هي منه، وطلبت الطلاق. حاول معها بكلّ الطرق من أجل استرضائها، ولكنّها أصرّت، فرضخ المسكين لطلبها، وهو في غاية الحزن. سبحان الله؛ فعلا مصائب قوم عند قوم فوائد... على العموم، هذه مبدئيّاً ستكلفك مهراً ثلاثمئة ألف ريال».

ثلاثمئة ألف ريال مهراً من أجل امرأة مطلقة؟! أنا عندما تزوجت سلوى لم أدفع سوى ربع هذا المبلغ!

– «وماذا بعد يا أم عبد الله؟ أي طلبات أخرى؟».

– «طبعاً يا أستاذ سعود هناك طلبات أخرى... أظنّ أن الأستاذ سلطان أخبرك بأن النفقة الشهرية تعتمد على عدد أيام زيارتك لها في الشهر. وهذا لا بدّ أن يحدّد قبل عقد القران. بالنسبة لريم، وهذا اسمها بالمناسبة، فنفقتها خمسة آلاف ريال عن كل يوم تزورها فيه؛ ولدي خصم خاص لك، لأنك من طرف الغالي الأستاذ سلطان، وهو تسعون ألف ريال شهري خالص، إن رغبت في زيارتها بشكل يومي، عدا طبعاً الويك اند؛ فهذه إجازتها».

تسعون ألف ريال شهرياً؟! هذا مرتب وزيرين!! لكنّها والله تستحق...

– «لا أظنّ أنني سوف أزورها بشكلٍ يومي... ربّما فقط ثلاثة أيام في الأسبوع».

– «كما ترى يا أستاذ سعود؛ وإن كان زوجها السابق قال الشيء ذاته في بادئ الأمر، ولكن بعد أسبوع واحد فقط، جاءني ليترجّاني حتى أقنعها بأن تسمح له بزيارتها كل يوم، عارضاً كامل المبلغ الشهري؛ مئة وخمسين ألف ريال، ولكنّ ريم

رفضت... عفواً أستاذ سعود... لا تؤاخذني في الاستفسار، ولكنّني فهمت من الأستاذ سلطان بأنك غير متزوج».

– «صحيح».

يا ترى، ما الذي تريد هذه المرأة المتطفلة الوصول إليه؟

– «في العادة، الرجال الذين يأتون إليّ من أجل زواج المسيار هم المتزوجون زواجاً رسميّاً، وملّوا من زوجاتهم، ويبحثون عن نساء يافعات يُعِدن إليهم وهج الحياة من جديد، إن فهمت قصدي... أنت وضعك مختلف... عفواً أستاذ سعود، لا تؤاخذني على تدخلي في شؤونك الخاصة... ولكن لديّ نساء كثيرات من الأعمار كافّة، وكلهنّ من أسرٍ كريمة ومرموقة يبحثن عن زوج مثلك... أقصد طبعاً زواجاً رسميّاً، والأمر سيُكلّفك أقل بكثير».

حقّاً؟! امرأة مثل هذه تنصحني كيف أدير حياتي؟!! هذا الذي ينقص!!!

– «مشكورة يا أم عبد الله، ولكنّني لا أبحث عن الزواج الرسمي... لقد جرّبته، ولم أعد راغباً فيه. متى نستطيع إتمام موضوع ريم؟»

– «اصبر على رزقك يا أستاذ سعود. قلت لك إن ريم ليست كباقي النساء. هي لها شروطها».

– «غير الّتي ذكرتِها؟!»

– «أنا لا أتحدث عن المال فقط... لا بد قبل كل شيء أن توافق هي عليك».

– «توافق عليّ أنا؟!».

– «طبعاً... مثلها لا تقبل بأي شخص... المعذرة، أنا لا أقصدك أنت على وجه الخصوص، فأنت ألف من تتمناك، ولكن هذه هي طريقتها. والله لو أنّني أخبرتكَ بأسماء أزواجها السابقين لفهمت قصدي. ولكنّ شرف المهنة وأمانتها يمنعانني من ذلك..».

شرف المهنة وأمانتها؟!! أشعر برغبة ملحة في إلقاء هذه العجوز المتصابية من النافذة!!!

– «ولكن، لا تشغل بالك، فأنا واثقة من موافقتها عليك... لا تحمل همّاً. ولكنّها... ولكنّها في الغالب ستطلب منك مقابلة شخصية، قبل إتمام الموضوع».

لم أتمالك نفسي، وخرجت منّي ضحكة مدوية، لعلها أسمعت كل الموظفين في الخارج... تلك المرأة العاهرة تشترط مقابلة شخصية قبل أن توافق على شخص مثلي؟!! والله لو كُنّا في الأزمنة الغابرة، لكان مثلها ممّن يُبَعن في سوق النخاسة!!!

– «المعذرة يا أم عبد الله. لا تؤاخذيني، فأنا جديد على مثل هذه المسائل... على العموم، أنا جاهز لأي... لأي مقابلة شخصية تطلبها ريم... في انتظار تحديد الموعد».

– «على بركة الله يا أستاذ سعود... وصدّقني، إن تم الموضوع على خير، فإنك لن تندم أبداً. ريم مخلوق آخر: فصيلة نادرة، غير باقي النساء».

9

طارق

أيام مضت، وعدّت لياليها، وأنا ما زلت أفكّر فيها. حسبت في بادئ الأمر أنّني مجرد بُهرت بجمالها، ولكنّ الأمر بدا لي الآن أبعد من ذلك بكثير! هي ليست أول امرأة جميلة أصادفها، بل هي ليست حتى أجملهن، ولكنّني أراها كذلك: أليس هذا أمراً عجيباً؟ أن تدرك بعقلك أنك لست أمام أجمل امرأة صادفتها، ولكن قلبك يراها أجملهن على الإطلاق! أهو ذلك الشعور الذي صادفته منذ زمن بعيد، ونسيته؟ هل عاد مجدداً بعد كل تلك السنين، مثل فصل ربيع مُزهر، وسط صحراء قاحلة جرداء؟! لماذا إذاً لا تريد صورتها وابتسامتها أن تفارقا خيالي؟! تذكرت فجأة عبد الحليم وهو يغني بعدما صادف فاتن حمامة في فيلم أيّامنا الحلوة: «ابتسامتها ويّا رقّتها وردة بتفتح يا حلاوتها، وأنت يا قلبي ياللّي حبيتها آدي نظرتها لسه في عِنَيَّه».

كأنّني أصبحت مراهقاً على كِبَر!

ولكن، يبقى ما قاله عنها سالم أمراً يريبني، وإن كان الدكتور أحمد له رأي مخالف... كأنهما كانا يتحدثان عن شخصية مختلفة... لكن، ما شأني أنا في كل هذا؟ هل أرغب في إقامة علاقة معها؟ معقول؟! حتى وإن رغبت في ذلك، لا أظنّها من هذه النوعية من النساء. مثلها إن كانت ترغب في إقامة علاقة مع رجل، فهي حتماً علاقة زواج، وبشكل علني: لا على طريقة سلطان ونايف... أمّا أنا... أنا لست

ممّن يرغبون في تعدد الزوجات. لم أفكر قط في حياتي بأن أتزوج على هديل. وهذا ليس حبّاً فيها، ولكن رغبة في أن أكون مستقراً. أن أفتح بيتين، وأتناوب على الذهاب إليهما، وما يتبع ذلك من وجوب العدل بين الزوجتين، ثم المشاكل التي قد تحدث، بل حتما ستحدث بين الزوجتين... لا، لا، فهذه الحياة حتماً ليست لي! يجب عليّ صرف النظر نهائياً عن سلوى. لا يجب أن أفكر فيها بعد الآن. من حسن الحظ هي في قسم، وأنا في قسم آخر. الّذي جعلني لا أصادفها طيلة تلك السنين الّتي مضت، سيجعلني لا أصادفها قريباً، على الأرجح، مرّة أخرى... والبعيد عن العين بعيد عن القلب... يجب أن أصرف نظري عنها نهائياً... كما أنّ رأي سالم فيها، على الأغلب، هو الأصح. الدكتور أحمد طَيِّبٌ زيادة عن اللّزوم، ولا أثق في حكمه على الناس... نعم، هو ذاك. الجمال وحده لا يكفي، خاصة وإن كانت شخصيتها كما وصفها سالم! سوف أنسى أمرها، ولا أفكر فيها بعد اليوم. فليس لديّ وقت لمثل هذه الأمور!

***

شعرت برغبة في البقاء بالمستشفى... أو ربما كانت الرغبة في عدم الذهاب إلى المنزل الآن... لا أدري، ولكنّني وجدت نفسي أذهب إلى حديقة المستشفى المنزوية بعد انتهاء الدوام، ثم ظللت أسير فيها؛ بين نخيلها وأشجارها، واضعاً السماعتين في أذنيّ، ومستمتعاً بباقة مختارة من أغاني عبد الحليم، وفريد، وعبد الوهاب، وأم كلثوم، وكذلك محمد فوزي الذي أصبح شبه منسيّ هذه الأيام. لست من هواة الموسيقى العربية كثيراً، ولكنّني بتّ مشتاقاً لها مؤخراً... لا أدري لماذا؟

في السابق، كنت كلّما استمعت إلى أغنية أمل حياتي، تعود بي الذكريات عقدين ونصف إلى الوراء؛ أما في اللحظة هذه، فالأمر مختلف. كأنّني أعيد من جديد اكتشاف رائعة أم كلثوم الّتي لحّنها عبد الوهاب، وكتب كلماتها أحمد شفيق كامل...

يا إلهي! كم صارلي هنا في الحديقة؟! أمل حياتي ترتيبها الأول في القائمة، وها أنا أستمع إليها للمرة الثانية؛ جميع الأغاني الّتي في القائمة يستغرق سماعها نحو ثلاث ساعات، وقد أعادني مُشَغِّل الأغاني في هاتفي الذكي إلى بداية القائمة من جديد! كم الساعة الآن؟ الثامنة مساءً!! ثلاث ساعات ونَيِّف وأنا أمشي في حديقة المستشفى دون أن أشعر!!

أتّجه نحو مكتبي بقسم أمراض القلب... أمراض القلب... أظنّ أن جورج وسوف عندما غنّى: طبيب جرّاح، كان يقصدني. «طبيب جرّاح قلوب الناس أداويها، وياما جراح سهرت الليل أداريها. شافوني قالوا متهني؛ من كثر الفرح بيغني. تعالوا واسألوا عني؛ انا اللي بيّا جراح، أطبّا الكون ما تشفيني..».

عليّ أن أنزع من ذهني هذه الخواطر السلبية... لا أدري لماذا أصرّ على استحضار هكذا خواطر كل فترة، وأخرى؟ خاصة عندما أقابل... لا... لقد اتخذت عهداً على نفسي بألّا أفكر فيها، وها أنذا أكاد أفكّر فيها... لا بد وأن أتوقف عند هذا الحد...

لا يوجد أحد في المبنى لكي أتحدث معه؛ وهذا المصعد يفتح لي بابيه لأجده خالياً كما هي العادة في الثامنة مساء بمبنى مكاتب الأطبّاء، في الجانب الشرقي من

المستشفى. أصعد إلى الدور السادس... أخرج من المصعد متّجهاً إلى مكتبي. لا أريد أن أفكر الآن في أي شيء سوى الذهاب إلى المكتب من أجل أخذ أغراضي، ومن ثمّ الذهاب إلى المنزل حتى أرى من أراه هناك. مع ازدحام الشوارع في هذا الوقت، لعلّي لن أصل قبل التاسعة... مشروع القطار هذا جعل شوارع الرياض لا تُطاق! متى سينتهي المشروع لكي نرتاح من كل هذه التحويلات؟! انتقاد الأحوال هو بالفعل أفضل طريقة لتشتيت الذهن عن الأفكار العاطفية، غير المرغوبة...

غريبة... كأنّني أرى ضوء مكتب مدير مركز القلب مضيئاً... هل لا يزال في مكتبه؟ لِمَ لا؟ فزوجته لم تعد من بوسطن بعد... حقّاً، لا أرغب في رؤيته الآن والتحدث معه. أرجو أن يكون باب مكتبه مغلقاً حتّى لا يراني... لعلّي لو أمرّ من أمامه سريعاً... حمداً لله الباب مغلق. ولكن... ما هذه الضحكة المغنّجة من داخل مكتبه؟! حتماً ليست ضحكة مارتن زرتك، مدير مركز القلب. لا أرى سكرتيرته على مكتبها؛ أتكون هي؟

– «مارتن... پليز... تأخرت... زوجي ينتظرني».

هذا حتماً ليس صوت السكرتيرة! اللّهجة الإنكليزية الممطوطة الّتي تتحدث بها المرأة كأنها تحمل طابعاً لبنانيّاً، ولكنّني لا أعلم لمن تكون؟ الصوت غير مألوف.

باب المكتب يُفتَح، وأجد نفسي واقفاً مشدوهاً أمام مارتن، وقد بدت عليه هو الآخر دهشة شديدة، وكأنّ عفريتاً ظهر أمامه فجأة! حتماً لم يحسب أنّ أحداً في القسم...

– «طارق؟! ... ماذا تفعل هنا في هذا الوقت؟!».

بماذا أجيب كازانوڤا مركز القلب؟!! ألم يكن بمقدوره استئجار غرفة في فندق؟! أو أخذها إلى بيته في الكومباوند المغلق، المنعزل عن الرياض، ومجتمعه؟!!

- «لدي بعض الأعمال المكتبية..».

لعلّي أتلاعب بأعصابه بعض الشيء، خاصة وأنّني أراه محتاراً لتواجدي المفاجئ، ليبدو كالجرو التائه...

- «كأنّني سمعت صوت شخص آخر معك... هل لديك اجتماع؟».

رسالة أريد إيصالها له: «كشفتك يا نمس!».

لكم أزعجني، وأزعج زملائي السعوديين، هذا العلج الأمريكي الوسخ! يدّعي دائماً أنّنا كسالى ولا نريد أن نعمل، وهو بالطبع ادعاء باطل، ومليء بالكذب والبهتان؛ فقط لكي يبرّر بقاءه كمدير للمركز أمام الإدارة، بمرتبه المبالغ فيه، والّذي يتجاوز أعلى مرتب لأي طبيب سعودي بأربعة أضعاف! طبعاً هو يعمل أكثر منّا جميعاً!! أعطني ما يتقاضاه، وسأعمل أكثر منه بمرات!! العمل بمقدار الجزاء، أليس كذلك؟ هو يتقاضى أضعاف ما أتقاضاه، فيجب أن يعمل أضعاف ما أعمل!! ولكن، لا! نحن أبناء البلد، ويجب علينا أن نضحّي من أجله بمرتب أقل! هكذا هي حجة الإدارة دائماً... لكنّ هذه التضحية لا تشملهم؛ فهم يتقاضون المكافآت، والمحفزات الّتي تشبعهم وتغنيهم، وكأنّ المستشفى قائم فقط على كبار الإداريين والأطباء الأجانب؛ أمّا الأطباء السعوديون فهم عبء عليه!! بل نحن عالة على المستشفى، ويجب التخلص منها!!!

– «ليس اجتماعاً، بل... بل... هي مشكلة تخص..».

المسكين يتهته، لا يعلم بماذا يجيب... وإن كنتُ لا أشعر بأي شفقة نحوه... يبدو أنّه على علاقة بامرأة لبنانية متزوجة، تعمل في المستشفى على الأرجح... موقف لا يحسد عليه! أظنّه لن يتمكن من الانتصاب لمدة أسبوع على الأقل...

– «مشكلة تخص زميلة في المستشفى، أحاول حلّها بعيداً عن تعقيدات الإدارة».

هل أستمر في التلاعب معه، أم أرحمه قليلاً؟ هممم... هذا الأمريكي الوسخ لا يستحق الرحمة!!

– «زميلة هنا في مركز القلب؟ عمّن تتحدث؟!».

– «طارق... لا تشغل بالك بهذه الأمور الإدارية... كلها وجع رأس..».

أمور إدارية أم جنسية يا مَعَفِّن؟!! أيظن حقاً أن مثل هذه الحجة الواهية ستخيل عليّ؟ طبعاً! فهو يحسب أن جميع السعوديين بلهاء مثل الإدارة الفاشلة الّتي تعطيه أضعاف الراتب الذي يستحقه»!!

– «كأنّني سمعت هذه الزميلة تضحك... يبدو أنك تمكنت من حلّ مشكلتها».

صفعة على الخد لم يكن يتوقعها! هيّا... أرِني يا مارتن الكلب كيف ستخرج من هذه؟!

– «طارق... أذكر أنك تقدّمتَ بطلب إجازة من أجل الذهاب إلى مؤتمر جرّاحي القلب في لندن... لديّ شركة مستعدة لإرسال طبيب من مركز القلب على نفقتها لأي مؤتمر يرغب فيه، وقد رشَّحْتُ اسمك من بين جميع أطباء الأقسام المختلفة في المركز... ولديّ كذلك خبر سار آخر لك. سوف أستثنيك من قرار عدم الجمع بين أن ترسل شركة خاصّة طبيباً على نفقتها، وصرف مبلغ مكافأة حضور المؤتمرات من قبل المستشفى. سوف تحصل أنت على الاثنتين، وهذا ليس كل شيء... فسوف تكون هناك مكافأة استثنائية لك في نهاية العام... أنت طبيب مجتهد، ومثال يُحتذى به من قِبَل كل زملائك».

الكلب يحاول رشوتي! ولمَ لا، وقد كسرت عينيه؟!!

أيها التاريخ اكتب، وسجّل ما حدث بماء من ذهب! فسوف أمر من أوسع أبوابك، كأول سعودي حُرّ يتمكن من كسر عينَي علج أمريكي وسخ!!!

10

سعود

ردهة فندق الرتز... لماذا لست مستغرباً؟! أظنّني سألاقي شخصاً أعرفه في أية لحظة، فكل المقابلات أصبحت هنا، في هذا المكان الهادئ من غرب الرياض... شيء عجيب والله! أوافق على جميع مطالبها الباهظة، وتصرّ بعد ذلك على المقابلة الشخصية، وكأنّني أتقدم للحصول على وظيفة!! قسماً بالله يا سلطان، لو لم أجد ريم– بعد كل هذه المهانة– تستحق العناء، لآخذنّ كل ما سأدفعه لها من جيبك الخاص!! فأنت الذي عرّفتني على أم عبد الله، بعدما رفعتَ لي نساءها إلى السماء... وإن كان الحق يقال... الصور التي أرتني إياها أم عبد الله لريم تأسر الألباب! لم أرَ في حياتي جمالاً مثل الذي رأيته في تلك الصور، وأنا الذي مرّ عليّ شتّى أصناف النساء! لا مغربية، ولا لبنانية، فتلك السعودية المهجنة هي الّتي عليها الكلام!! لكن، إن شاء الله تكون بضاعتها طبيعية وخالية من المحسنات الصناعية. أم عبد الله أكّدت لي أنها لم تلجأ قط إلى مبضع جراح تجميل، وإنّ كل الذي رأيته في الصور، وسوف أراه على الطبيعة عند اللقاء المرتقب، طبيعي مئة في المئة؛ وهذا ما أصبو إليه! على خلاف سلوى الّتي بدأت تحقن وجهها بحقن البوتكس... ترغب في محو آثار السنين؛ لعلّها تبحث لنفسها عن زوج جديد!

لماذا أفكر في تلك المرأة الجاحدة الآن وأنا على وشك أن أقابل أجمل نساء العالم؟! حقّاً، أستعجب من نفسي في بعض الأحيان.

– «مساء الخير».

امرأة تضع النقاب اقتربت منّي. أظنّها كانت جالسة في الجهة المقابلة، ولكنّني لم ألتفت إليها حتى اقتربت هي، ورأيت عينيها الخضراوين، فعرفتها على الفور! ريم!

– «أستاذ سعود؟».

نطقت اسمي برقّة، جعلتني أعشقه... البداية مشجعة جدّاً!

– «نعم».

أجيبها... فتردّ عليّ مؤكّدة ما سبق وأدركته من نظرة عينيها الساحرتين:

– «أنا ريم».

ساعة من الزمان عدّت وكأنها ثوانٍ، لا أعرف كيف! الوقت مع هذه المرأة له بعد آخر. هذا، ونحن لم نرتبط بعد؛ فماذا يا ترى سيحدث بعد الزواج؟! أخشى ما أخشاه، أن يحدث معي ما حدث مع زوجها السابق، كما أخبرتني أم عبد الله، فلا أطيق فراقها... وحينها، سيكلفني ذلك مبلغاً طائلاً!

لا أذكر ماذا طلْبتُ في مطعم الفندق... لعلّه التِندَرلويْن... أو ربما أضلاع الغنم؟ لا أظنها طلبتْ هي شيئاً سوى السلطة... بل طلبت كذلك السالمون... وإن كنت لا أذكر ما الذي طلبتُه من طعام، ولكنّني على يقين بأنّني لم آكل من طبقي سوى القليل، فلقد بدأت أشعر بالجوع مجدداً. نعم، كنت مشغولاً بالنظر إليها، وتَخَيُّل حالنا بعد الزواج... هذه المرأة النارية ستعيدني عشرين سنة إلى الوراء...

ڤياچرا متحركة... وإن كنت أخشى من سرعة القذف معها، لشدّة لهيبها! كدت أفعلها، فقط من الجلوس بجوارها!! يجب عليّ أن أجد حلاً لهذه المشكلة إن حدثت... لا أظن أن امرأة مثلها ستتحمل هجران الشبق، إن فلتت منّي الأمور!

غداً عليّ أن أذهب إلى المركز الطبي بحي الورود الذي حدّدته لي، لكي أجري الفحوصات الّتي اشترطتها. سيستقبلني هناك طبيب اسمه حاتم، وسيقوم هو بالإجراءات اللازمة، للتأكد من خلوي من جميع الأمراض الجنسية المعدية، في سِرِّيَة تامّة... شرط أساسي قبل إتمام أي إجراء؛ فجمالها وصحتها هما رأس مالها، ولن تتهاون في اتخاذ أي إجراء من أجل المحافظة عليهما... لا بأس... لا بأس، فهي والله تستحق!

بعد اجتياز الفحوصات الصحيّة، يجب أن أجتاز الفحص المالي؛ وهو بالنسبة لها أمر لا يقل أهمّية. تريد أن تضمن قدرتي المادية على مواكبة متطلباتها، بجانب قدرتي الصحية... حقيقةً، أجُلّ فيها اهتمامها بجميع التفاصيل، وترتيبها لخطوات العمل بحرفية بالغة... سأذهب إلى محاميها وأوقع معه عقد إيجار شكلي لعقار تمتلكه، بالمبلغ الشهري ذاته الذي اتّفقت عليه مع أم عبد الله، على حسب عدد زياراتي لريم، بواقع خمسة آلاف ريال للزيارة الواحدة؛ أي سيكون مبلغ الإيجار الشهري الذي سأوقعه في حدود خمسة وستين ألف ريال. بعد توثيق العقد، سأذهب إلى ڤيلَّتها بحي النخيل الغربي من أجل إتمام إجراءات الزواج، عبر مأذون تتعامل معه منذ فترة، سيكتب لنا عقد القران دون أن يسجّله في مكتب الأحوال المدنية، وبالتالي ستضمن ألّا أصبح وليّ أمرها في النُظم الرسمية، وأنا كذلك لن أضطر إلى إضافتها إلى دفتر العائلة. بالنسبة لشخص مثلي

غير متزوج، هذا الأمر ليس بتلك الأهمية، ولكنّ الأمر حتماً مختلف لمن هو متزوج من امرأة غيور، ولا يرغب في أن يفتضح أمر زواجه المسيار!

حقّاً، أنا معجب جدّاً بريم! فهي ليست فقط امرأة في غاية الجمال والجاذبية، ولكنّها تدير ثرواتها الطبيعية بشكل احترافي، قلّما رأيتُ له مثيلاً!

11

سلوى

لا أستطيع بداية يومي من غير تجرّع قهوة الصباح، ولا أستطيع مواصلة باقي اليوم من غير تناول كوبين آخرين، وقد أزيد عليها كأس الشاي، ثم أختم مسائي قبل النوم بشراب الزنجبيل الدافئ. أصبحت هذه المشروبات الساخنة جزءاً من روتين حياتي، ولا يمكن الاستغناء عنها تحت أي ظرف كان. كوب القهوة الأول دائماً ما يكون في المنزل قبل أن أخرج إلى العمل، أما الكوب الثاني والثالث فيكونان عادة بالمستشفى: من المقهى الخارجي شتاءً حيث يكون الطقس جميلاً، ومن المقهى الداخلي صيفاً بسبب لهيب الحر. أما الربيع والخريف فهما فصلان من النادر أن نراهما في الرياض، وإن جاءا فسرعان ما يختفيان؛ مثل لحظة سعادة عابرة لا تدوم...

أذهب في العادة إلى المقهى الخارجي قبيل فترة الغداء لكي أتفادى الازدحام، لكنّني اليوم تأخرت حتى منتصف النهار على غير عادتي... كم أكره الازدحام... أمامي خمسة أشخاص؛ عليّ الانتظار... صبري ينفد بسرعة، ولولا حاجتي الملحة إلى القهوة لمشيت؛ حتّى لا أضطر إلى انتظار كل هؤلاء... كم أكره الانتظار...

– «كابتشينو ويذ سكيمد ميلك پليز».

أخيراً جاء دوري... والآن، أعود إلى المكتب لكي أنهي بعض الأوراق، ثم أغادر مبكراً المستشفى حتى أقضي بعض الوقت مع الأولاد، قبل ملاقاة دينا وباقي الصديقات على العشاء.

***

– «طبعاً والدتك غلطانة... الموضوع أنت حسمته وأنهيته قبل السفر، فلماذا الرجوع إليه مرة أخرى؟!».

حقًّا لا أحد يفهمني في هذه الدنيا مثل دينا، أختي الّتي لم تلدها أمي... أخبرتها، ونحن في المطعم باتصال خالد، وكيف علمت لاحقاً أن ماما هي التي أخبرته بقدومي من أمريكا لكي يحاول معي مرة أخرى، لعلّه يفلح في إقناعي بالعودة إليه وإتمام الزيجة... مسكينة، لا يزال لديها أمل بالرغم من علمها جيّدًا بأنّني من النادر أن أتراجع عن قرار سبق وحسمته.

– «والله أفضل شيء فعله سعود أنه سحب منك الأولاد عندما فكّرت في الزواج من خالد. على الأقل، تلك الفعلة جعلتك تراجعين نفسك قبل التورط في الزواج من رجل متزوج!».

– «والله أنا عندي أبقى عازبة بدون زواج، ولا أتورط مع شخص متزوج، وأصبح أمام الناس الزوجة الثانية!».

نجود هي الأخرى مثل دينا تؤيد موقفي... كم أنا محظوظة بصديقاتي!

– «ثمّ إنّ الرجل الذي يتزوج على زوجته الأولى، ما الذي يضمن بأنّه لن يتزوج على زوجته الثانية؟!».

– «صح كلامك يا نجود... والله أنت أعقل واحدة فينا!».

– «حبيبة قلبي يا دينا؛ أنت الخير والبركة... بالمناسبة، ما هي أخبار عروستنا الحلوة؟ أمستعدة للفرح؟».

– «الله يسعدها. دعت وحدها أكثر من ثلاثمئة شخص من صديقاتها، ومعارفها! القاعة لا تتحمل أكثر من ألف شخص، يعني كل ما تبقى لي ولأم العريس أقل من سبعمئة دعوة فقط! لا أعلم أدعو من، وأترك من؟! وعندما حاولت إقناعها بالتخفيف من عدد الذين دعتهم حتّى تترك لنا فرصة لكي ندعو المزيد ممّن يهمنا حضورهن، ذهبت إلى سلطان، واشتكته! أبوها هذا مدلّعها على الآخر!».

– «الله يخليه لها ولك. طبعاً لازم يدلعها؛ هو عنده كم عروسة بتتزوج؟! لكن، لا تخليه في معمعة الفرح ينسى يجيب لك هديّة أم العروسة!».

– «طبعاً لن أنسى يا نجود... ولن أقبل هدية أقل من تلك الساعة الكارتيي الّتي رأيناها معاً!».

– «أتقصدين تلك المرصعة بالماس؟!».

طبعاً دينا تقصد تلك الساعة التي تساوي أكثر من مئة ألف ريال! هي لا تقبل سوى بالغالي، وزوجها سلطان سخي. لن يبخل عليها بهدية ثمينة كتلك...

– «إيه، طبعاً أقصدها. أم تحسبينني سأقبل هدية أقل من تلك الساعة؟!».

– «لا والله... حبيبتي، أنت مقامك حتى أغلى منها. الله يخلّيكم لبعض يا رب».

أحياناً كثيرة أشعر بأنّ السعادة الّتي تحاول دينا إظهارها مجرد واجهة غير حقيقية، وأحياناً أشعر أنّها فعلاً تحب سلطان... ربما يكون شعوري نحو زوجها نابعاً من صداقته لسعود، فالطيور على أشكالها تقع، أليس كذلك؟ لكنّ الحق يقال: إن كانت دينا غير سعيدة في زواجها، لكنت أول من يعلم، فهي لا تخبّئ عنّي شيئاً أبدًا... وإن كنت... وإن كنت أشعر في بعض الأحيان، بأن في حياة دينا سرّاً دفيناً لم تبح به لي حتّى الآن.

12

طارق

لم أعد قادراً على إزاحة صورتها من خاطري. لا أعلم ما الذي جرى لي؟ وكأنّني لم أصادف امرأة جميلة من قبل... بل أصبحت أقيس جمال كل امرأة أصادفها عليها، وكأنها المقياس الذهبي الذي يُقاس عليه كل جمال. إيقاع حياتي لم يعد كما كان، حتماً قد تغيّر حتى أصبحت هي من يحدِّده؛ كالمترونوم الذي به يُحَدَّد الإيقاع الذي تعزف عليه الآلات الموسيقية أجمل السيمفونيات!

رأيتها عند مقهى المستشفى الخارجي. وقفتْ أمام الشبّاك الموازي تنتظر حتى يأتي طلبها... كابتشينو مع حليب قليل الدسم. كم هي جميلة! لا أفهم كيف لمثلها أن تبقى حتى الآن بلا زواج من بعد طلاقها؟ يبدو من ردائها أنّ اليوم يوم عمليّاتها. تعجبني أناقتها حتى في رداء العمليات الخاص بها؛ إنّه حتمًا مختلف عن الرداء المعتاد الذي تصرفه المستشفى لأطبائها. كما أنه يُظهِر جسمها النحيل، وكأنه جسم فتاة في العشرين من عمرها. تعجبني المرأة التي تحافظ على رشاقتها بالرّغم من سنوات عمرها، وإنجابها للأطفال... ولكن... هل لديها أطفال؟ جسمها لا يوحي بأنها قد أنجبت، إلّا إذا كانت تمارس الرياضة بانتظام فلم يترهل جسمها بسبب الحمل والإنجاب. كم يا ترى تبلغ من العمر؟ لا أظنها تتجاوز الثلاثين، أو لعلّها أكبر قليلاً. على أية حال، سن المرأة لا يهم طالما أنها تعتني بنفسها، وهي حتماً تعتني!

كأنّها طلّت عليّ... أظنها رأتني كما رأيتها، فكادت ترسم ابتسامة خجولة على وجهها. هل يا ترى تفكر فيّ هي الأخرى كما أفكر فيها؟ هل تشعر بانجذاب غريب نحوي؟ لا أظنّ أن الذي أشعر به من طرف واحد... نظراتها المترددة نحوي تنبئ بذلك. لعلّي إن ذهبت إليها، وتحدثت معها، لَتَأكّد لي حدسي. ولكنها، مع الأسف، غادرت المكان قبل أن أعزم أمري... اللّعنة! لماذا تردّدت هكذا؟! كان يجب عليّ الذهاب إليها، من أجل إلقاء التحية على الأقل... حتماً حسبتني غير مهتم بها فغادرت. لا أظنّ أن الأمر يحتمل أي تأجيل... مشاعري تجاهها واضحة: أشعر برغبة شديدة في التعرف عليها. لا أدري إلى أين سيقودني هذا الشعور المُلِحّ بالانجذاب إليها؟ ولكنّني على أتم الاستعداد لكي أتخذ خطوات فعّالة من أجل معرفة الإجابة عن هذا السؤال.

***

– «الّذي فهمته منها أن زوجها كان يخونها، ولذلك خلعته».

هذه من المرات القليلة التي أزور فيها الدكتور أحمد صقر في مكتبه بقسم الجراحة... أعترف بأنّني ذهبت إليه متمنياً أن ألقاها في الطريق، ولو صدفة، كما كان الحال صباح اليوم أمام المقهى.

– «ما اسم زوجها السابق؟».

– «والله لا أذكر... هو رجل أعمال غني على حسب ما فهمت، وقد عرض عليها أموالاً طائلة من أجل أن تسامحه وتبقى معه، ولكنّها رفضت».

– «هذا دليل على أنّ لديها كرامة... تعجبني».

– «هي إنسانة ممتازة بلا شك، ولذلك نصحت سالم بها».

– «دعك منه يا دكتور أحمد. سالم هذا لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب».

– «إذاً، ما سر اهتمامك المفاجئ بها؟ لا تكون..».

أخيراً، بدأ الدكتور أحمد يفهمني. طبعاً أنا لا أسأل عنها من أجل سالم، مع احترامي الشديد له ولصداقتنا... لا، الأمر هذه المرّة يتعلق بي أنا وحدي، وأظن أن الدكتور أحمد من واقع معرفته الوطيدة بها وبي أفضل من يقوم بالمهمة.

– «أريدك أن تكلمها عنّي، بعد إذنك».

– «هل أنت متأكد؟ ماذا عن زوجتك وأولادك؟».

– «لا تشغل بالك بهذا الأمر. أنا كفيل بزوجتي وأولادي... أتظنها ستمانع الارتباط بشخص متزوج؟».

لعلّها لا ترغب في أن تصبح زوجة ثانية... لا أدري لماذا لم أفكر في هذه المسألة حتى الآن؟ سؤال الدكتور أحمد عن زوجتي وأولادي وكأنه أيقظني من حلم جميل!

– «لا أتوقّع ذلك. خاصة وأنه سبق أن خطبها رجل متزوج..».

– «ماذا تقول؟! أنت لم تخبرني بأنها مخطوبة!».

– «لم تعد مخطوبة. الأمر لم يستمر بسبب اعتراض أولادها بشكل عنيف؛ طبعاً بإيعاز من أبيهم الذي استغل الأمر، وسحب الأولاد منها ليعيشوا معه... إن سألتني، فأنا أرى أن ما حدث لعلّه يصبّ في مصلحتك».

– «مصلحتي أنا! كيف؟».

– «لأن سلوى، خلاص، امتصّت صدمة اعتراض الأولاد على فكرة الزواج من رجل غير أبيهم؛ وكذلك طليقها، أظنّه الآن أصبح أكثر تقبلاً لفكرة زواجها. وبالتالي، ستكون المشاكل أقل».

كلام الدكتور أحمد في محله. فعلًا، مصائب قوم عند قوم فوائد؛ أو لعلّ الأقدار هي التي ساقت ذلك الرجل إلى سلوى لكي يمهد لي الطريق... ألذلك يا تُرى قابلتها الآن وليس من قبل؛ بالرغم من كوننا نعمل في المستشفى ذاته منذ سنين؟ وكأن الأقدار تلعب لعبتها من أجل أن توفّر لي أفضل الفرص معها! بدأت أتيقن من شيء مهم؛ شيء شعرت به منذ أول مرة وقعت عليها عيناي: هناك رابط غريب يربطني بها!

***

أنتظر مكالمة الدكتور أحمد على أحر من الجمر. هل ستوافق يا ترى؟ لا أرغب في التقدم إليها مباشرة، بل أريد أن أتعرف عليها عن قرب أوّلاً، وتتعرف هي عليّ كذلك. عملُنا – نحن الاثنان – في مستشفى واحد يعطينا فرصة ذهبية قلّ ما تتوفر عند غيرنا في السعودية. نستطيع هنا أن نتحدث دون حرج، بل وحتى أن

نلتقي على الغداء، أو على القهوة، إن لم يتسنَّ لنا الغداء... يجب علينا أن نستغل هذه الميزة النسبية...

الساعة السابعة والنصف، ولم يتّصل بي الدكتور أحمد بعد! وعدني بأنه سيكلّمها اليوم، ثم يخبرني بما جرى، وحتى الآن لم يفعل!

لقد تأخر الوقت، ويجب عليّ أن أذهب الآن إلى عزاء فواز الصالح... لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك. لعلّي أكلم الدكتور أحمد بعد العزاء.

***

أركن سيارتي على بعد مسافة من منزل فواز الممتلئ بالمعزين. أنوار المنزل مضاءة بالكامل، ووفود الناس تتهافت؛ من لا يدرك الأمر لن يستطيع التفرقة في مثل هذه الحالات بين صوان عزاء أو حفل عرس مُقام، فكلاهما في الرياض يبدوان سواء. الفرق فقط في الكلام الذي يُقال عند تحية أهل الدار في المدخل؛ فإمّا: «عظّم الله أجرك» في حالة العزاء، أو «زيجة مباركة» إذا كان حفل عرس؛ ولو أن كلمة «حفل» أرى فيها شيئاً من المبالغة في مناسبات الرجال الّتي تخلو من أي مظهر من مظاهر الاحتفال... فجأة، خطر على بالي فيلم آخر كذبة لفريد الأطرش الذي ظهر فيه بدور عامل في مصلحة البرق، فقام بسبب انشغال باله بمحبوبته بإرسال برقية بالخطأ إلى أهل العريس: «نسأل الله أن تكون هذه آخر الأحزان»؛ وإلى أهل الميت: «عقبال كل شباب العائلة»!

لا أستبعد أن يحدث الأمر نفسه في الرياض ذات يوم؛ هذا إن لم يكن قد حدث بالفعل.

– «هلا طارق».

نايف يسلّم عليّ بعد تعزية فوّاز وأسرته عند مدخل المنزل. من حسن الحظ أن الكرسي الذي على يساري قد فرغ للتو، ليتمكن هو من الجلوس عليه. أسوأ شيء في مثل هذه المناسبات، أن يجلس بجوارك شخص غير مرغوب فيه، فتجد نفسك مُرغَماً على التحدث معه من أجل تمضية الوقت! عدم التحكم في مَن يجلس بجوارك بالفعل إشكاليّة... الأمر «شختك بختك»، أنت وحظك. لكن، من حسن حظّي هذه المرّة أن صديقي نايف هو الذي يجلس بجواري.

– «سلام... كيف الأحوال؟».

– «ماشي الحال... حذِّر مع من كنت قبل قليل على الهاتف؟».

هكذا هو نايف دائماً، لا يعطيني المعلومة مباشرة إلّا بعد لعبة التخمين، وكأننا ما زلنا طفلين في المدرسة.

– «مع إحدى صديقاتك في بيروت أو دبي؟».

– «لا، بل هذه المرّة مع صديقة قديمة لك أنت».

جملته هذه أثارت اهتمامي بحق... من يقصد يا ترى؟

– «رباب... حتماً لم تنسَها يا نمس».

ابتسامة ماكرة أراها على وجهه وهو ينطق باسم أول عشق في حياتي... ثلاثون سنة مضت... كدت أنساها؛ أقول «كدت»، ولكنّني في واقع الأمر لم أنسَها بعد.

– «رباب؟».

– «نعم، هي لا غيرها».

– «أنت ما زلت على اتصال معها؟!».

– «نعم، ولمَ لا؟ لا تنسَ أنها كانت زميلتي في الجامعة، قبل أن أعرّفك عليها، وتقع في غرامها».

– «ولكنّك لم تخبرني قط بأنكما على اتصال».

– «صحيح، لأنّني لم أرغب في مضايقتك بالحديث عنها بعد الّذي جرى بينكما».

– «أمرها لم يعد يعنيني. هي بالنسبة لي الآن مجرد ذكرى، بحلوها ومرّها».

– «أعلم ذلك... السبب الّذي جعلني أذكرها لك الآن هو أنها سألتني عنك. لا أعلم لماذا؟ ولم أرغب في سؤالها».

رباب تسأل عنّي بعد كل تلك السنين؟! ما الذي فكّرها بي الآن؟ لعلّه الحنين إلى الماضي بعد أن تقدم العمر بها. «نوستالجا» أول حب في حياتها.

– «وبماذا أجبتها؟».

– «قلتُ لها إنك لا تزال هائماً في عشقها، ولا سيرة لك إلا هي».

– «ماذا؟!!».

– «أمزح معك يا رجل... طبعًا أخبرتها بأنك تزوّجت، وأنجبت خمسة أبناء ما شاء الله في غاية الروعة... هذا كل ما في الأمر، ثم سرعان ما تحدثنا في مسائل أخرى».

– «وماذا عنها؟ حتماً تزوجت».

لا أدري لماذا شعرت بنغصة في أحشائي لدى استفساري عن زواجها؟ كأنّ شيئاً في داخلي لا يريدني أن أعرف... بعد كل تلك السنين، لا يزال ينتابني شعور كهذا!

– «تزوجتْ، وأنجبتْ... أظنها سبق وأرسلت إليّ صورة لها مع عائلتها».

وسرعان ما أخرَجَ نايف هاتفه الذكي، وأخذ يُقَلِّب في صور مخزّنة عليه حتى وصل إلى مبتغاه...

– «هذه هي الصورة... بنتها تشبهها تماماً عندما كانت في سنّها، أليس كذلك؟».

يناولني هاتفه الذكي، وليته لم يفعل... طوفان من الذكريات، بحلوها ومرها، وكأنّني أعيشها من جديد... في قرارة نفسي، تمنّيت لو أن آثار السنين قد فعلت أفاعيلها معها؛ لعلّها أصبحت سمينة جدًّا كما هي عادة المصريات بعد الإنجاب المتكرر، أو ربما ترهّل جلد وجهها ليُظهِر ثقل السنين عليها، أو لعلّي لن

أراها بالمنظار ذاته الذي رأيتها به قبل ثلاثين عاماً... ولكن لا، مع الأسف! كأن «نايف» أراد أن يضيف بعض الملح على جرح قديم حسبته اندمل. سامحك الله يا نايف. حقّاً سامحك الله! فلا تزال رباب جميلة بالرغم من عمرها الذي قارب الخمسين. عقود عمرها الخمسة لم تخذلها حتماً؛ وأبناؤها الثلاثة الظاهرون في الصورة، حملهم لم يضِف سوى القليل إلى جسدها... هذا الرجل هو حتماً زوجها... يبدو أكبر منها في السن بكثير، أو لعلّه الشيب الذي غزا شعره بكثافة يجعله يبدو أكبر من سنه. ليس رشيقاً مثل رباب. لديه كرشة بارزة... هل يا ترى تزوجته عن حب؟ هل أحبته كما أحبتني؟

– «ماذا دهاك يا رجل؟ ألم تقل لي قبل قليل إن أمرها لم يعد يعنيك؟ كأنك سرحت في صورتها... ماذا قال ذلك الشاعر؟ حب كما تشاء، ولكن ما الحب إلّا لأول حبيب؟».

يتحدث عن قصيدة أبي تمّام. تذكر المعنى دون أن يتذكر الأبيات... لم يكن نايف في يوم من الأيام من عشاق الشعر أو الأدب.

– «نقل فؤادك حيث شئت من الهوى، ما الحب إلّا للحبيب الأول... كم منزل في الأرض يعشقه الفتى، وحنينه أبداً لأول منزل».

– «هي التي قصدتها... نزار قباني أليس كذلك؟».

– «أبو تمّام».

– «أبو من؟».

– «نايف، كلمات هذه القصيدة مجرد كلمات خاوية من المعنى... الحب الأول لا يختلف كثيراً عن الحب الثاني أو الثالث أو حتى العاشر... لا توجد خاصية تميّز الحبيبة الأولى سوى أنها أول تجربة فقط؛ بل وقد تكون التجربة الأقل عمقاً... كما هو الحال معي».

– «أتقصد أقل عمقاً من حبّك لمنال؟».

– «ماذا دهاك يا نايف الليلة؟! أنحن هنا لكي نؤدّي واجب العزاء، أم من أجل استرجاع ذكريات الغرام؟!!».

أنهره، وكأن جميع من حولنا لا يتحدثون في شتّى أمور الحياة الّتي لا علاقة لها بواجب العزاء... ولكنّها الحجة الوحيدة الّتي خرجت منّي لكي أنهي هذا الحديث السمج الّذي بدأه نايف... كنت سأحدّثه عن سلوى، ولكنّني غيَّرت رأيي الآن. فلن أفعل... حقّاً، فالقطّ لا يؤتمن على مفتاح الكرار!

***

الساعة العاشرة مساءً، ولم يأتِني الاتصال المرتقب... أصُفّ سيارتي أمام المنزل، ولكن ليست لدي رغبة في الولوج عبر الباب الحديدي للدار. كأنّني أريد الانتظار قليلًا على الرصيف، أو التمشّي قليلاً وسط الحي في هذه الليلة الساكنة؛ لعلّ الدكتور أحمد يتّصل عليّ في أية لحظة... أو لعلّه لم يتحصل عليها... أو ربما تحدّث معها، وفاتحها في الأمر، ورفضت... لا أدري... لمَ لا أتّصل عليه لكي أتأكد من الأمر؟ ولكن... كأنّ الوقت قد تأخر؛ بل أكلّمه غداً في المستشفى. أظنّ ذلك أنسب... نعم، فلأصبر إلى الغد.

13

سلوى

مرة أخرى كيپور لم يُحَضِّر السيارة، وجوّاله مغلق! تأخرتُ على الدوام، وهذا السائق في حجرته نائم! ليست هذه هي المرّة الأولى الّتي يفعلها معي بحجة أنه راحت عليه نومة بسبب السهر في الليلة السابقة، وكأنه يعاقبني لأنّني جعلته ينتظرني وأنا في المطعم مع صديقاتي! والله لولا الحاجة لطردته منذ زمن! حقيقة، لا أفهم كيف يمكنني أن أقود طاقماً جراحياً، ولا أستطيع قيادة سيّارتي الخاصّة؟! وكلّما أبديت امتعاضي حول الأمر لأيّ رجل، ردّ عليّ بالمقولة ذاتها المبتذلة: «أنت ملكة، ولستِ بحاجة إلى قيادة السيارة بنفسك». أيّ ملكة هذه الّتي يتجاهلها سائقها؟!

ليس أمامي حل الآن سوى أن أذهب إلى باب غرفته وأدقّ عليه، فلعلّه يرأف بحالي الأفندي، ويستيقظ من نومه العميق، ويُحَضِّر السيارة! الأدهى أنّه بالرغم من غضبي الشديد منه، فلن «أستجري» على مخاصمته حتى لا يغضب، ويترك مفاتيح السيارة، ويطالبني بالعودة إلى بلده، لعدم رغبته في العمل... نعم، فالحقيقة أنّني بحاجة إليه أكثر بكثير من حاجته هو للعمل عندي... يا للمذلة!

***

غريبة... لم أتنبّه إلى محاولة الدكتور أحمد الاتصال بي البارحة. يبدو وكأن جوالي كان على الصامت بالخطأ أثناء تواجدي مع صديقاتي. الحمد لله أن أحداً

من أبنائي لم يحاول الاتصال بي، حتى لا يعتقد أنّني تعمدت تجاهله. تكفيني الأفكار السوْداويّة الّتي يحاول سعود زرعها في أدمغتهم عنّي؛ هي الأفكار المتخلفة ذاتها الّتي صَجَّني بها عندما كنا متزوجين: «أنت تهتمين بصديقاتك أكثر منّي... هم عندك أهم بعد شغلك... أنا دائماً في أسفل سلّم أولويّاتك.» وكأنه لم يكن لديه هو أصدقاء يسهر معهم طوال الليل، بجانب الصديقات، والعشيقات! لا أدري لماذا تذكرت «سعود» الآن؟ وكأنه لا يكفيني ما أنا فيه من بداية سيّئة لهذا اليوم، مع كيپور بيك!

– «ألو، صباح الخير دكتور أحمد. سامحني، لم أنتبه لاتصالك ليلة البارحة».

– «هلا دكتورة سلوى... لا عليك. بسيطة».

– «أكنت تحتاجني في شيء؟».

– «نعم، هناك موضوع حابب أكلمك فيه، ولكن أفضل وجهاً لوجه. أين أنت الآن؟».

– «في الطريق إلى المستشفى. تأخرتُ قليلاً بسبب بعض المشاكل».

أشعر بالحرج من إخباره السبب الحقيقي... سائقي آثر النوم لأنّني تأخرت البارحة في السهر مع صديقاتي!

– «إذاً، مُرّيني في المكتب عندما تصلين، إن كان لديكِ بعض الوقت».

– «إن شاء الله أمرك فَور وصولي... مع السلامة».

غريبة... يا ترى، ما الذي يريده منّي الدكتور أحمد؟ أرجو ألّا يكون الأمر متعلقًا بليليان مرّة أخرى. حقًّا لقد سئمت سيرة تلك المرأة... لا أدري متى الله سَيريحني منها، وتنتقل إلى أي قسم آخر في المستشفى، بعيداً عنّي؟!

***

أنا بحاجة إلى قهوتي المعتادة قبل الذهاب إلى مكتب الدكتور أحمد... كابتشينو مع حليب قليل الدسم، من المقهى الخارجي للمستشفى. أجمل شيء أنّه يوجد مقهى عند كل جانب من جنبات المستشفى، سواء أكان في الداخل أم الخارج...

– «تفضّلي... ليديز فيرست».

رجل لطيف قَدَّمني على نفسه في الطابور. أظنّني رأيته من قبل... آااه، تذكّرته. هذا جرّاح القلب، صديق سالم حلبي. نسيت اسمه... لا أعلم كيف يمكن لرجل لطيف مثله أن يكون صديقاً لذلك الإنسان الغليظ.

– «شكراً».

الساعة الآن تقترب من التاسعة والنصف صباحاً، ولديّ اجتماع إداري على العاشرة. أظنّ أن نصف ساعة ستكفي مع الدكتور أحمد. لا أعلم في ماذا يريد الحديث معي. ولكن، مهما كان الموضوع، لا أحسبه سيطول.

***

– «طارق أيوب..».

إذاً، هذا اسمه. يرغب في التعرف عليّ لغرض الزواج... ألهذا يا ترى كان لطيفاً معي عند المقهى؟ حسبت أن الأمر فيه شيء؛ فالرجال عادة لا يتصرفون هكذا بلطف إلّا إذا كان من وراء المسألة غرض... ولكن، يُحسَب له أنّه فاتحني في الموضوع مباشرة عبر الدكتور أحمد، وإن كانت صداقته مع سالم تجعلني أفكر في الرفض مباشرة! ولكن، لا... لا ينبغي أن أستعجل في الرد قبل أن أتأكد من بعض الأمور أولاً...

– «أمتزوج؟».

– «نعم متزوج، ولكنّه غير سعيد في زواجه».

الإجابة ذاتها لكل من أراد الزواج على زوجته: «غير سعيد في زواجه»... كم أصبحت هذه الحجّة مبتذلة!

– «دكتور أحمد، أنت تعلم رأيي في هذه المسألة... أنا لا يمكن أن أوافق على الزواج من رجل متزوج، وأتسبب في هدم أسرة قائمة!».

أهِمّ بالانصراف على الفور من مكتب الدكتور أحمد، حتّى لا أضطر لسماع المزيد عن هذا العرض السخيف... أنا أوافق على الزواج من رجل متزوج؟! من يحسبني؟!!

– «لماذا لا تفكرين في الأمر جيداً قبل اتخاذ قرارك النهائي؟ مثل هذه الأمور ينبغي التَرَوّي فيها، وعدم الاستعجال في الرد».

– «لا أحتاج إلى أي مزيد من الوقت... ردّي هو الذي سمعتَه. ورجاءً دكتور أحمد، لا تفتح معي هذا الموضوع مرّة أخرى... عفواً، ولكنّني مضطرة للذهاب الآن، فلديّ اجتماع بعد قليل».

أشعر بشيء من الرأفة للدكتور أحمد؛ لقد أحرجتُه. أعلم أنه يقصد خيراً، ولكنْ كان يجب عليّ أن أعطيه إجابة حازمة حتّى يدرك رفضي التام لمبدأ الزواج من رجل متزوج! والله، أهون عندي أن أبقى بلا زواج، من أن أكون زوجة ثانية، وأدخل في معمعة مشاركة امرأة أخرى الرجل ذاته! كأن الهموم الّتي عندي ليست كافية حتّى أضيف إليها همّاً آخر!

14

طارق

أظنّني أدركتُ روتينها. كل يوم عندما تأتي إلى المستشفى تذهب إلى المقهى الخارجي لكي تطلب الكابتشينو مع حليب قليل الدسم. لا أدري إن كان لقائي بها هذا الصباح على سبيل محض الصدفة، أم أن الكون يتآمر لكي يقربنا من بعض؟ وإلّا لماذا ألغِيَت المحاضرة الصباحية التي كان من المفترض أن تكون في مثل هذا الوقت، ممّا سمح لي بالإتيان إلى المقهى فألتقيها مجدّداً؟ جاءت بعدي، ولكنّني قدّمتها عليّ... ابتسامة امتنان رُسِمت على وجهها المستدير أشرقت صباحي، وجعلت قلبي يسقط إلى قاع قدمي بعد أن تسارعت دقّاته من شدّة الفرح لرؤيتها. لا أدري إن كان الدكتور أحمد قد كلّمها البارحة كما وعدني، ولكن يبدو لي من نظراتها الحرجة إليّ، وتلك الابتسامة الفاتنة، أنّها على علم بغرضي؛ بل وكأنّها قد وافقت، ولذلك تشعر بالحرج من ملاقاتي اليوم بهذه السرعة بعد حديثها مع الدكتور أحمد... الساعة الآن التاسعة والنصف صباحاً من يوم الخميس، الرابع عشر من شهر يناير. سيصبح هذا اليوم أجمل ذكرى في حياتي. هو اليوم الذي رأيتها فيه بمحض الصدفة، فعرفت أنها قد وافقت على الارتباط بي، فقط من نظرات عينيها السابحتين في ملكوت الهوى، لتفصح عن مكنون خاطرها؛ حتى قبل أن يرد عليّ الدكتور أحمد... ليتني تحدثتُ معها... كان يجب عليّ أن أتحدث معها قبل أن تذهب... كأنها تلكأت قليلاً في الذهاب بعد أن أخذت طلبها لكي تتيح لي فرصة من أجل أن أتحدث معها. ليتني تنبهت سريعاً لمقصد تصرفها... لا بأس،

سوف أكلّم الدكتور أحمد أولاً، وإن كنت لا أعلم لماذا تأخر في الاتصال بي؟ سأعلم منه ما دار من حديث بينهما، وكيف تريد سلوى أن تسير الأمور بيننا من هنا فصاعد؟ لا بد من كسر حاجز الخجل بيننا، ولكنّ هذا لن يتسنى إلّا من بعد اللقاء الأول.

***

حاولت الاتصال بالدكتور أحمد ولكنّه لم يردّ عليّ. بدأت أشعر بالقلق، وكأنّه يتفادى التحدث معي. ولكن لماذا؟ فما على الرسول إلّا البلاغ... غريب، فليس من عادته تجاهل اتصالي. على أية حال، حتماً سوف ألاقيه في المطعم. فهو مثلي يفضل الغداء المبكر قبل ازدحام المكان، والساعة الآن الحادية عشرة والنصف... الوقت الأنسب لذلك الغداء المبكر.

مطعم المستشفى لم يمتلئ بعد، وها هو الدكتور أحمد كما توقعت، مع سالم إلى الطاولة المجاورة للنافذة المطلّة على ساحة النخيل. المكان ذاته المفضّل لنا نحن الثلاثة.

— «ألم أخبرك بأنها لن توافق؟ قلت لك إن جرعة الأنا لديها ستمنعها من الموافقة على مشاركة امرأة أخرى في رجل. هي تريد زوجاً لها وحدها، حتّى تتباهى به أمام الناس».

بادرني سالم على الفور، حتّى قبل أن أجلس... كأنه قد علم بشيء لم أعلمه أنا بعد... هل أخبره الدكتور أحمد بأن سلوى لم توافق على طلبي قبل أن يخبرني؟! معقولة؟!!

– «الموضوع ليس على هذا النحو يا سالم».

الدكتور أحمد يرد عليه باستحياء ملموس... ألهذا تجاهل اتصالي؟ أأراد أن يخبرني بنتيجة سعيه الفاشل في وجود سالم؟!

– «بل هو ذاك. قلتُ لك مراراً يا دكتور أحمد إنّني أعرف طريقة تفكير هذه النوعية من النساء المتسلقات. سلوى لا تحبّ أحداً في هذه الدنيا مثل نفسها؛ ومظهرها أمام صديقاتها عندها أهم شيء. لن تقبل أبداً بأن توصف بالزوجة ثانية، أو يشاع عليها أنّها المرأة الّتي سرقت رجلاً من زوجته، وأولاده!».

– «هل فعلاً رفضتْ يا دكتور أحمد؟! وهل أبدتْ سبباً؟!».

وجدتُ نفسي أتساءل بشغف ملحوظ لكي أقطع الشك باليقين... حتى الآن لم أسمع شيئاً سوى تباهي سالم بمعرفته الحثيثة بطريقة تفكير سلوى، وبصواب حكمه عليها منذ البداية، ولكن الدكتور أحمد ظلّ مقتصداً في الحديث، ومكتفياً فقط برسم ابتسامة خجولة على وجهه؛ كالتلميذ الخائب الذي يشعر بالخجل من نفسه، ويريد مداراة نتيجة الاختبار عن باقي رفقائه!

– «أنا فاتحتها في الموضوع كما اتفقنا... ولكنّها... أبدت تحفظاً لكونك متزوجاً».

– «ولكن... كأنّني فهمت منك بأنها لا تمانع الارتباط برجل متزوج؟».

فاجأني الدكتور أحمد... حقاً، لم أتوقع مثل هذا الرد، وخاصة بعد لقائي بها اليوم... ألم يكن هناك شيء من الانسجام بيننا؟!

– «امرأة تجاوزت الأربعين؛ مطلّقة ولديها أربعة أبناء، بعضهم في الجامعة؛ من تتوقع سيتقدم لها لكي يتزوجها؟!».

– «حرام عليك يا سالم... الأمر ليس بهذا الشكل... ثمّ هي من حقها أن تشترط مواصفات للزوج الذي ترغب في الارتباط به».

– «بل هي إنسانة نرجسية يا دكتور أحمد، وغير واقعية بالمرّة، وهذا يؤكد ما سبق وقلتُه لكماً مراراً عنها».

مرة أخرى، أجد نفسي حائراً بين رأي سالم السوْداوي فيها، وبين رأي الدكتور أحمد الأكثر رأفة بها... من معرفتي الجيّدة بسالم، فهو دومًا ينظر إلى الأسوأ في البشر، ويحيط نفسه بهالة وهجة من السلبية! ربما من أجل هذا لم يجرب قط طعم العشق؛ بل وحتى فشل في حياته الزوجية بامتياز... سلوى الّتي رأيتها أكثر من مرّة لا تبدو لي هي ذاتها الّتي يصفها سالم بالنرجسية، والأنانية، والانتهازية... لا تبدو لي كذلك على الإطلاق.

– «ما رأيك يا دكتور أحمد لو ترسل لي رقم جوّالها، وأنا أكلمها بنفسي؟ لعلّي أقنعها – على الأقل – بمقابلتي، والاستماع إلى ما لدي من قول».

سالم ينظر إليّ باستهجان واضح، غير متقبِّل ما قلته، ودون أن يعطي الدكتور أحمد فرصة للرد على طلبي، يبادر هو:

– «يا أخي، يقول لك: لا تريد الارتباط برجل متزوج. وأنت متزوج! لا تضع نفسك في موقف محرج معها يا طارق!».

– «يا سيدي أنا حر! دعني أحاول، ولعلّها تُغَيِّر رأيها... ما رأيك أنت يا دكتور أحمد؟».

– «لا بأس... جرِّب إن رغبت».

وهكذا، حُسِم الأمر... بغض النظر عمّا قاله سالم، سوف أخاطِبها بنفسي. حقّاً، لا داعي للوسطاء، فما حكّ ظهرك مثل ظفرك.

15

سعود

الليلة الموعودة قد جاءت، ولا يفصلني عن دخول جنّة الملذات سوى هذا الشيخ البدين الذي سوف يعقد قراني بعد ثوان. بعدما اجتزت جميع الفحوصات في الأيام السابقة، ووقّعت عقد الإيجار مع المحامي، لم تتبقَ لي سوى هذه الخطوة الأخيرة في منزل ريم... الإجراءات كانت في غاية السلاسة، بل لا أذكر بأن زواجي من سلوى مضى بهذا اليسر. لم أكن بحاجة إلى الإتيان بالمأذون، ولا حتى بالشهود؛ فكل شيء كان مرتباً من قِبَل مؤسّسة ريم، إن جاز التعبير! كل ما كان عليّ فعله هو التواجد في الموعد المتّفق عليه مسبقاً... أي شيء أسهل من هذا؟! وإن كان هناك أمر بسيط، من سابق خبرتي، حيّرني بعض الشيء... أين وليّ أمر العروس الذي سوف يزوجّها؟

– «عند الأحناف المرأة ولية نفسها في الزواج».

ردّ المأذون دون تردد عن استفساري، وكأنها ليست المرة الأولى التي يأتيه فيها مثل هذا الاستفسار، فكان الردّ جاهزاً على الفور.

– «حسبتُ بأننا حنابلة، هنا في السعودية».

– «أحناف... حنابلة... كلها مذاهب سُنّيَة. الذي يهمك في نهاية المطاف أن هذه الزيجة تتوافق مع الشريعة، حتى إن كانت تخالف الأنظمة. ولكنّ هذا لا يهم

طالما أنّه لا توجد نيّة لتسجيل عقد القران بمكتب الأحوال المدنية... لا تخشَ شيئاً يا أستاذ سعود؛ أؤكد لك بأن زواجك من السيدة ريم حلال مئة بالمئة».

في واقع الأمر، أنا لا يهمني كثيراً موضوع الحلال والحرام، وليس لهذا استفسرت، ولكنّه فقط الفضول لا أكثر. يبدو لي وكأن ريم هي من يهمها موضوع الحلال والحرام... شرموطة تخاف الله... لا بأس، لا بأس، فهي والله تستحق كل التعب. كنت أحسب ليليان صاروخاً، ولكن هذه المرأة التي أتزوجها الآن مكوك فضائي عابر للكواكب والمجرّات! هل يا ترى جرّبها سلطان؟ نسيت أن أسأله عندما التقيته في عزاء فواز الصالح. انشغلت في الحديث معه حول مشروع بناء المدينة الطبيّة الجديدة.

– «مبارك لك يا عريس... اللّهم اجعلها زيجة سعيدة، مليئة بالفرح والسرور».

– «جزاك الله خيراً يا شيخ».

وبهذه الكلمات، ينصرف المأذون، آخذاً معه الشاهدين على عقد النكاح اللذين أتى بهما، ليتركوني في منزل ريم، حتى أقضي معها وطري طوال الليل قبل أن أضطرّ إلى المغادرة بعد أن ينقضي وقتي المحدّد الذي تم الاتفاق عليه سَلَفًا، عند بزوغ شمس صباح اليوم التالي.

***

لم أنم طوال الليل من فرط اللّذة، وكأنّني عدت عشرين سنة إلى الوراء، إلى عنفوان الشباب! لم أشعر بهكذا متعة منذ... منذ ماذا؟! لم أشعر بهكذا متعة قط في حياتي! ريم هذه أعجوبة من أعاجيب الزمان! أي والله! تشعرك بأنك أهم رجل في هذا الكون؛ سَيِّداً من سادته! لمسات أناملها الدقيقة تجري على الجسد بحرفية لم أشهد لها مثيلاً! لسانها الرطب يداعب المواقع التي تثير جنون الرجال! أمّا تأوهاتها... فآه ثم آه ثم آه! لولا معرفتي التامة بقدراتي الجنسية من خبرات سابقة، لحسبتني فحل هذا الزمان، وكل زمان! بالرغم من يقيني بأنها كانت تمثل الشبق برعشاته، وتنهداته، إلّا أنّني استمتعت بذلك التمثيل، حتّى كدت أصدقه. لو كانت هناك جائزة أوسكار تمنح لمثل هذه الأدوار، لاستحقتها ريم بجدارة! فعلاً، لم تكذب أم عبد الله عندما قالت لي إن ريم في وادٍ، وباقي النساء في وادٍ آخر!

ها قد طلعت الشمس، مؤذنة لي بالانصراف، وأنا لم أشبع منها بعد! لم أعشق الليل كما عشقته البارحة، فما وددت له أن ينجلي، وما رغبت للنهار أن يأتي! لا أعلم كيف سأتحمل فراقها حتى زيارتي التالية لها... يوم الأحد! كم هو بعيد ذلك اليوم! لقد نصحتني أم عبد الله، وليتني استمعت إلى نصيحتها... أخبرتني بأنّني لن أشبع منها... ثلاثة أيام في الأسبوع لن تكون كافية، ولم أصدقها... كان ينبغي عليّ أن أصدقها، ولكن من يصدق مثل هذا الأمر؟! من يصدق بأنّ على وجه الأرض توجد امرأة مثل ريم في جمالها، وإمكانيّاتها، وبراعتها! أنا إلى الآن أشعر، وكأنّني كنت في حلم جميل! بل كأنّني ذهبتُ إلى الجنّة خلسة، وقضيت هناك أمتع اللحظات مع إحدى حور العين! اللّهم صبّرني حتى يوم الأحد القادم!

16

طارق

كنتُ مدركاً منذ البداية بأن الأقدار تقودني إليها، والحمد لله لم يخب ظنّي، بل ازددت يقيناً! أفضل شيء فعلته هو أنني تحدثتُ معها بنفسي، وتجاوزت اعتمادي على الدكتور أحمد. فعلاً ما حك ظهرك مثل ظفرك، وفي مثل هذه الأمور، لا ينبغي أن يكون هناك وسيط بين الرجل والمرأة. لو أنّني اعتمدت على الرد السلبي الذي أتاني به الدكتور أحمد، لفَوَّتُّ على نفسي الكثير، وربما السعادة الّتي طالما حلمتُ بها! لا أدري لماذا انتابني شعور بأنّها توقعت مكالمتي؟ بل، إنّ نبرة صوتها كانت تعكس سعادة حاولت جهداً مداراتها... كأنها في قرارة نفسها رغبتْ في اتصالي بها حتّى أقنعها؛ أو على أقل تقدير، رغبتْ في أن أحاول؛ فلو لم تكن مستعدة للاقتناع لما وافقت على ملاقاتي في مكتبها...

– «ليس من عادتي أن أوافق على مقابلة شخص بعد أن بلغه ردّي بالرفض.» قالت مباشرة فور جلوسي أمامها، بشيء من التردد والخجل، وكأنها أرادت أن تخبرني بمدى صعوبة القرار الذي اتخذته من أجلي... حتماً هي تشعر نحوي بالانجذاب ذاته الذي أشعر أنا به نحوها، وكأن روحينا تعارفتا فتآلَفتا.

– «لعلّه من حسن حظي أن أكون الاستثناء للقاعدة. على العموم، أنا لن أطيل عليك لعلمي بمدى انشغالك».

لقد أخبرتني مسبقاً عن اجتماع لها مع المدير الطبي للمستشفى، الدكتور وليد الفديوي، بعد عشر دقائق. كان عليّ أن أحاول إقناعها بالعدول عن رأيها في هذه المدّة الوجيزة!

– «شكراً».

– «أخبرني الدكتور أحمد بأن رفضك لي سببه كوني متزوجاً. صدّقيني، أنا متفهم جدّاً لموقفك هذا؛ بل لو كان أحد قد سألني منذ أسبوع فقط عن رأيي في مسألة التعدد، لأخبرته بأنّني ضد الفكرة من حيث المبدأ، ولكن..».

– «ولكن ماذا؟ أنت حسمت الأمر مثلي».

– «ولكنّ هذا كان قبل أن أراك».

قرّرت أن الوسيلة الوحيدة للتعامل مع سلوى هي أن أكون صادقاً معها؛ أن أعبّر لها عمّا أشعر به دون مواربة أو خجل، فهذه هي فرصتي الوحيدة... إمّا أن تصيب، أو تخيب.

– «أنا لست شخصاً مراهقاً، أو رجلاً خرج لتَوّهِ من القرية ورأى امرأة جميلة لأول مرة في حياته، بل كانت لي علاقات متعدّدة، قبل الزواج وبعده. صدّقيني، أنا لا أقولها مفتخراً بالأمر، بل من باب الصراحة. لكنّني ودعت تلك الحياة منذ زمن؛ فلم تعد مثل تلك العلاقات العابرة تستهويني. والحق يقال، إنّني كنت دائماً أبحث عن شيء أعمق، وأجمل؛ ولكنّني لم أجده، بعدما فقدته مرتين منذ زمن بعيد».

رباب، ومنال!

شعرتُ بغصّة في حلقي جعلتني أصمت قليلاً قبل أن أواصل حديثي... لكنّني لمحت بوادر الفضول لما أقوله في عينَي سلوى، جَعَلَتها تواصل الاستماع إليّ باهتمام...

– «عندما رأيتك لأول مرّة في السيب، شعرت بشيء لم أشعر به منذ ذلك الزمن البعيد؛ شيء جعلني أرغب في التعرف عليك. وصدقيني عندما أقول لك إنّني لا أعرف تماماً ما هو سر ذلك الشيء، ولماذا أنت تحديداً وليست أية امرأة أخرى؟ كل ما أعرفه أنّ شيئاً ما يدفعني للتعرف عليك، وآمل أن تمنحيني، وتمنحي نفسك الفرصة من أجل اكتشاف ذلك الشيء. ومن يدري؟ فلعلّه يكون بداية أمر جميل يجمعنا، ويسعِدنا».

قلت ما لدي، دون تجميل أو ابتذال؛ كلاماً من القلب إلى القلب، على أمل أن يجد صدى لديها. إن كان حدسي تجاهها صحيحاً، فسأجد عندها الردّ الّذي أبحث عنه، وإن رفضتْ فلعلّي كنت أتوهّم شيئاً غير موجود...

– «أشكرك على صراحتك... في الحقيقة، أنا لا أعلم ماذا أقول؟ أنت فاجأتني بمشاعرك الرقيقة... لا أعلم إن كنت أستحق كل هذا... ولكن... تبقى مسألة زواجك... لا أريد أن أكون خرّابة بيوت».

– «لن تكوني كذلك على الإطلاق».

– «كيف؟ أنت متزوج ولديك أبناء».

– «أعلم. ولكنّ كل شيء يمكن إيجاد حلٍّ له إن كان الدافع قوياً. في رأيي، السؤال الأهم هو: هل انجذابي نحوك يحمل في طيّاته معنى عميقاً؟ وهل تشعرين أنت بالأمر ذاته؟».

صمتتْ قليلاً قبل أن تجيب، وإن كنتُ شعرتُ بالإجابة قبل أن ينطق بها لسانها...

– «أنت رجل ناجح، وتبدو لطيفاً، ولكنّك متزوج... هذا الأمر الأخير من المفترض أن يجعلني أحسم أمري منك، ولكن..».

– «ولكنّ شيئاً ما يمنعكِ من الرفض، أليس كذلك؟» قاطعتها، مكملاً لها الجملة الّتي ترددتْ في النطق بها صراحة.

– «لا أعلم».

– «دعينا نتعرف على بعض. لا أطلب منك إجابة صريحة الآن على الارتباط بي، ولكن دعينا نلتقي على الغداء مثلاً؛ وإن كان يناسبك، لعلّنا كذلك نتحدث على الهاتف. أعطي لنفسك فرصة حتّى تتعرفي عليّ أكثر، وأنا كذلك حتّى أتعرف عليك أكثر. مثل هذه الأمور لا ينبغي الاستعجال بها».

– «ولكن، ما فائدة كل هذا إن كنت أعرف نفسي جيداً؟ فكرة التعدّد لا تروق لي على الإطلاق؛ كما أنّني لن أقبل أبداً أن تُطلّق زوجتك من أجلي».

أشعر بحيرتها من نبرات صوتها... هناك جانب يرغب في التعرف عليّ، وجانب آخر يخشى أثر هذا التعارف عليها. حتماً هي تشعر بالانجذاب نحوي، مثلما

أشعر أنا بالانجذاب نحوها، ولكنّها تقاوم مشاعرها. يجب عليّ كسر هذه المقاومة! يجب أن أخترق حصونها المنيعة!

– «كل ما أطلبه منك الآن هو أن تفكري بِرَوية في ما قلته لك، ولنكمل باقي الحديث غداً على الغداء. ما رأيك؟».

لحظة من الصمت والتفكير... لا أعلم كم كانت؟ لعلّها لم تتجاوز الثواني القليلة، ولعلّها أكثر؛ الحقيقة أن الوقت لم يعد يحمل لي أي معنى في تلك اللّحظات العصيبة، وأنا أنتظر إجابتها على طلبي. في قرارة نفسي، كنت أشعر بأنها ستوافق، ولكنّني كنت أيضاً أخشى من أن تكون هذه مجرد أمنية ملحة جعلتني أتوهّم ما ليس له وجود؛ كالمفتون الذي يخادع نفسه في تصوّر الأوهام على أنّها حقيقة... ألّا يكون الإنسان قد عشق قط في حياته أمر محزن، ولكنّ الأسوأ منه، والأكثر إحزاناً أن يكون الإنسان عاشقاً من طرف واحد!

– «أوكي... نتناول الغداء غداً. ولكن... ولكنّ هذا لا يعني أنّني قد وافقت على الارتباط بك».

وهذا كل ما كنت أرجوه حتّى تلك اللّحظة، كخطوة أولى!

***

منذ زمن بعيد لم أشعر بمثل هذه السعادة الّتي تعتريني الآن! لقد اقتربتُ خطوة ممّا أصبو إليه. صحيح أنّها لم تُبدِ موافقة صريحة على الارتباط بي، ولكنها لم ترفض كذلك، وهذا في حدّ ذاته إنجاز. غداً سوف ألتقيها على الغداء، وسوف

أتحدث معها من القلب– كما فعلتُ اليوم– وسوف أقنعها بمواصلة اللقاء إلى أن نتأكد معاً من حقيقة مشاعرنا، قبل أن نتّخذ القرار بالارتباط. أشعر وكأن الكون يتآمر من أجلنا، والأقدار تُقَرّب بيننا... شيء عجيب هذا الّذي يحدث لي! بعد أن ظننتُ أنّني قد ودّعت العشق، ولن أصادفه ثانية في حياتي، فإذا بقلبي يصبح أسيراً له، ويخفق من جديد؛ وكأن سلوى أحيَت فؤادي بعدما ظننته قد مات! أهو العشق من أوّل لقاء؟ نعم هو ذاك. فحديثي معها أكّد لي ما كنت أحسبه قد جرى منذ أن رأيتها لأول مرّة في السيب. يا إلهي، كم أنا محظوظ! لقد وجدتُ العشق! نعم، لقد وجدتُه بعد طول انتظار!

17

الراوي

المعذرة أيها الأصدقاء، ولكن وجب التدخل بعد أن أمهلت «طارق» أكثر من فرصة من أجل الإفصاح عن التفاصيل كافة التي يجب أن تظهر لكم لكي تكتمل الحكاية، وتظهر لكم خباياها. لقد عاهدت نفسي على أن تكون حكايتنا قائمة على الشفافية، بخلاف ما تصادفونه من حولكم. والحق يقال، إن سعود وسلوى قد التزما بهذا الأمر حتّى الآن، لكن يبدو وكأن طارق قد حاد عن جادة الشفافية والوضوح؛ فهو حتّى الآن يتفادى الحديث عن تفاصيل علاقته برباب وكذلك منال، وإن كان قد ذكرهما أكثر من مرة. لكنّ الشفافية تتطلب الحديث بالتفصيل عن ظروف تلك العلاقتين، وما دار فيهما من أحداث. قد ألتمس العذر لطارق؛ فلعلّ ألم الذكريات هو ما جعله غير راغب في الخوض في تلك السيرة القديمة، حتى إن كانت قد جرت منذ ما يقرب من ثلاثة عقود. لكن، من حسن الحظ أنّني هنا لكي أسد الثغرات الّتي قد تنتج عن مثل هذه السقطات الّتي سنحسن الظن، ونعتبرها غير مقصودة... وفي نهاية المطاف يا أعزائي، أوليس هذا دور الراوي العليم؟

***

تبدأ قصة عشق طارق الأول على وجه التحديد في صيف عام 1989 بالقاهرة، حيث كان يقضي إجازته الصيفية، بعد عناء دراسة سنة عصيبة بكلية

الطب. الطقس كان يميل إلى الحرارة. ولسبب ما، كانت الأغاني المنتشرة حينها تتعلق بالشمس، كأغنية محمد فؤاد (الشمس تجمعنا)، وأغنية حنان (الشمس الجريئة)... كان صيفاً هادئاً بعد ثمانية أعوام من الحرب الطاحنة بين العراق وإيران التي أرهقت البلدين واستنزفت مواردهما، وموارد العديد من الدول العربية التي ناصرت أحد البلدين في العلن أو الخفاء؛ وكأن ذلك الصيف الهادئ لم يكن سوى فترة لالتقاط الأنفاس قبيل أحداث جسيمة سوف تقع بعد شهور وتؤدي إلى إسقاط جدار برلين، والقضاء على الحكم الشيوعي في أوروبا الشرقية. ولعلّه كذلك الصيف الأخير الذي يوجد فيه من يحلم بوحدة عربية قبل أن يجتاح العراق دولةَ الكويت في الصيف المقبل، وينقسم العالم العربي إلى الأبد ما بين مؤيد لذلك الاجتياح ومعارض... لكن، لندع كل ذلك جانباً، ونعود إلى طارق وإجازته الصيفية. فبعد يوم واحد فقط من الوصول، كان قد رتب مع صديقه الحميم نايف، الّذي كان يدرس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، أن يلتقيا في نادي الصيد ليُعَرّفه على شِلَّته الجامعية؛ وكانت يا أعزائي هذه هي البداية!

تعَرَّف طارق في حياته حتى تلك اللحظة على عدد لا بأس به من الفتيات الحسناوات، ولكنّهن جميعاً كُنّ مجرد علاقات عابرة؛ كتلك الّتي تحدث نتاج مصادفة في مجمع تجاري، فيتم تبادل أرقام الهواتف، أو تعارف في مدينة أوروبية أو أمريكية أثناء العطلة الدراسية. وفي جميع الأحوال، كانت العلاقة لا تتعدى الإعجاب المتبادل بين شاب وفتاة يريدان إشباع رغباتهما المكبوتة في مجتمع محافظ شكلياً، لا يرغب في إظهار مثل تلك الرغبات على الملأ... لكنّ رباب كانت شيئاً آخر مختلفاً. فمنذ أول لقاء جمعه بها في نادي الصيد، أدرك طارق أنه أمام

فتاة لم يرَلها مثيلاً في حياته. جمالها لم يكن أخّاذاً، ولكنّه كان كافياً من أجل لفت الأنظار إليها، وإن لم تكن أجمل فتيات الشِلَّة؛ لكنّ شخصيتها البسيطة وغير المتكلّفة، وثقافتها الواسعة، واهتمامها الكبير بالموسيقى الكلاسيكية مثل طارق، كل ذلك جعل طالب الطب القادم من السعودية يؤثر الحديث معها، دوناً عن السبعة الآخرين المتواجدين معهما بالجلسة الخارجية في حديقة النادي، بالقرب من المبنى الإداري. لم يستمتع طارق قط في الحديث مع إنسان كاستمتاعه في الحديث مع رباب؛ حتّى إنّه خلال ساعة واحدة فقط من تجاذب أطراف الحديث، أصبحا وكأنهما صديقان منذ زمن بعيد، وليسا شخصين غريبين، جمعهما صديق مشترك بينهما يُدعى نايف.

لعلّكم يا أعزائي تتساءلون إن كان هذا حباً من أول نظرة، كما تقرؤون في الروايات الرومانسية، أو تشاهدون في الأفلام العربية؟ والإجابة عن هذا السؤال، في واقع الأمر، أكثر تعقيداً مما تظنون. فبداية، ما هو تعريف الحب؟ وكيف يَحْدُث؟ أهو تفاعل كيميائي يحدث بين طرفين؟ أو لعلّه توافق على صعيد الأرواح؟ وقد يكون مجرد انجذاب جنسي لا أكثر، يحاول الإنسان أن يضيف له صفة سامية بعيدة عن الشهوانية، حتى يبدو أرقى من الحيوان... مع الأسف، لن أجيبكم عن السؤال حول ماهية الحب، حتى لا يُقال إنّني أستغل صفتي كراوٍ عليم وأملي عليكم معتقداتي في الأمر. ولذلك، سوف أكتفي فقط بطرح السؤال، تاركاً لكم البحث عن إجابة له؛ وإن كنتم سوف تسمعون من شخصيات قصتنا هذه آراء متعددة حول الحب والعشق، والفرق بينهما. وأنا هنا لا بد أن أوضّح لكم أنّني لا أؤيد رأياً على رأي، وسماحي للشخصية بالتعبير عن نفسها لا يعني

بالضرورة أنّني أتفق معها، ولكنّه فقط من باب السماح لها بحرية التعبير... طبعاً يا أعزائي، هذا يبدو لكم أمراً عجيباً؛ فحرّية التعبير في عالمنا العربي من التابوهات، إن لم تكن من المحرّمات...

ها قد فعلتُها من جديد! كل المعذرة منكم يا أعزائي؛ فقد أخذتُ أتحدث في السياسة الّتي تبغضونها لِما قد تجلبه لكم من متاعب، ونحن في صدد قصة من المفترض أن تكون رومانسية، أو على أقل تقدير إنسانية! لنعود إذاً مرة أخرى إلى طارق ورباب، وذلك اللقاء الأول الذي جمع بينهما في نادي الصيد في حي الدقي في محافظة الجيزة بمصر، ولعلّنا نطّلع على بعض الحوار الذي دار بينهما، ولكم أن تحكموا بأنفسكم إن كانت هناك شرارة حب من أول نظرة، أو أن الأمر لا يعدو عن كونه مجرد إعجاب متبادل؛ وكأي إعجاب ينشأ بين شاب وفتاة، قد يؤدي ذلك إلى ما هو أعمق...

– «كنت أحسب أن الذين يدْرسون الطب ليس لديهم وقت لممارسة أي نشاط آخر، وخاصة العزف على آلة صعبة مثل البيانو».

– «كلامك صحيح إلى حد ما، ولكن الموسيقى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتي، ولذلك أحرص على أن أجد لها وقتاً بين الدراسة... ماذا عنك أنتِ؟ أين تعلمتِ العزف؟».

– «ماما هي الّتي علمتني العزف على البيانو، بعدما ضاقت ذرعاً من محاولاتي الفاشلة المتكررة وأنا طفلة في تقليد عزفها الباهر».

أطلقت رباب ضحكة خجولة، وشاركها طارق إيّاها من باب المؤازرة... والحق يقال، إن هذا سلوك إنساني معتاد؛ أي أن يُشارك الإنسان الّذي أمامه في مشاعره عندما تعتريه رغبة في التقرّب منه، أو التودّد إليه. ولعلكم جميعًا مارستم مثل هذا التصرف أكثر من مرّة مع صديق، أو ربما حبيب، أو حتّى شخص غريب شعرتم نحوه بالعطف أو المودة لسبب ما...

– «أفهم من كلامك أن الوالدة عازفة محترفة على البيانو».

– «ليست محترفة بالمعنى المفهوم للكلمة... هي دَرَست في الكونسرڤتوار، ولكنّها آثرت بعد التخرج أن تبقى مجرد هاوية تعزف على البيانو في بعض المناسبات الاجتماعية».

– «أنا كذلك أعزف على البيانو في المناسبات. أو بالأحرى، كنت أعزف في المناسبات قبل الانشغال في كلية الطب. الآن أعزف فقط لنفسي، ولبعض الأصدقاء الذين يهوون الاستماع إلى البيانو».

لم تحاول رباب إخفاء نظرة الإعجاب بهذا الشاب السعودي الّذي كسر النمط المتعارف عليه بين المصريين؛ بأنّ السعوديين ليس لهم باع كبير في الثقافة الغربية، وأدواتها الكلاسيكية... وبالتأكيد، صديق الدراسة نايف– السعودي الوحيد الذي كانت تعرفه قبل ملاقاة طارق– لم يُبدِ أي تصرف يخالف تلك الصورة النمطية.

– «لا بد أن أعرفك على ماما... عندي إحساس كبير بأنها ستكون جداً سعيدة بك، خاصة وأنّها قد فقدت الأمل في كل أصدقائي».

ضحكة خجولة أخرى صدرت من رباب جعلت «طارق» رغماً عنه يشاركها إيّاها؛ وكأن ردود أفعاله قد أصبحت فجأة ليست سوى انعكاس لما تبديه تلك الفتاة المصرية من تصرفات، وانفعالات عفوية... نعم يا أصدقائي الأعزاء، لقد أسرته رباب حتماً من أول لقاء جمع بينهما.

حاول طوال ذلك اليوم، واليومين اللاحقين قُبَيل لقائه الثاني مع رباب، أن يفهم ويحلّل ويستقي معنى ما دار من حوار بينه وبينها؛ وبالأخص رغبتها في أن تعرّفه على والدتها... أخذ يسأل «نايف» إن كانت قد عَرَّفته هو الآخر عليها، أم لعل هذه مسألة تخصه هو فقط لأنه ترك في نفس تلك الفتاة المبهرة أثراً بالغاً لم يسبقه إليه أحد. وكعادة الإنسان عندما تتملكه فكرة ملّحة تشغل خاطره، وتزيح كل ما عاداها من أفكار، أصبح حديث طارق مع صديق طفولته في تلك الأيام الثلاثة لا يتعدى فلك رباب وأمّها؛ فتلاشت هموم الدنيا قبالهما، وجفّت باقي المواضيع أمام ذلك الموضوع الأهم: زميلة نايف في الجامعة الّتي أسرت لب طارق، وأرادت أن تعرفه على أمّها!

***

«طنط سميحة»... هكذا بدأ طارق يناديها؛ كما كان نايف يفعل، وكذلك باقي زملاء رباب. منذ أول لقاء جمعهما في نادي الصيد، شعر بانسجام معها. كان هو ذاته اللقاء الثاني مع ابنتها التي ظلّ طوال الأيام السابقة مشتاقاً لرؤيتها. لم يعلم طارق إن كانت سعادته نابعة فقط من رؤيته لرباب بعد انقطاع دام ثلاثة أيام، أم كذلك لأنه أكتشف أن رباب قد ذكرته لأمها... ممّا يعني أنه هو كذلك

كان على بالها، ولم تنسَه! بل لقد ذكرت لها كل شيء عرفته عنه، حيث تعرّفتْ عليه «طنط سميحة» على الفور، وأخذت تسأله عن عزفه على البيانو، والمقطوعات الّتي يعرفها، وكيفية تدرّبه عليها. بدت السعادة واضحة جدًا على والدة رباب– هكذا لاحظ طارق– وهي تكتشف أن طالباً في كلّية الطب من السعودية يعشق الموسيقى الكلاسيكية إلى هذا الحد، بل وحتى يجيد العزف على آلتها المفضلة! ولعلّه لم يطغَ على سعادتها سوى دهشتها بأن شاباً يدرس في كلية صعبة جداً، وتتطلب كمّاً هائلاً من الدراسة، استطاع أن يجد الوقت الكافي من أجل ممارسة هوايته في العزف على آلة في غاية الصعوبة مثل البيانو، وتنميتها!

– «نكتورن سي شارپ مينور لشوپان! هذه من أجمل معزوفات الپيانو الّتي أعشقها! أتصدق يا طارق أنّني كنتُ أعزفها من كم يوم مع نفسي؟!».

– «أخيراً يا ماما، جاءك من ينافسك في العزف على الپيانو! لا بد من إجراء مسابقة بينكما».

– «أعوذ بالله... أنا بالطبع لن أكون شيئاً بالمقارنة مع عازفة محترفة مثل طنط سميحة!».

– «إذاً، نستمع لعزف كليكما، ونحكم بأنفسنا.» قاطع نايف الحديث من أجل إعطاء صديقه عذراً جيّداً للقاءٍ آخر مع رباب، وإن كان بوجود أمّها... بل لعلّها تكون فرصة جيِّدة لتتعرف عليه أكثر، حتّى تطمئن على ابنتها من ذلك الصديق الجديد الّذي ظهر فجأة في حياتها.

– «أنا شخصياً نفسي أسمع رباب وهي تعزف مقطوعة بيتهوفن الشهيرة... بصراحة، لا أحد يعزفها مثلها.» أضاف حسن، صديق رباب القديم، وجارها المغرم بها منذ سنوات دون أن يتمكن من تجميع الشجاعة الكافية من أجل الإفصاح لها عن مشاعره تجاهها؛ فكان يكتفي فقط بتتبّعها عبر مراحل الحياة من دراسة مدرسية ثم جامعية، مع الحرص على الإطراء الشديد على كلّ ما تقوم به من أفعال... لعلّكم تتساءلون الآن بعد هذه المعلومة العابرة الّتي أوردتها لكم إن كان حسن قد شعر بذلك التقارب الذي بدأ ينشأ بين معشوقته رباب، وذلك الوافد السعودي. والإجابة عن هذا سؤال هي: نعم، بدأ يشعر بشيء ما يحدث بينهما، ولكنّه حرص على إقناع نفسه بأن غيرته على رباب هي الّتي تصور له أشياء لا وجود لها، وأن الأمر لا يعدو عن كونه مجرّد توافق حول هواية مشتركة: البيانو... وإن كان حسن قد أخذت تساوره شكوك بأن «طارق» كان على علم مسبق بهواية رباب من صديقهما المشترك نايف، ولذلك كان فقط يتظاهر بحب الموسيقى، والعزف على البيانو؛ في حين أنّ الحقيقة بخلاف ذلك!

(وهنا، لا بد أن أوضّح لكم أمراً، لعلّه يحمل أهمية في مسار أحداث قصتنا، ولعلّه لا يحمل؛ فهذه مسألة محل جدل، ولذلك سأذكر الأمر وأترك الحكم لكم: حسن لم يقتنع أبداً بصداقة نايف، بل كان دائم الشك في نواياه منذ أن تعرف عليه في الجامعة الأمريكية؛ فكان لا يثق به أو بأي شيء يأتي من طرفه، على خلاف باقي «الشلّة» الّتي كانت تستلطف «نايف» وتحرص على صداقته.)

– «أنا شخصياً أتمنى سماع عزف رباب وطنط سميحة... أنا من الآن أعترف لكم جميعاً بأن عزفي لن يكون سوى عزف متواضع لشخص هاوٍ مقارنة بعزفهما.» ردّد طارق شاعراً بالحرج ممّا قاله نايف عن مسابقة بينه وبين أم رباب.

– «لا يمكن! لا تقلّل من شأنك يا صديقي. دعهم يستمتعون بعزفك الجميل كما استمتعت أنا مراراً!» أصّر نايف، متجاهلاً «شَخْصة» عينَي صديقه.

– «لا تحرج صاحبك يا نايف... لعلّه لا يحب العزف أمام الناس.» أضاف حسن بنبرة ساخرة، وقد شعر بصدق حدسه تجاه طارق...

وكاد الحديث يستمر على هذا المنوال بين شدٍّ وجذب حول من يعزف على البيانو، ومن لا يعزف، حتّى حسمت «طنط سميحة» الأمر بحزم أولياء الأمور في مثل هذه المواقف...

– «أنتم جميعاً مدعوّون على العشاء عندنا الأسبوع القادم. ولعلّها تكون فرصة جميلة لكي نستمع إلى عزف طارق إن رغب، وإن لم يرغب فلا بأس، فيكفينا فقط حضوركم جميعاً بمناسبة عيد زواجي».

– «ألف مبروك، طنط سميحة..».

– «ألف مبروك، وعقبال مئة سنة..».

وهكذا استقر الأمر، وشعر طارق بسعادة كبيرة لأنّه سوف يزور رباب في منزلها، ويتعرّف عليها وعلى والديها عن قرب؛ وكأن الأقدار كانت تقوده إليها، دون أن يبذل أيّ عناء! ولكنّه سرعان ما أدرك في الأيام اللاحقة أن مقابل هذه الدعوة

الجميلة على العشاء، كان انقطاع لقاءاته مع رباب الّتي انشغلت مع أمها من أجل التحضير لهذه الحفلة القادمة بعد أسبوع!

***

مرّ الأسبوع على طارق كمرور دهر من الزمان، وجلّ تفكيره كان ينحصر في رغبته الملحّة لرؤية رباب من جديد، والتحدث معها. لم يهتم كثيراً بما سيعزفه في حفل عيد زواج «طنط سميحة»، بل حتّى لم يتذكر أنه سوف يعزف على البيانو إلى أن دخل الشقة الأنيقة بالدور الرابع في العمارة الواقعة بحي جاردن سيتي، ولمح «الچراند» بيانو الأسود في زاوية من زوايا الصالة الفسيحة ذات الطابع الكلاسيكي الفرنسي، حيث كان جلّ ضيوف الحفل...

كان طارق آملاً أن يجد رباب في استقباله، و«نايف»، ولكنّه تفاجأ بأبيها: «أونكل مصطفى»، كما سمع صديقه يناديه.

– «أهلاً يا نايف... أخبارك؟».

صافح والد رباب زميل ابنته السعودي في الجامعة الأمريكية، ثم التفت إلى الضيف الغريب الّذي كان مصاحباً له، والّذي لم يَبدُ على «أونكل مصطفى» أنّه كان على دراية به أو بقدومه.

– «طارق أيوب، صديق قديم منذ الطفولة.» بادر نايف مجيباً على دهشة مضيفه الّتي وإن لم يصرّح بها حتّى لا يُحرج الضيف القادم على غفلة إلا أنها قد بدت جليّاً على ملامح وجهه الممتلئ.

– «أهلاً طارق، تفضّل، البيت بيتك... أأنت طالب جديد في الجامعة؟».

بُهت طارق من السؤال لوهلة، ثم سرعان ما أدرك قصد والد رباب الذي حتماً لم يسمع به لا من ابنته ولا من زوجته، وكأنهما نسيتا أمره منذ اللقاء الأخير بنادي الصيد!

– «لا، أنا لست في الجامعة الأمريكية، بل في كلية الطب بجامعة الملك عبد العزيز في السعودية... جدّة على وجه التحديد».

– «يا سيدي، أهلاً بك في بلدك الثاني مصر...» ردّ والد رباب على ضيفه السعودي، ثم توجه بحديثه إلى السعودي الآخر في الحفل...

– «تفضّل يا نايف، أنت لست غريباً... رباب مع حسن وداليا وسهام وباقي شلّتكم، في الشرفة».

اتجه طارق خلف صديقه نحو الشرفة، تاركاً «أونكل مصطفى» مع أصدقائه. وأثناء مروره عبر الصالة الرئيسة، لمح ذلك البيانو الجميل المتألق وسط الشقّة، والّذي –لسبب ما– بدا لطارق وحيداً في تلك الزاوية بالرغم من هالته العظيمة؛ وكأن ضيوف الحفل شعروا بالإجلال تجاهه، فأبوا إلّا أن يتحاشوه حتّى لا يصيبوه بسوء دون قصد، ويثيروا بذلك غضب صاحبته، الوحيدة المخوَّلة بالاقتراب منه!

– «ابسط يا عم... ها قد عرّفتك بوالد رباب، وبذلك أصبحت تعرف كل العائلة».

قال نايف مخاطباً «طارق» بنبرة لا تخلو من سخريته المعهودة التي لم ترق لصديق طفولته في تلك اللحظة، وهو على وشك أن يلتقي رباب بعد غياب دام أكثر ممّا كان يشتهي... لم يردّ عليه طارق، واكتفى فقط بنظرة تعجب مع هزة رأس تُفصِح عن امتعاضه من مزحة ليس لها داعٍ... خطوات قليلة أخرى، ثم وجد العاشق نفسه أمام معشوقته في الشرفة المطلّة على نهر النيل؛ محاطة بأصدقائها المعتادين الّذين التقاهم قبل ذلك أكثر من مرّة في نادي الصيد.

– «مساء الخير يا حلوين...» بادر نايف مصافحاً أصحابه، ومن خلفه طارق الّذي وجد نفسه منحازاً نحو الجانب الّذي تقف فيه رباب. وبشكل تلقائي، دون أن يشعر، سارع بمصافحتها متجاهلاً الآخرين، وما كاد يفعل حتّى شعر بوخزة نايف في جنبه الأيسر، ليتدارك الموقف بتحية باقي الموجودين من شِلّة صديقه...

– «أهلاً طارق.» جاء ردّ حسن فاتراً على خلاف الباقين، ولكنّ «طارق» لم يأبه به كثيراً، فجل اهتمامه كان منصباً باتجاه واحد فقط لا غير؛ فلولا وخزة نايف، لما كلّف نفسه حتّى عناء مصافحة أحد غير رباب...

وهكذا، استمرت السهرة على غير هوى طارق، حيث لم يأثر بالقدر الذي كان يتمنّاه من الفتاة الّتي حضر خصّيصاً من أجلها؛ بل وحتّى أمها لم تُبدِ نحوه ذلك الاهتمام الذي كان يتوقعه منها منذ لقائهما الأخير في نادي الصيد، والحديث عن هوايتهما المشتركة الّتي كان يحسبها ستقرّب بينهما، وتجعله في مكانة أفضل تمكّنه من قطع مسافة كبيرة في التودّد والتقرّب من هذه الأسرة الّتي رغب في أن يحصل على ثقتها من أجل عينَي تلك النغمة الجميلة الّتي خفق لها قلبه.

لكنّ الأمر لم يكن في غاية السوء، حيث إن فرصة جديدة أُتيحت له عندما اتفق أعضاء الشلّة في نهاية الحفل على رحلة نيلِيّة إلى القناطر الخيريّة في اليوم التالي، وتناول الغداء في فيلا والد داليا المطلّة على النيل. وبالطبع، الدعوة شملته هو كذلك. ولكنّ أهم ما في الأمر بالنسبة له أن نقطة التجمع ستكون في منزل رباب، ومن ثمّ سينطلقون إلى المركب الّذي سيبحر بهم عبر نهر النيل إلى القناطر الخيرية... ممّا يعني أنّه بإمكانه أن ينفرد برباب إذا حضر مبكراً قبل الجميع!
عصف ذهني من الأفكار جعل طارق يرتب أمره لليوم التالي، حتّى يستغل الرحلة لأبعد حد؛ فالأيام تمضي والإجازة تتآكل، ولا بد له أن يقطع شوطاً أبعد مع فتاته المصرية، ويخطو معها خطوات نحو علاقة متبادلة وليست من طرف واحد؛ كما يبدو عليه الحال الآن!

ومن دون أن يخبر «نايف»، ذهب في اليوم التالي إلى شقّة رباب قبل الموعد المحدّد بنصف ساعة، غير مكترث بما قد يفضي إليه هذا التصرف من حرج له ولها... سيتحجج بخطأ غير مقصود في سماع الموعد... سيتظاهر بالارتباك والحرج الشديد من هذا الخطأ، بل وحتى سَيهِمّ بالانصراف على أن يعود مجدّداً في الموعد المحدّد، وهو يدرك جيداً أن رباب ووالديها لن يسمحوا له بالذهاب بعد أن جاء، وسيصرّون عليه لكي يدخل، وينتظر الباقين حتّى يأتوا...

وبالفعل كان له ما أراد.

– «فرصة يا طارق حتى نسمع عزفك على البيانو من غير شوشرة.» بادرت أم رباب أثناء دخول طارق إلى الصالة.

– «من غير المعقول أن أعزف وحضرتك موجودة.» أجابها طالب كليّة الطب السعودي على استحياء، وكأنّه يخشى من أن يكون عزفه متواضعاً إذ ما قورن بعزف «طنط سميحة».

– «اعزف لنا أي شيء تعرفه؛ أنا واثقة بأنه سيكون أفضل من عزفي السيّئ الّذي جنّن ماما.» تدخلت رباب بنبرة مرحة لتزيح الحرج عن طارق.

– «ما هي آخر معزوفة تعلمتها؟» سألته أم رباب.

– «هنغاريان راپسودي لفرانز لست.» أجابها دون تردّد.

لوهلة، ظنّت رباب وأمها أن «طارق» يمزح؛ فمثل هذه المقطوعة الّتي تُعزف عادة مع الأوركسترا، ليس من السهل عزفها بشكل منفرد، وخاصة من قبل عازفٍ هاوٍ. ولكن، سرعان ما أدركتا أنّه لا يمزح عندما جلس أمام «الچراند» بيانو، وأخذ يعزف ببراعة المحترفين!

استمعت إليه رباب و«طنط سميحة» حتى فرغ، وقد هالتهما المفاجأة غير المتوقعة، حيث لم يحسباه أبداً على هذا القدر من المهارة! وبشكل تلقائي، أخذتا تصفّقان له بحرارة ملحوظة على عزفه الجميل المُتقن، ممّا جعله يشعر بالنشوة والسعادة! لقد اقترب خطوات من قلب الفتاة وأمّها... هكذا شعر.

– «براڤو! عزفك هائل يا طارق، ولا المحترفين!».

– «العفو يا طنط سميحة... أنا واثق من أن عزفي لا يقارن بعزفك».

– «بطَّل بَكَش يا طارق... أنت لم تسمع عزف ماما حتّى تحكم».

– «لست بحاجة لأن أسمع حتّى أحكم، فالجواب باين من عنوانه. وفي نهاية المطاف، أنا مجرد هاوٍ».

– «أنت حقّاً موهوب يا طارق. تعزف بإحساس كبير لا تجده عند كثيرٍ من العازفين المحترفين... لم أتصور أبداً أن أستمع إلى عزف بهذا الجمال من طالب طب، ومن السعودية!».

لم يشعر طارق بسعادة قط كتلك الّتي شعر بها وهو يرى نظرات الإعجاب في عينَي رباب، وأمها، مصحوبة بفيض من الثناء على عزفه الماهر. لقد زاد مقدار حبّه لآلة البيانو درجات في تلك اللحظات، لا لشيء سوى لأنها قرّبته أكثر من معشوقته. دقّات قلبه كانت تتسارع من شدّة الفرح... «أخيراً!»... شعر وكأنه قد خطا خطوات هامّة نحو مراده؛ فلقد أصبح أقرب إلى قلبها من أي وقت مضى: هكذا حدّثته نظرات رباب الهائمة نحوه! بل وفوق كل هذا، لقد حاز على دعوة من «طنط سميحة» لحضور حفل الفرقة السمفونية المجرية بدار الأوبرا الأسبوع القادم معها ومع رباب! هم الثلاثة فقط!

لم يصدّق طارق نفسه! كان في حالة من الذهول ممّا جرى له حتّى الآن... كيف يمكن لهذا اليوم أن يكون أجمل؟!

أود أن أعتذر منكم مقدماً إن كنت قد أطلت عليكم في وصف أحداث ما جرى بين طارق ورباب، خاصة وأنكم تعلمون مسبقاً أن علاقتهما لن يكتب لها النجاح. ولعلّي الآن، وقد وصفت لكم البداية، أنتقل بكم إلى النهاية. وبالمناسبة، هذا الانتقال لن يكون بعيداً زمنياً، وإن كان الزمن في مثل هذه الحكايات لا يعني

الكثير، إذ هو مجرد رقم نسبي، يختلف الشعور به باختلاف الناظر إليه، والمتعايش معه...

أربعة أيام مضت منذ أن عزف طارق مقطوعة فرانز لست، وما تلى ذلك من نظرات إعجاب وانبهار؛ ثم الرحلة النيلية إلى القناطر الخيرية... ظلّ طارق طوال الليل بعد عودته يفكر في الخطوة التالية مع رباب. أراد أن يصارحها بحبّه، ويضع النقاط على الحروف؛ فكانت الفرصة في المكان ذاته الذي التقاها فيه لأول مرة... نادي الصيد.

رأى رباب جالسة بصحبة داليا في الحديقة إلى إحدى الطاولات. صحيح أنّها لم تكن بمفردها، ولكنّها من المرات القليلة التي لم تكن فيها إما بصحبة أمها أو مع باقي الشلّة. داليا أمرها هَيِّن– أخذ يفكر– فهي أعز صديقات رباب، ولعلّها على دراية بالمشاعر التي أخذت تنشأ بينهما... ذهب طارق إلى رباب بعد أن استجمع كل ذرة من مخزون الشجاعة، وعلى الفور، بعد التحية، طلب منها أن يكلّمها على انفراد. لاحظ ابتسامة خجولة تُرسم على وجه رباب، كما لاحظ إشارة تشجيع من داليا تحث بها صديقتها على الذهاب معه... المبشرات كانت ظاهرة للعيان، والجواب كان واضحاً من عنوانه، ممّا زاد «طارق» ثقة بالخطوة الّتي أقدم عليها... وبات على قناعة بأن المكان والزمان كانا حتماً في صالحه!

ذهبا إلى ركن ليس ببعيد عن المكان الذي كانت تجلس فيه، عند ساحة ألعاب الأطفال؛ ثم على الفور، ومن غير مقدمات، بادر بالمصارحة:

– «منذ أول يوم رأيتك فيه هنا في نادي الصيد وتحدثت معك، أدركت أنك غير كل البنات اللّواتي صادفتهن في حياتي. الإحساس الذي شعرت به تجاهك منذ ذلك اللقاء، والذي ترسخ مع كل لقاء لاحق، لم أصادفه من قبل في حياتي، ومع ذلك أدركته على الفور..».

– «طارق..».

– «أحبك يا رباب... أحبك».

احمّر وجه الفتاة، وأخذت تنظر إلى النجيل، شاعرة بالخجل الشديد، دون أن تكمل الجملة الاعتراضية الّتي بدأتها قبل أن يقاطعها طارق بالكلمة الّتي أربكتها، بالرغم من توقعها لها.

– «كل ما أتمناه الآن في هذه اللحظة، هو معرفة مشاعرك تجاهي. رباب... هل تشعرين نحوي بأي شيء؟».

صمتت قليلاً قبل أن تجيبه بعد أن ارتسمت على وجهها ابتسامة خجولة، وكأن الكلمات تاهت عنها قبل أن تستعيدها من جديد...

– «بماذا يحدّثكَ قلبكَ؟».

أدرك طارق على الفور الإجابة عن سؤاله، وإن جاءته هي الأخرى على صيغة سؤال... شعر وكأن قلبه يريد أن يقفز من صدره ليستقر بجوار قلب رباب، ليكون في صدرها مُستقرُّه الأخير... ولكنّه كان طامعاً في ما هو أكثر... أراد أن يسمع إجابة أكثر صراحة... أكثر وضوحاً، حتّى يزداد اطمئناناً...

- «أريد أن أسمع إجابة من قلبكِ أنتِ... لا تحرميني منها».

- «طارق... اعذرني، ولكن... ولكن هذه أول تجربة لي... أنا لم يسبق لي أن..».

مرة أخرى، لم تستطع إكمال جملتها. لم تتمكن من النطق بالكلمة التي أراد طارق سماعها؛ ولكنّه التمس لها العذر. فلعلّ هول التجربة، وما صاحبها من فيضان في المشاعر، قد ألجما لسانها عن النطق بكلمة «أحبكَ»؛ على الرغم من رغبتها بالنطق بها.

- «رباب».

رفعت رأسها نحوه، مكتفية بنظرة متردّدة لا تخلو من الخجل.

- «لم يتبقَ لي في كلية الطب سوى سنتين فقط، وبعدها سأبدأ سنة الامتياز. ما رأيك لو آتي مع أهلي في عطلة منتصف العام، ونقابل أونكل مصطفى وطنط سميحة من أجل خطبتك؟».

ارتعشت شفتا رباب بكلمة «نعم» غير مسموعة. لم تكن بحاجة لكي تفصح عن موافقتها لطارق، إذ أتاه الجواب الصريح من حمرة وجنتيها، والسعادة الغامرة الّتي بدت على عينيها المكحلتين... فاللسان ليس بحاجة إلى الإفصاح عن لغة القلوب النابضة بوهج الحياة، خاصة عندما تكون بالقرب من ذلك الذي أشعل فيها لهيب فرحتها!

***

لم تسعه الفرحة وهو يحكي لنايف عمّا دار بينه وبين رباب في نادي الصيد، فور ما التقاه في الشقة. ومن شدّة حماسته، ظلّ يدور بين الأرائك حول الصالة، غير راغب في استخدام أيّ منها لكي يرتاح، وكأنه خشي أن تفتر فرحته بمجرد الجلوس... الأمر برمّته كان أشبه بالخيال بالنسبة لطارق. ما كان يتصور أنّ رحلةً صيفيةً إلى القاهرة، جاءت بعد إلحاح صديقه نايف، سيعيش من خلالها أجمل قصة حب، بعد أن صادف فتاة أحلامه الّتي ما ظنّ– حتى تلك اللّحظة الّتي تعرف فيها عليها– أن لها وجوداً... ولكن ها هو ذا، أسعد خلق الله! فما من أحد في هذا الكون يشعر بمثل فرحته، هكذا ظن طارق... حاله في هذا الإحساس كحال كلّ المحبين.

– «والله لم أتصور أن تكون بهذه الجرأة يا صديقي! براڤو عليك يا شيخ! ولكن أخبرني، ماذا حدث بعدما وافقت على الخطبة؟!»

كانت حماسة نايف لا تقل عن حماسة طارق، بل وزاد عليها إحساسه بالفخر، لأنه من عرّفه عليها.

– «أبداً. عادت هي إلى داليا، وجئتُ أنا إلى هنا على الفور، لكي أخبرك بما حدث».

– «ولكن...» ما كاد نايف يبدأ جملته حتى صمت، وكأنه تراجع عمّا أراد أن يقوله.

– «ولكن ماذا؟ هات ما عندك. لا تتردّد».

– «ألا تظن أنك استعجلت قليلاً في مسألة الخطبة هذه؟ هل تعتقد أن أهلك سيوافقون على خطبة فتاة مصرية؟».

– «ولمَ لا؟! ما المانع؟».

– «لا أدري... أنت أعلم بأهلك طبعاً... ولكن... رباب ولا شك فتاة ممتازة، ومن عائلة كريمة، ولكنك تعلم كيف أهالينا يفكرون. أقصد العادات، والتقاليد، واختلاف الطبائع... كلها أمور تحمل أهمية كبيرة لهم».

– «هذا كلّه لا يهمني في شيء! أنا الذي سوف أتزوج وليس هم! تأكد يا نايف بأنّني لن أقبل بزواج تقليدي من فتاة لا أعرفها، ولا تربطني بها أية عاطفة، فقط لأن أمي ارتأتها مناسبة!»

جاء رد طارق حازماً، ودون أية مواربة، ليقطع على نايف أي تحفظ آخر قد يبديه ولو من باب الحذر.

– «يا سيدي ألف مبروك عليك. أنت تعلم جيداً أنّني أتمنى لك كل السعادة. وكما قلتُ لك من قبل: رباب فتاة ممتازة؛ وهي تناسبك تماماً... هيّا... دعنا نحتفل يا بطل بإنجازك العظيم!».

وعلى الفور، ذهب نايف إلى جهاز «الستيريو»، وأخذ يبحث بين أشرطة الكاسيت التي بجواره حتّى استقر على واحد، ثمّ امتلأت الصالة بموسيقى حسن إش إش، وصوت حمدي بتشان:

إيه إيه، إيه الحكاية؟... إيه إيه، إيه الرواية؟

إيه إيه إيه إيه، إيه الحكاية كاية؟...

إيه إيه إيه إيه، إيه الرواية واية؟

كلّمني، فهمني، كلّمني، فهمني

كلمني كلم كلم كلمني... فهمني فهم فهم فهمني

إيه الأساتوك ده، اللّي ماشي يتوك ده؟

إيه ورد الچناين ده، اللي يصَحي النايم ده؟

إيه يا خواتي الراچل ده، اللي ماشي يعاكس ده؟

إيه يا خواتي الدم السم ده، اللي يسير أعصابي ده؟

– «ما هذا الهباب؟! حرام عليك! أهذه أغنية تضعها في مناسبة كهذه؟!».

– «لعلمك هذه الأغنية مكسّرة السوق الآن! ماذا تريدني أن أضع لك؟ سيمفونية بيتهوفن العاشرة؟!».

– «بيتهوفن ليست لديه سوى تسع..».

لم يكمل طارق تصحيحه للمعلومة الموسيقية، واكتفى بهزة رأس مستسلمة، وقد يئس من محاولة تثقيف صديقه موسيقياً. ثم بصوت هادئ قال:

– «لا عليك... ضع ما تشاء، فلن أختلف معك الليلة... يشفع لك أنّك الذي عرّفتني على أجمل حب في حياتي».

***

لعلّكم تتعجبون! إذ كيف أخبرتكم قبل قليل بأنّني سوف أختصر قصة طارق ورباب وأحدثكم عن نهايتها، في حين أن الأمور– كما يبدو من سردي للأحداث– تسير من حسن لأحسن؟! في واقع الأمر، من خلال خبرتي الكبيرة في عادات البشر وسلوكياتهم، (من كثرة ما بحثتُ في هذا الأمر، وكتبتُ عنه، كما تعلمون أو لا تعلمون) أستطيع القول إن الإنسان عادة لا ينظر إلّا من خلال زاوية ضيقة جداً، فلا يرى إلّا جزءاً من الحقيقة، وليس الحقيقة كلها. ما علاقة كل هذا بقصتنا؟ لا تتعجلوا، فكل شيء سيتّضح لكم إن تمكنتم من الصبر؛ والقليل منه هو كل ما تحتاجون إليه.

***

ذهب طارق إلى نادي الصيد في اليوم التالي من مصارحته لرباب، في الموعد ذاته الذي من عادتها أن تأتي فيه، وكلّه شغف لرؤيتها والتحدث معها. ظلّ طوال الليل والنهار يحلم بهذا اللقاء الأول بينهما، بعدما صرّح كل منهما بحبه للآخر؛ فحتماً سيكون لقاءً ذا طعم مختلف، وأجمل من أي لقاء سابق!

فيمَ سيتحدثان يا ترى؟ أخذ يتساءل... حتماً عن مستقبلهما... بل وربما عن حياتها معه في السعودية، سواء أكانت في جدة أم ربما في الرياض، إن وجد هناك فرصة أفضل في برنامج تخصص أقوى؛ فمستشفيات العاصمة سمعتها أقوى من مستشفيات باقي المدن، بما فيها جدّة. أو لعلّه يتحصل على بعثة إلى

كندا أو أمريكا فيأخذها معه إلى هناك! «كل الاحتمالات واردة، ومن حق رباب أن تكون على علم بها جميعاً»، حدّثته نفسه.

أخذ طارق يبحث عن معشوقته في المكان المعتاد... لم يجدها، ولكنّه لم يقلق، حيث إنه جاء مبكراً بعض الشيء من شدّة ولهه لرؤيتها... «لا بأس»، أخذ يفكر، فسينتظرها قليلاً حتّى تأتي؛ بل لعلّه يظفر بها وحدها فور وصولها، قبل أن يأتي أحد آخر من باقي الشلّة، فيقطع عليهما حديثهما... ولكنّ لحظات الانتظار أخذت تطول، والدقائق تراكمت حتى أصبحت ساعة، والساعة تجاوزتها ساعة أخرى لتصبح ساعتين، دون أن تأتي رباب... «لا بأس، فلعلّ طارئاً شغلها هذا اليوم عن المجيء»...

ولكن يا أصدقائي الأعزّاء، ما رأيكم أنتم؟ لا يوجد ما يدعو إلى القلق... أوليس كذلك؟

على أية حال، لم يتمكّن القلق بعد من طارق، بل كان على يقين بأنّ رباب مشتاقة إليه بقدر اشتياقه هو لها، ولأنها لم تتمكن من المجيء في هذا اليوم، فحتماً سوف تحرص على المجيء في اليوم التالي... ولكنّ اليوم الّذي تلى لم يكن مختلفاً عن سابقه؛ فمرّة أخرى لم تحضر رباب. وهنا، في هذه اللحظة، بدأ شيء من القلق يتسرب إلى ذهن طارق... وبدأت التساؤلات تطرح نفسها... فإن كان مانع منعها من الإتيان إلى نادي الصيد من أجل لقائه، فهل أيضاً منعها ذلك المانع من الاتصال به؟ هي تعلم بأنّه يسكن مع نايف، ولديها رقم هاتفه. كان بإمكانها أن تتصل به، ولكنّها لم تفعل... لماذا؟!

– «ألم تخبرني بأن طنط سميحة دعتك لكي تذهب معها ورباب إلى دار الأوبرا غداً؟»

تذكّر نايف ما أخبره إياه طارق وهو في غاية الحماسة في اليوم الّذي ذهبوا فيه إلى القناطر الخيرية. وقد خطر على باله أمر، لعلّه يساعد به صديقه حتّى يتجاوز حيرته.

– «صحيح».

– «هل اتفقتما على كيفية اللقاء؟ هل ستمرّ عليك بسيّارتها مثلاً، أم ستقابلها ورباب هناك؟»،

– «في الواقع، لم نتباحث في هذا الأمر... أظنّ أنّه كان من المفترض أن تتصل بي من أجل ترتيب هذا الأمر».

– «بالتأكيد، ولكنّها لم تفعل حتّى الآن... وبما أن طنط سميحة هي الّتي دعتك إلى حفل دار الأوبرا، فلديك حجة جيدة لكي تتصل عليها، من أجل الاستفسار عن الأمر؛ ومن يدري؟ لعلّ الحظ يحالفك، وتردّ رباب على الهاتف».

– «والله فكرة جيدة يا نايف! براڤو عليك يا شيخ!».

وعلى الفور، رفع طارق سمّاعة الهاتف، وأخذ بالاتصال على الرقم الّذي أملاه عليه نايف...

– «ألو.» جاء صوت والد رباب، على خلاف ما كان يتمناه طارق.

– «مساء الخير أونكل مصطفى. أنا طارق..».

– «أهلاً طارق... أخبارك، وأخبار نايف إيه؟».

– «الحمد لله بخير... أنا آسف على الإزعاج، ولكن... كانت طنط سميحة دعتني على حفل دار الأوبرا غداً... بس حبيت أنسّق معها كيفية الذهاب إلى هناك».

استخدم طارق الحجّة الّتي نبّهه إليها نايف حتى لا يبدو اتصاله غريباً، على أمل أن ينادي والد رباب «طنط سميحة» لكي تتحدث معه، وتأكد موعدهما غداً، فيتسنّى له رؤية رباب من بعد الغياب.

– «غريبة يا طارق... هي اتّفقت معك على الذهاب غداً إلى دار الأوبرا؟».

– «نعم، في اليوم الذي مررت فيه على الشقة، قبيل الذهاب إلى القناطر الخيرية».

– «والله يا طارق، لا أعلم ماذا أقول لك؟ يبدو أنّها نَسِيَت... هي ورباب الآن في الإسكندرية. سافرتا إليها البارحة صباحاً، ولن تعودا حتى نهاية الصيف».

– «ماذا؟! الإسكندرية؟».

لم يتوقع طارق هذه الإجابة! لقد باغتته، بل وقعت عليه كالماء البارد لتُجَمِّد عقله لوهلة فتجعله غير قادر على استيعاب ما سمع، وتحليل معناه!

– «يا سيدي خيرها في غيرها. أنت متى راجع إلى السعودية؟».

– «السعودية؟» ردّد متسائلاً، وكأنه لم يستوعب السؤال في بادئ الأمر، قبل أن يجيب عنه:

– «على نهاية الصيف».

– «يعني لن نراك مجدّداً هذه الإجازة. على العموم، أنا تشرفت بمعرفتك، وحاول أن تأتي إلى مصر في العطلة القادمة حتّى نراك».

– «أكيد..».

– «سَلِّم لي على نايف... مع السلامة».

لم يكن نايف بحاجة للاستفسار عمّا دار من حديث عبر الهاتف، فخيبة الأمل الّتي ظهرت على وجه صديقه، والمقتطفات الّتي سمعها، كانت كفيلة بالإفصاح عن الخبر...

– «لا عليك يا طارق... ألا يقال في الأمثال إنّ مع البعد يزداد لهيب الحب؟».

– «ولكنّي... ولكنّني كنت قد هيّأت نفسي للُقْياها غداً، بل وأكثر من مرة حتّى نهاية الإجازة... لم أشبع من الحديث معها بعد، وهناك الكثير مما وددت قوله لها».

– «صدّقني، مهما كان عدد المرّات الّتي تلتقيها فيها، فلن تكون كافية... عليك يا بطل أن تتحمل الفراق، وتعتاد عليه من الآن؛ على الأقل حتّى تتزوجها، وتذهب معك إلى السعودية».

لم يقتنع طارق بما سمعه من نايف، وظلّ يهز رأسه استنكاراً، غير راضٍ عمّا آلت إليه الأحداث، ثم قام من على الأريكة الّتي جلس عليها عندما كان يتحدث على الهاتف، وأخذ من جديد يدور حول المكان، في حالة من العصف الذهني، باحثاً عن حلٍّ لهذا المآل الصعب الذي وجد نفسه فيه. وما هي إلّا لحظات حتّى التفت مرّة أخرى إلى صديقه...

– «لماذا لا نذهب نحن أيضاً إلى الإسكندرية؟! ما المانع؟!»

– «طارق... لعلّه من الأفضل أن نتأنّى قليلاً».

أجابه نايف مدركاً أن شيئاً ما ليس على ما يرام بالرغم من طمأنته لصاحبه، على خلاف طارق الذي كل ما كان يعكّر صفوه هو بعد رباب عنه، دون أن يلتفت إلى هذه الرحلة المفاجئة الّتي قامت بها مع أمها، ولم تخبره عنها في آخر لقاء جمع بينهما؛ فلعلّها نسيت أن تخبره حينها، مع «ربكة» المصارحة بما يكنّه كلّ منهما للآخر من مشاعر، أخذ يفكر... بل لعلّها حاولت الاتصال به على هاتف شقة نايف عندما كان بالخارج. وجد لها طارق أكثر من عذر. (وهنا يا أصدقائي الأعزاء، يجب عليّ أن أؤكد لكم بحكم اطلاعي على خبايا الأمور– لكوني الراوي العليم– أن طارق كان صادقاً في بحثه عن أعذار لرباب، ولم يكن في حالة من الخداع الذاتي؛ حيث لم يرتاب على الإطلاق من هذه الرحلة الّتي قامت بها رباب وأمها دون سابق إنذار، على خلاف صديقه نايف. الأمر بالنسبة لبطل حكايتنا كان فقط مجرد حدث مزعج لا أكثر.)

– «نتأنّى! من الغريب أنك أنت الذي تقول هذا!»

وما كاد طارق ينهي اعتراضه حتّى رنّ الهاتف، وكأنه كان توقيتاً مقصوداً... (في واقع الأمر، رنّة الهاتف جاءت لاحقاً، ولكنّني لأسباب درامية، لعلّكم تقدّرونها، جعلتها تأتي على هذا النحو.)

– «ألو... يا أهلاً، لسّه في سيرتك...» رسم نايف على وجهه ابتسامة بعد ردّه على الهاتف الذي كان أقرب إليه، ولكن سرعان ما انطفأت تلك الابتسامة، وراح يختلس النظرة تلو الأخرى نحو طارق الذي كان ينظر إليه بوله ملحوظ، متسائلاً بعقدة حاجبيه إن كانت رباب هي المتّصلة.

– «حاضر... حاضر، سوف أبلغه... مع السلامة».

– «من كان على الخط؟» على الفور سأل طارق.

– «هذه... هذه كانت رباب».

– «رباب؟! ولماذا لم تناولني السمّاعة لكي أكلّمها؟! ما الذي دهاك يا نايف؟!».

– «طارق..».

تردّد قليلاً قبل أن يكمل ما أراد قوله، ثم أشار إلى صديقه الواقف لكي يجلس بجواره على الأريكة...

– «رباب طلبت منّي أن أبلغك رسالة... تطلب منك أن تكفّ عن مضايقتها، وألّا تحاول الاتصال بها أو بأحد من أهلها».

- «ماذا؟! ... أنت تمزح، أليس كذلك؟»

- «أنا آسف يا طارق، ولكنّني لا أمزح... هذا ما قالتْه لي بالحرف».

وكأن ماءً بارداً انسكب على رأسه في يوم عاصف، ليُباغته فيشُلّ عقله عن الفهم والتفكير! ضاعت من ذهن طارق الكلمات، وقد شعر بألم مفاجئ في أحشائه وكأن يداً قبضت عليها، وأخذت تعتصرها عصراً، حتّى شعر برغبة ملحة في التَقَيُّؤ! لوهلة، شك بأن يكون مستيقظاً... لعلّه يحلم؛ بل لعلّه كابوس وسيستفيق منه قريباً... فالّذي سمعه من نايف لا يمكن أن يكون غير ذلك! لقد أخبرته قبل يومين بأنّها تبادله مشاعره تجاهها نفسها! بل ووافقت على خطبته لها في العطلة القادمة! إذاً، ما معنى هذا الهراء الّذي سمعه قبل قليل؟!

- «طارق... لماذا لا تذهب لتستريح الآن، وغداً نتحدث في الأمر؟».

جاءت نصيحة نايف في مكانها، حيث لم يعد طارق راغباً في الحديث؛ فكل ما كان يرغب فيه الآن هو أن يجلس منفرداً مع نفسه، بعيداً عن أي أحد، ليراجع كل ما دار من حوار بينه وبين رباب؛ ليس فقط في يوم المصارحة، ولكن منذ أن تعرف عليها في بداية الإجازة... أراد أن يفهم... فقط أراد أن يفهم، إن تسنّى له ذلك!

***

أيام مضت، قضاها طارق في عزلة اختيارية بالمكان ذاته. بل، ولولا الحاجة البيولوجية، لما وطأت قدماه الأرض خارج غرفة نومه. لم يرغب في مقابلة أو التحدث مع أي أحد، حتّى نايف. كل ما أراده هو الانفراد مع نفسه، وألّا يشاركه إنسان لحظات حياته الحزينة، وإن كان قد تمنى في تلك اللحظات وجود البيانو، فتلك الآلة الساحرة هي الوحيدة القادرة على مشاطرته الأحزان؛ يستطيع البوح لها، فتجيبه بأعذب الألحان. ولكن، أين هي الآن؟ فأقرب شيء لأية آلة موسيقية في شقة نايف، هو جهاز «الستيريو» الموجود في الصالة، وهذا بالتأكيد لا يفي بالغرض.

لم يسمع أي خبر جديد من أو عن رباب. فكّر أكثر من مرة في أن يتصل بها مباشرة، لكي يستفسر عمّا جرى، ولكن «نايف» كان دائماً يثنيه عن فعل ذلك، مذكّراً إياه بما قالته له رباب بشكل لا يدع أي مجال للشك، بعدم رغبتها في التواصل معه نهائياً...

– «يا أخي سيبك منها! أنا مستعد أعرفك على فتاة أحلى من رباب مئة مرة!»

– «لستُ بحاجة لكي تعرفني على غيرها. لو أردتُ التعرف على غيرها لفعلت... أريد أن أفهم منها لماذا قالت لك ما قالته؟!».

– «أتريد أن تفهم؟! وهل يمكن لرجل أيّاً كان أن يفهم المرأة؟! يا صديقي، النساء كلّهن سواء. هنّ هكذا، كائنات غير قابلات للفهم!».

– «دعك من هذا الهراء يا نايف! لا بد أن أتواصل مع رباب لكي أفهم منها ما جرى. أريد معرفة سرّ تغيُّرها نحوي على هذا الشكل! الّذي حدث هذا أمر في... في غاية الجنون! حتماً حدث أمر ما جعلها تقول لك ما قالته!».

– «حسناً... إن كان هذا ما يؤرقك، فلعلّ لدي وسيلة من أجل معرفة حقيقة ما جرى... داليا».

– «داليا؟» ردّد طارق بنبرة استفهام.

– «نعم داليا، فهي أعز صديقات رباب، وأسرارهما عند بعضهما. حتماً رباب أخبرتها عن كل شيء بينكما».

– «وليكن، فما الذي يجعل داليا تخبرك أنت عن سرٍّ ائتمنتها عليه رباب؟».

لم يجبه نايف، واكتفى فقط بنظرة تصحبها ابتسامة لا تخلو من الغرور، ففهم طارق على الفور مغزاها دون الحاجة إلى أي إفصاح.

– «أنت وداليا! منذ متّى؟ ولمَ لم تخبرني من قبل؟».

– «منذ شهور. هي مجرد علاقة طيّاري عابرة... منذ البداية، وكنتُ حريصاً على أن تبقى في الخفاء... استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان! أليس كذلك؟!».

أريد من الآن، وقبل أن أكمل قصّة طارق مع رباب، أن أعتذر من أصحاب العاطفة الدينية منكم، الذين سوف يعترضون على استخدام نايف لنص حديث في غير موضعه، ومع مسألة حتماً سوف تُعتبَر من قبل هؤلاء وضيعة: «علاقة آثمة بين شاب وفتاة»!

ولكن هنا يجب التذكير بالقول المأثور: ناقل الكفر ليس بكافر... وإن كان ما حدث أبعد ما يكون عن الكفر، ولكن يبقى المعنى مفهوماً... ولعلّها فرصة طيبة لمشاركتكم مسألة لطالما أرَّقتني؛ فهل يجب على الراوي أن ينقل بأمانة كل ما يصدر عن شخصية ما، مهما كان في هذا الأمر من خدش للحياء أو الأعراف، أم يجب عليه التلطيف والتخفيف من أجل بعض القراء الذين قد لا يتحملون صراحة الحدث؟ وهنا سؤال آخر يطرح نفسه: ألا يعُدّ هذا التخفيف والتلطيف شكلاً من أشكال التزييف، حتّى وإن كان الغرض شريفاً؟ لطالما كانت هذه المسألة محيّرة لي (وأنا الذي لا أحتار من قليل!). إلى أي حد يجب على الراوي أن يكون صريحاً؟ إلى حد التصادم مع المجتمع؟ وإن راعى ذلك المجتمع، وغَيَّر من الأحداث أو الأقوال، فهل يعدّ خائناً للأمانة السردية، لنقله الأحداث على غير ما جرت عليه؟ ألا توجد كذلك مسؤولية تجاه شخصيات القصة، تجب مراعاتها؟

أوف!... عفواً، عفواً يا أعزائي... بحق أعتذر منكم مجدّداً، خاصة وأنني قبل عدة صفحات قد وعدتكم بألّا أنصاع وراء ترهاتي الفلسفية أو السياسية الّتي دائماً ما تتمكن منّي خلسة! لقد وعدتكم منذ البداية بأن هذه سوف تكون قصّة عاطفية، بعيدة كل البعد عن الأفكار الفلسفية الثقيلة المملّة، ويجب أن أفي بوعدي لكم (وإن كانت قصّة عاطفية أقرب إلى السواد، ولكنها تبقى عاطفية!). مرة أخرى أقدّم لكم اعتذاري الذي أخشى أن يكون قد فقد معناه من كثرته، وسأكمل لكم سرد أحداث قصّة طارق مع رباب.

استطاع نايف أن يأتي لصديقه بما كان يبحث عنه... سرّ انقلاب رباب المفاجئ نحوه؛ إذ أخبرته داليا عن معرفة «طنط سميحة» بالعلاقة التي أخذت

تنشأ بين ابنتها وطارق، وعلى الفور أمرتها بإنهائها، دون نقاش. ولأن رباب تربطها علاقة قوية جداً مع أمها، فقد رضخت لأمرها، ورأت أن الابتعاد عن طارق أهون عندها من إغضابها، وربما خسارة الرابط القوي، والعلاقة الخاصة الّتي تجمعهما... ولكنّ ما لم يستطع نايف معرفته من داليا، وبالتالي لم يدركه طارق حتّى هذه اللحظة من الحاضر، وفي غالب الأمر حتّى نهاية حياته، هو كيفية معرفة أم رباب بأمر تلك العلاقة الناشئة بينه وبين رباب. وكسبيل للاعتذار منكم يا أعزائي عمّا بدر منّي مؤخراً من ترهات أزعجتكم، سوف أخبركم بما يجهله طارق. هل تذكرون «حسن»؟ نعم، حسن... أحد أعضاء الشلّة، وجار رباب الذي أخبرتكم من قبل عن العاطفة الّتي يكنّها لجارته الجميلة؛ فلم تكن تلك الملحوظة جملة اعتراضية أردت بها فقط ملء سطور القصة كما يفعل بعض الرواة، ولكنّها كانت لغرض. لقد ملأتِ الغيرة قلب حسن، حيث شعر بفطنة العاشق المحروم بأن معشوقته تميل لغيره، وهذا أثار جنونه! فكيف يمكن لهذا الفتى السعودي الذي حضر تواً من بلاده إلى القاهرة من أجل قضاء عطلة الصيف أن يظفر بقلب رباب على هذا النحو السريع؟! كيف تمكن ذلك الخليجي البدوي (وهذا وصف حسن، وليس وصفي أنا) في شهر ونصف أن يفعل ما لم يتمكن هو من فعله عبر خمسة عشر عامًا، وأكثر؟! نعم يا أعزائي، الغيرة عندما تمتزج بالحقد تجعل صاحبها على أتم الاستعداد لفعل أسخف الأفاعيل... قرّر حسن أن يراقب تحركات رباب من بعيد، ليرى ما سوف يسفر عنه أمرها مع طارق. وفي ذلك اليوم الموعود الّذي صارح فيه العاشق السعودي معشوقته المصرية، كان هناك

طرف ثالث يستمع خلسة إلى كل ما دار من نقاش بينهما؛ وما زاده ما سمعه إلّا غضباً وحنقاً، و... لا داعي للإطالة، أظنكم قد عرفتم القصد...

ذهب حسن على الفور، وأخبر «طنط سميحة» بما سمعه، فكان ما كان من نهاية قصة حب (أو عشق، فهذه مسألةٌ محلّ خلاف) طارق الأول.

لا أذيع سرًّا إن أخبرتكم بأن بطل قصتنا هذه ظلّ شهوراً يعاني من أثر ما حدث له في صيف سنة 1989. كان ونيسه في تلك الأيام العصيبة البيانو الذي ظلّ يعزف عليه مقطوعة بيتهوڤن الشهيرة: سوناتا ضوء القمر؛ ومن حين لآخر يعيد مشاهدة فيلم «الوسادة الخالية»، وأغنية «تخونوه» الّتي غنّاها عبد الحليم حافظ في ذلك الفيلم بكل اقتدار، بعد أن تركته لبنى عبد العزيز من أجل الزواج من عمر الحريري.

وبهذه الكلمات الحزينة يا أعزائي أكون قد أفصحتُ لكم عمّا حاول طارق إخفاءه عنكم من تفاصيل قصّته مع رباب. وكما وعدتكم من قبل، أنتقل بكم إلى قصّته مع منال...

***

لعلكم تندهشون إن أخبرتكم بأنّ أحداث القصة الثانية جرت بعد أشهر قليلة من انقضاء أحداث القصة الأولى. ولعل الدهشة تزداد إذا علمتم بأنّ «نايف» كان أيضاً همزة الوصل بين طارق ومنال، وأنّ التعارف تمّ في عطلة دراسية، ولكنّها هذه المرة عطلة منتصف العام من السنة الجديدة... 1990. (لعلّ

البعض منكم قد لاحظ أنّها هي ذاتها العطلة الّتي كان من المفترض أن يخطب فيها طارق رباب... صدفة عجيبة!!)

لست معنياً الآن بأن أبيّن لكم إن كانت هذه مجرد مصادفة غريبة من مصادفات الحياة، أو أن هناك معنى كونياً دفيناً يكمن وراء الحدث؛ فهذه مسألة أتركها لكم ولقناعاتكم الشخصية الّتي من الصعب أن أبدّلها لكم مهما حاولت ذلك. يكفيني فقط إخباركم بأنّ أحداث قصتنا الثانية وقعت في جدّة. ففي ليلة خميس من شهر يناير، تفاجأ طارق باتصال من صديقه، يخبره فيه بأنه قد قدم من القاهرة ليقضي عطلة منتصف العام الدراسي مع أهله، ثم دعاه إلى حفل بسيط على العشاء في اليوم التالي رتّبته أمه بمناسبة قدومه... ونعم يا أعزائي، إنّه حفل مختلط بين أسر منفتحة على بعضها، تربطها علاقة صداقة قديمة؛ فلا يجد أفرادها أي حرج في الاختلاط، بل يرونه سُنّة من سنن الحياة، وهم على هذا الحال قائمون. فهم متصالحون مع أنفسهم، وغير آبهين برأي المحافظين من المجتمع الذين يُحرِّمون الاختلاط. وإنّني أعلم جيداً بأنّ هذا الأمر قد يزعج البعض منكم الّذين يظنون وهماً بأنّ المجتمع السعودي كله محافظ، ولا توجد فيه أطياف مختلفة كباقي المجتمعات، ولكنّني كما قلتُ لكم من قبل، غير معني بتغيير قناعاتكم، ولكنّني فقط أنقل لكم ما دار من أحداث حاول البعض إخفاءها عنكم، عن عمد أو غير عمد.

والآن، فلنكمل القصة...

حضر طارق على مضض إلى منزل عائلة نايف. فلولا اشتياقه لرؤية صديقه العزيز لاعتذر عن المجيء، وآثر البقاء بمفرده مع نغمات البيانو، وأفلام عبد الحليم حافظ، ولكنّه لم يرغب في مضايقة صديق طفولته الذي لم يرَه منذ نهاية عطلة الصيف... سلّم على «خالة وجدان» والدة نايف، وعلى «عم سليمان» أبيه، ثم انتقل إلى الحديقة الخلفية حيث كان الشباب والشابّات يتواجدون. سلّم على البعض الذين يعرفهم من كلا الجنسين، دون أن يظهر أدنى اهتمام في التسامر معهم، ثم انتقل إلى جانب منزوٍ من الحديقة، بعيداً عن الأنظار...

وهنا يجب عليّ أن ألفت أنظاركم إلى أن «طارق» لم يكن يعاني من حالة اكتئاب جعلته يتفادى التفاعل مع أقرانه، ولكن الجو العام في تلك اللحظات، مع وجود نايف، ذكّره بالصيف الماضي، وأحداثه المؤلمة. وبطبيعة الحال، هذا لا يعني أنّه كان يلوم صديقه على ما جرى، أو يُحَمِّله مسؤولية آلامه، ولكنّ الأمر بكل بساطة أنّه دون شعور، وعن غير عمد، كان يربط بينه وبين تلك الآلام بحكم أنّه هو من عرّفه على رباب. ففي قرارة نفسه، هو مدرك أنّ «نايف» غير مسؤول عن فشل علاقته مع معشوقته، ولكنّ عقله الباطن لم يعفِه من مسؤولية تعريفه على الفتاة الّتي تسببت في جرحه العميق الّذي لم يندمل حتّى تلك اللحظة... نعم يا أصدقائي الأعزاء، فالعقل البشري يعمل وفق آليات عجيبة تكاد تكون عصيّة عن الفهم، وهو ما ألْهَم الكثيرين من الرواة أمثالي من أجل محاولة فهمه وشرحه. (دون جدوى على ما يبدو!)

لكنّ حالة الانزواء هذه لم تدم طويلاً. فكل ما كان طارق بحاجة إليه، ولم يصادفه حتّى تلك اللّحظة من يوم الخميس، هو المحفّز المناسب...

– «يبدو أن الصخب لا يستهويك مثلي».

فاجأه صوتها الهادئ القادم من خلفه، فالتفت مجاملة لكي يجيبها أية إجابة مصطنعة، قبل أن يستأذنها ويذهب إلى ركن آخر من الحديقة الفسيحة، حتّى ينفرد مع نفسه من جديد، ولكن...

– «ماذا؟ أقصد... الصخب؟».

تلعثمت الكلمات وهي تخرج من فيه، وكأنّه عاد طفلاً حديث العهد بالكلام.

– «صحيح أنّ «نايف» ابن خالتي، ولكنّ ذوقه في الأغاني يجعلني في بعض الأحيان أرغب في التَبَرُّؤ منه!».

ظلّ طارق لوهلة مشدوهاً أمام هذه الفتاة السمراء الجريئة، بملامحها الهادئة الجميلة. كانت تتحدث معه بأريحية، دون تكليف، وكأنّها تعرفه من قبل.

– «أأنتِ ابنة خالة نايف؟ ولكنّني لا أذكر أننا التقينا من قبل».

– «بل التقينا منذ خمسة عشر عاماً في أمريكا. أنا الّتي دفعتها في المسبح، وكادت تغرق بسببك».

وكأنّها أزاحت بجملتها تلك سدّاً، فتدفق سيل الذكريات... تذكر طارق تلك الرحلة مع والديه عندما كان طفلاً، ودعوة زوج خالة نايف الذي يعمل في السفارة السعودية بواشنطن العاصمة لهم إلى منزله الأنيق، وابنته البدينة المتغطرسة الّتي لم تكن تتحدث سوى باللغة الإنكليزية... دفعها في المسبح في لحظة غضب من «رزالتها»، ثم سرعان ما قفز خلفها حتّى ينقذها عندما شعر

بفظيعة فعلته، فكادا يغرقان لولا وجود الحارس بالقرب... ولكن، هذه الفتاة التي تقف أمامه الآن تبدو شيئاً مختلفاً تماماً!

– «منال؟!».

– «ولو أن الرجال لديهم قدرة عجيبة على نسيان ما لا يروق لهم من أحداث سابقة، إلّا أنّني كنت على ثقة بأنك ستتذكر».

لم تكن في حديثها أية نبرة عتاب، بل كان أشبه بالمداعبة الّتي تهدف إلى كسر الحواجز.

– «كيف حالك يا طارق؟ سمعت من نايف بأنك ما شاء الله في كليّة الطب».

– «صحيح، في السنة الرابعة الآن. ماذا عنك أنتِ؟ هل ما زلتِ في أمريكا؟».

– «لا، عدنا منذ سنوات إلى الرياض».

– «الرياض؟».

– «نعم الرياض، حيث توجد وزارة الخارجية، مقر عمل بابا».

– «صحيح... آسف».

شعر طارق بالحرج من «ربكته» الجَلِية، وكأنها أول مرة يتحدث فيها مع فتاة جذّابة!

– «على هذا، أنتِ في جامعة الملك سعود؟».

– «نعم، في السنة الثالثة من كليّة الحاسب الآلي».

لعلّي أكتفي بما سردته لهذا الجانب من الحديث الذي دار بين طارق ومنال... أظنّ أنّكم بفراستكم بدأتم تتصورون كيف أخذت العلاقة تنشأ بينهما؛ ولو أنّني أعلم جيداً أنّ بعضكم قد لا يمتلك تلك الفراسة الّتي تتيح له فهم مثل هذه الأمور. وأنا هنا لا ألومكم على الإطلاق، بل أشفق عليكم لأنكم نتاج مجتمع جاف لا يقيم وزناً للمشاعر الإنسانية الّتي قد تنشأ بين الرجل والمرأة تحت أي ظرف كان؛ وإنّني لأكاد أجزم بأن بعضكم الآن على وشك اتهامي بنشر الرذيلة والفجور، وإفساد المجتمع الطاهر الطهور! لكن، لا بأس. فإن كان هذا الأمر سَيُشعر تلك الفئة المطحونة والمغلوبة على أمرها بشيء من القيمة، والاعتداد بالذّات المنغلقة، فإنّ هذا لمن دواعي سروري؛ لأن غرضي في نهاية المطاف هو إمتاعكم... أليس كذلك؟

(لا أدري كم من القرّاء الذين بدأوا بقراءة هذه القصة ما زالوا معي يواصلون القراءة حتى الآن؟ ولكنّني سأستمر في السرد من أجلكم، حتّى وإن أصبح عددكم قليلاً؛ فأنا معكم إلى النهاية، ولو كره الكارهون!)

***

سؤال... أي الأمرين بمقدوره أن يطغى على الآخر: لذّة العشق، أم ألم الفراق؟ مع العلم أنّني هنا لا أتحدث عن الفراق المؤقت الّذي يزيد من لهيب الاشتياق، بل الفراق الدائم الّذي لا يتبعه لقاء؛ ذلك الذي يأتي بعد نهاية غير متوقعة لعشق غامر... لعلّ في كنه هذا السؤال كانت تكمن حيرة طارق بعد لقائه المفاجئ مع منال. لم يستطع النوم في تلك الليلة، وظلّ يفكر في الحديث الذي دار

بينهما؛ لا في محتواه، بل في ذلك الإحساس الذي انتابه أثناء التحدث معها، وأثناء التواجد بجوارها، وسماعه صوتها المشع بالثقة في النفس والحنان في الوقت ذاته. لم يكن جمالها الّذي لفت انتباهه– وإن كانت تمتلك قدراً وفيراً منه– بل حضورها الملفت الناجم عن شخصية شديدة الذكاء، ودقيقة الملاحظة، وفي غاية الشجاعة؛ تُقدِم على أي فعل هي على قناعة به، حتى وإن خالفت به رأي الآخرين... كل تلك الجوانب من شخصيتها استطاع طارق أن يتلمسها من ذلك اللقاء الذي دام نحو ساعة أو أكثر بقليل، ممّا هاله، خاصة وأنّه لم يكن يبحث عن تجربة جديدة وهو في عزّ آلامه... لكنّ ما لم يكن طارق يعلمه حينها أنّه لا شيء يُنسي عشقاً قديماً مثل عشق جديد.

***

دقّ هاتف منزل طارق في اليوم التالي للحفل. كان نايف يبحث عن صديقه الذي لم يتهنَّ به في الليلة السابقة لانشغاله مع باقي الحضور. ظهر مباشِراً في طلبه، ودون مواربة أراد منه أن يمّر عليه، ولكنّ ما أدهش طارق هو الحجّة الّتي استخدمها...

– «منال هنا مع أختها نوال، وترغب في لعب البلوت. نحن ثلاثة، ونريدك رابعاً لنا. لقد طلبتك بالاسم».

اندهش طارق من جرأة منال! طلبته من نايف بالاسم، ودون أدنى حرج... «جريئة مثل ابن خالتها!»، والأكثر إثارة للدهشة أنّه لم يرغب في رفض طلبها؛ بل

ولم يحاول بذل أدنى مقاومة. وعلى الفور، وافق على أن يذهب إلى منزل صديقه؛ بالرغم من كونه لا يحب لعب الورق، وعلى الأخص البلوت!

كان هذا اللقاء الثاني بين طارق ومنال أيضاً في منزل نايف. وكما توقّع، كان البلوت مجرد حجة لكي تلقاه قبل أن ترجع إلى الرياض مساء ذلك اليوم. كانت منال قد شعرت بميل شديد نحوه بعد لقاء الليلة السابقة، وعندما علمت من نايف الظرف النفسي الذي كان يمر به طارق، رغبت في اتخاذ المبادرة، وترتيب لقاء ثانٍ من أجل التأكد من مشاعرها نحوه، وكذلك إن كان هو على استعداد لكي يخوض تجربة جديدة قد تكلّل بالزواج إن نجحت.

وهنا يا أصدقائي الأعزاء يجب أن أتوقف قليلاً، مرة أخرى، لكي أشرح لبعضكم مسألة قد تبدو غريبة بعض الشيء، ألا وهي جرأة منال، تلك الفتاة السعودية! نعم، سوف يتّهمني البعض بأنّني أحاول تشويه سمعة الفتيات السعوديات، وأظهرهن وكأنّهن باحثات عن العلاقات الغرامية مع الشباب. ومرّة أخرى، سوف تنطلق نحوي الاتهامات بمحاولة نشر الرذيلة، والدعوة إلى الفسق، إلخ، إلخ... وهنا يجب أن أذكّركم للمرة الـ (نسيت، كم هو عدد المرّات التي ذكرتكم فيها؟ لا علينا...) بأنّني مجرد ناقل للأخبار، ولست صانعاً لها. كما أن سلوك الفرد ليس بالضرورة انعكاساً لسلوك المجتمع كله. (هل ارتحتم الآن بعد هذه الديباجة المبتذلة؟) لكنّ هناك أمراً لا بد أن تفهموه جيّداً، وهو أنّ ما قامت منال بفعله ليس منطلقه رغبة في التعرف على أي شاب من أجل التسلية وتمضية الوقت، ولكنّ منبعه قناعة شخصية بأنّ هناك استلطافاً متبادلاً شعرت هي به، وأرادت أن تعلم إن كان بإمكان هذا الاستلطاف أن يتحول إلى علاقة

أعمق... لعلّكم أدركتم الآن أنّ شخصية منال لا تقبل الزواج التقليدي الذي اعتاد بعضكم عليه. وأنا هنا لا أعيب الزواج التقليدي (لا أدري لماذا بتُّ أشعر وكأنّني أصبحتُ كثير التبرير لنفسي؟!). لذلك، عندما شعرتْ بعاطفة غريبة نحو طارق، لم تشعر بمثلها من قبل تجاه أي شاب، لم ترغب في إضاعتها خشية ألّا تجدها مرة أخرى. كانت تفضّل، لا شك، أن يكون طارق هو المبادر، كما هي عادة الشباب، وأن يحرص هو على لقائها؛ خاصة وأن هناك شخصاً بينهما قد يسهل عليه تلك المهمّة (نايف)، ولكنّها قدّرت الظروف الّتي كان يمرّ بها بعد فشل قصّته مع رباب، والتمست له العذر، فقرّرت أن تتّخذ هي زمام المبادرة. (لعلّي لا أذيع سرًّا إن أخبرتكم بأنّني معجب جداً بشخصية منال. لَكَم أغبط طارق أيوب هذا! صدق من قال: يُعطي الحلق لمن ليس له أذنان!)

***

تبادلا أرقام الهاتف، ووعدته باتصال في أول فرصة تتسنى لها، وقد جاءت تلك الفرصة في اليوم التالي من عودتها إلى الرياض؛ حيث تمكنت من اختلاس نصف ساعة بعد تأكدها من نوم جميع من في الدار. كانت هذه أول مرة تتحدث فيها منال خلسة مع شاب، بل كانت أول علاقة لها. حرصت على أن يدرك طارق ذلك منها، وكذلك من ابن خالتها نايف الذي صارحته بميلها الشديد نحو صديق طفولته.

كان طارق في غاية الصراحة مع منال بعد أن شعر براحة كبيرة في التحدث معها، فحرص على أن يقصّ عليها التفاصيل الّتي لم تكن تعرفها عن علاقته

برباب. لم تحاول استدراجه في الحديث، أو تشعره برغبتها في معرفة ما لم يرغب هو في قصّه، بل جعلته يتكلم على راحته دون أي ضغط منها. كلّما أراد التحدث عن أمور تخصّه، حرصت على أن تكون خير مستمعة. وعندما لم تكن لديه رغبة في الحديث تركته وشأنه. باتت مشاعره نحوها تترسخ مع كلّ مكالمة، حتّى تأكد من حبه لها بعد شهر واحد من المكالمات المتبادلة؛ فأصبحت تلك المكالمات ركيزة أساسية في حياته لا يمكن الاستغناء عنها، وبات مشتاقاً لرؤيتها؛ حتّى لم تعد المكالمات الهاتفية تروي حنينه.

– «إن لم تأتي إلى جدة، فسآتيكِ أنا إلى الرياض!».

– «يا مجنون! أنت بحاجة إلى تعلم الصبر».

– «وحشتِني يا منال. أكثر من شهر الآن منذ أن رأيتك!»

– «أنت أكثر والله يا قلبي. لو كان الأمر بيدي لأتيتك الآن».

– «ألم تشتَق أمك لرؤية أختها في جدّة؟!».

ضحكت منال لسؤال طارق، وقد شعرت بسعادة عارمة تعتريها وهي تشعر بكم اللّهفة المتجلية في نبرة صوت حبيبها الولهان، المشتاق لرؤيتها.

– «أكيد تود ماما الذهاب إلى جدّة. ولكن يا حياتي، لا تنسَ أن لديها مشاغلها هنا في الرياض».

ولكنّ صبر طارق قد نفد بعد الشهر الثاني؛ إذ لم يتحمل كل هذا البعد عن منال، فقام بزيارة خاطفة إلى الرياض، وأصرّ على لقائها ولو لدقائق. وافقته

منال، بالرغم من محدودية الأماكن التي يمكن أن تلتقيه فيها دون أن يراها أحد يعرفها، أو تلتقطهما إحدى دوريات هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... اقترحت عليه أن يقابلها في ساحة الكندي بحي السفارات، حيث لا توجد الهيئة هناك على الأقل. ستذهب إلى المكان مع إحدى صديقاتها المقربات، حتّى إن رآهما أحد يعرفها يمكنها التحجج بأنها كانت مع صديقتها، ورأت «طارق» صدفة هناك.

كان لقاءً مليئاً بالشغف، وإن لم يدم طويلاً؛ روى فيه طارق سهده وأنينه. كان المكان مزدحماً، فلم يلفتا انتباه أحد، كما لم يكن هناك شخص يعرفهما. استطاع أن يلمس يدها لأول مرة، فكان وقع ذلك عليه أجمل من الجنس! لم يشعر بدفء قط كتلك اللحظة الّتي تشابكت فيها أصابعهما، وهما يسيران جنباً إلى جنب، وكأن الفراغات الّتي بين أنامله كانت تنتظر بشوق حتى تملأها أناملها.

أهدته شريط كاسيت، وطلبت منه أن يستمع إلى الأغنية الّتي عليه فور عودته إلى جدّة...

– «لا يوجد أحد يعبّر عن العشق مثل أم كلثوم... إن شاء الله يعجبك ذوقي».

– «أكيد حَيِعجبني».

أجابها بالرغم من كونه ليس من عشّاق أم كلثوم، ولم يستمع لأغلب أغانيها؛ لكنّه من أجلها كان على أتم الاستعداد لكي يجرّب مرّة أخرى الاستماع إلى «الست».

***

أمل حياتي يا حب غالي ما ينتهيش

يا أحلى غنوه سمعها قلبي ولا تتنسيش

خد عمري كله بس النهارده خليني اعيش

خليني جنبك، خليني في حضن قلبك خليني

وسيبني أحلم سيبني، ياريت زماني ما يصحنيش

لم يستمتع قط بأغنية كما استمتع بسماع أغنية «أمل حياتي» التي أهدته إيّاها منال؛ بل بات مقتنعاً منذ سماعه للمقطع الأول بما قالته له عن كون أم كلثوم أفضل من يعبّر عن العشق. ولكنّ جمال هذه الأغنية على وجه التحديد لم يكن نابعاً فقط من جمال صوت، وأداء أم كلثوم، ولكن كذلك من رقّة الكلمات الّتي ألّفها أحمد شفيق كامل، وقدرة اللّحن الّذي وضعه محمد عبد الوهاب على توصيل المعنى إلى المستمع. لم يتمالك طارق نفسه أثناء استماعه إلى المقطع الّذي جاء في منتصف الأغنية؛ فمن شدّة إعجابه به أعاده أكثر من مرّة...

وانت معايا يصعب عليا رمشة عنيّا ولا حتى ثانية

يصعب عليا ليغيب جمالك، ويغيب دلالك ولو شويّة

قد كده مشتاق إليك... قد كده ملهوف عليك

نفسي أنده لك بكلمه ما تقالتش لحد تاني

كلمه قد هواك ده كله... قد أشواقي وحناني

كلمة زيك واللّي زيّك فين؟ ده أنت زيّك ما اتخلقش اتنين

شعر طارق بسعادة كبيرة... بل شعر وكأنه أسعد إنسان في الوجود. كيف لا، وقد وجد منال بعد أشهر فقط من صدمة رباب؟! لأول مرّة بات يحمد ربّه لأنّ قصّته مع رباب انتهت على ما انتهت عليه؛ فمنال هي عشقه الحقيقي... هي توأم روحه! كيف كانت حياته ستكون لو التقاها وهو على علاقة مع رباب؟! كيف كانت الأمور ستؤول حينئذٍ؟!

ومع تراكم التأملات والتساؤلات، بدأت المخاوف تلوح في الأفق، وبات طارق يخشى ألّا تدوم سعادته لأيّ سبب كان؛ كأن يتقدّم لمنال عريس قبل أن يتمكن هو من التقدم إليها! أو أن يَصْدُر منه تصرف أحمق يغضبها، فيجعلها تقرّر الابتعاد عنه! أو أن يجف حبها له بسبب البعد!

وساوس أخذت تلح بنفسها عليه... وساوس جعلته دائم القلق من فقدان شيء لا يريد فقدانه أبداً!

***

تأخّرت في الاتصال به على غير عادتها... أول مرّة تفعلها... ثلاثة أشهر فقط على علاقتهما، وها هي تتأخر عليه في المكالمة! أخذ طارق يفكر، شاعراً بشيء من الغضب. ظلّ على هذا الحال إلى أن دقّ جرس الهاتف، فرفع السمّاعة على الفور، قبل أن يفعل ذلك شخص آخر غيره في المنزل...

– «ألو.» جاء صوتها على الطرف الآخر.

– «ما هذا يا منال؟! نصف ساعة، وأنا أنتظر اتصالك!».

– «آسفة، حياتي. ماما، وبابا توّاً خرجا من المنزل».

– «ولكنّك أخبرتني بأنّهما سيخرجان على الساعة الثامنة، ولذلك اتفقنا تكلميني على الثامنة والربع!».

– «والله فاهمة يا روحي، وأنا عن جد آسفة، ولكنهما تأخرا في الخروج، فماذا كان بوسعي أن أفعل؟».

– «لا أدري... ولكنّني لا أحب عدم الالتزام بالمواعيد!».

– «لا تضايق نفسك حياتي؛ سأعوّضك عن نصف الساعة هذه الّتي تأخرت فيها عليك. ثم أخبرني، كيف تتضايق وأنت تتحدث مع حبيبتك منال؟ ألا يفرحك سماع صوتي؟ ألا تشعر بالسعادة الآن؟»

– «بالطبع يفرحني سماع صوتك، ولكنّني... لكنّني لا أطيق الانتظار».

لعلّ غضب طارق لتأخر منال في الاتصال به أشعرها بمدى لهفته لسماع صوتها، وقدر حبّه لها. ولكنّ ما لم تدركه منال حينها هو أن هذا الغضب كان في واقع الأمر يخفي وراءه قلقاً عارماً ينتج عن وساوس تراود «طارق» بين الفينة والأخرى: بأن منال قد تنهي علاقتها به في أية لحظة لسبب ما، كما فعلت رباب من قبل! لهذا، عندما تأخرت في الاتصال به بدأ يشعر بالقلق، وأخذ يستعرض جميع الاحتمالات الّتي قد تؤدي إلى مثل هذا التأخير، ممّا زاده قلقاً على قلقه. وعندما كلّمته منال أخيراً، بدلاً من أن يشعر بالرّاحة وانحصار القلق، وجد نفسه

ينفجر غضباً، ويثور عليها عوضاً عن أن يثور على مشاعره السلبية غير المبرّرة. وبالرغم من كون هذه هي المرة الأولى الّتي تتأخر فيها منال عليه، إلّا أنّها لم تكن المرّة الأخيرة أيضاً لأسباب خارجة عن إرادتها... وهكذا، ظلّ طارق يثور، ثم سرعان ما يهدأ عندما تخفّف هي عليه، وتُطَيِّب خاطره، وتبدي له خالص أسفها عن أمر لم يكن لها حول فيه ولا قوّة.

***

ستّة شهور عدّت، بما تخللها من مكالمات هاتفية شبه يومية، مع قليل من المقابلات المتناثرة هنا وهناك عبر تلك الشهور الستة، ثم جاءت عطلة الصيف!

سافرت منال مع أمها وأختها نوال إلى لندن في بداية العطلة، فكانت تلك فرصة سانحة لطارق، بعد أن لحق بها إلى مدينة الضباب من أجل الالتقاء بها دون القلق من انكشاف أمرهما، أو الخوف من «جيمس» الهيئة أن يلتقطهما؛ فتناوب «الهايد پارك» مع «ريچينت پارك» على احتوائهما، دون أن تتمكن أي من الحديقتين على كبح جماح العاطفة الجيّاشة الّتي كانت تفيض بين الأشجار المتراصّة الّتي اتخذ العشاق تحت كل منها مقاماً ليُفَرّغوا كمّاً من الأشواق عبر الأحضان والقبلات.

يوماً بعد يوم، واللقاءات تتكرر، وما يتبعها من اللمسات وملحقاتها، حتّى باتت تلك اللقاءات من أمتع اللحظات الّتي يتوقان لها عند بزوغ شمس كل يوم جديد... إلى أن جاء ذلك اليوم المشهود؛ الثاني من شهر أغسطس من تلك السنة،

وتأخرت منال عن موعدها في ساحة پيكادلّي، حيث تواعدا على مشاهدة فيلم «چوست» لپاتريك سويزي ودِمي مور. ومرّة أخرى، شعر طارق بالغضب...

– «هل رأيتَ ما جرى؟!» سألته بحماسة ظاهرة، فور وصولها إلى المكان المتّفق عليه في ساحة پيكادلّي؛ أمام نافورة شافتسبيري التذكارية.

– «تأخرتِ عليّ يا منال، وأنتِ تعلمين جيّداً بأنّني لا أحب الانتظار!».

– «آسفة حياتي، ولكنّني لم أشعر بالوقت وأنا أشاهد أخبار غزو صدّام للكويت!».

– «حقّاً يا منال؟! أهذا هو عذرك: الأخبار؟!».

ردّ عليها طارق بغضب، دون أن يُبدي الاهتمام ذاته بما كان يحدث على الجانب الشرقي من جزيرة العرب.

– «طارق حبيبي! دولة عربية تغزو دولة عربية أخرى، وتشرّد شعبها! أليس هذا خبراً مفزعاً؟!».

– «المفزع هو لَطْعك لي كل هذه المدّة تحت الشمس، وكأنّني لا أسوى عندك شيئاً! طُز في العراق وفي الكويت، فهما لا يعنيان عندي أي شيء!!».

– «طارق! ماذا دهاك؟ قلت لك آسفة على التأخير؛ ثم كيف تشكّك في مكانتك عندي بعد كل الذي بيننا؟! هل تعتقد أنّني كنت سأخرج من وراء أهلي مع شخص لا يسوى عندي أي شيء؟!».

آثر طارق الصمت، وقد لاحظ نبرة غضب بدأت تجتاح حديث منال على غير عادة. استدار نحو النافورة، واكتفى بالنظر نحو تمثال كيوبيد، إله الرغبة والعشق، ماسكاً قوسه وكأنّه يحلق فوق النافورة ليختار ضحية جديدة يصيبها بسهمه... اقتربت منال من طارق واضعة ذراعها حول خصره، ثم مالت برأسها على كتفه.

– «حبيبي، أنا لن أتركك كما فعلت رباب؛ مهما كلّفني الأمر».

فاجأته عبارتها... لم يتوقّعها طارق. لوهلة، أراد أن يعلّق عليها، ولكنّه لم يعلم ماذا يقول. كأنها سبرت أغواره، وأدركت بحسّها المرهف ما كان يخفيه في أعماق نفسه من خوف وقلق! ثمّ بعد لحظة عابرة من التأمل والصمت، أخذها في حضنه وقال:

– «أحبك يا منال... أحبك كما لم أحب أي إنسان آخر من قبل في هذا العالم المجنون! أنت بحق توأم روحي!».

– «وأنت توأم روحي يا طارق!».

ثم تبادلا القبل أمام المارّة؛ وكأنّ في تلك اللّحظة الحميمة لم يكن هناك أحد في الوجود سواهما.

***

ولكن دوام الحال من المحال؛ فسرعان ما دبّ الخلاف مرّة أخرى بين العاشقين في صباح اليوم التالي؛ عندما اتصلت منال بطارق في الفندق لكي تعتذر عن لقائه في ذلك اليوم لسببٍ عَجِز عن فهمه، بل أصابه بالذهول!

– «أتودين المشاركة في مظاهرة؟!».

– «حياتي، هي ليست أية مظاهرة، بل هي من أجل مناصرة الشعب الكويتي الذي احْتُلَّ بلده من قبل صدّام الطاغية!».

– «ومال أهلنا نحن والكوايته؟! هل وافقتك أمك على هذا الجنون؟!».

– «نعم وافقت... الأمر في غاية البساطة يا طارق. لا أدري لماذا تجعل منه مشكلة؟! ما رأيك لو تأتي معي وتشارك في المظاهرة أمام سفارة العراق؟».

– «ولكنّنا اتفقنا على الذهاب اليوم لمشاهدة فيلم چوست، بعدما تأخرتِ عليّ البارحة وفاتتنا مشاهدته!».

– «حياتي، الفيلم سيبقى في السينما. نستطيع مشاهدته في أي يوم آخر، ولكن المظاهرة اليوم فقط».

– «طز في المظاهرة! لا أريدك أن تشاركي فيها!».

– «طارق! لا يعجبني أسلوبك هذا في التحدث معي! المشاركة في المظاهرة من أجل نصرة الشعب الكويتي عندي أهم من مشاهدة فيلم چوست!».

– «قصدك أهم من لقائي! لماذا لا تقولينها صراحة؟!».

– «طارق أنت منفعل، ولا أظن أن الحديث معك الآن سيكون مجدياً».

– «حسناً! مع السلامة!!».

وبهذا أنهى طارق المكالمة مع منال، وهو في حالة من الغضب تفوق مثيلاتها السابقة... فكيف تتجرأ منال وتلغي موعدها معه من أجل أي شيء مهما كان؟! ألا تشتاق لرؤيته كما يشتاق هو لرؤيتها؟! أتُفضِّل المشاركة في مظاهرة سخيفة لا طائل منها على أن تكون معه؟!! أفكار أخذت تجوب خاطره، وأسئلة تتكرّر ولا تكاد تفارقه وهو ينظر إلى الهاتف الذي أمامه، منتظراً سماع رنينه في أية لحظة ليعلن عن مكالمة اعتذار من منال... ولكن... الهاتف ظلّ صامتاً، وكأنّه غير موجود... منال لم تعاود الاتصال به في ذلك اليوم، وهو كذلك لم يحاول الاتصال بها؛ فكان لا بد من اتخاذ موقف حازم يبعث به رسالة لها تنمّ عن غضبه الشديد منها! لم يجد طارق سوى حل واحد... لمَّ أمتعته، ودون إخبارها غادر الفندق، وغادر لندن؛ بل غادر قارّة أوروبا كلها!

***

كأنه كان بحاجة لكي يَعْبر المحيط الأطلسي، أو بحر الظلمات؛ كما كان العرب يطلقون عليه قديماً، لكي يُبدي لها احتجاجه على ما فعلته... على عدم الانصياع له... على جعله يشعر بأنه ليس كل شيء في حياتها!

وجد في مدينة نيو يورك الملاذ الذي كان يبتغيه، بعيداً عن كل الذين يعرفهم؛ حتّى يختلي مع نفسه ويراجع حساباته... هل بالغ في ردة فعله؟ أخذ يتساءل وهو يجوب شارع برودواي؛ أوليس للعاشق حق على معشوقته بأن يكون

هو كل شيء في حياتها، وألّا يشاطره أي شيء اهتمامها؟ فهل تعتبر هذه أنانية منه؟ «بالتأكيد لا»، أخذ يقنع نفسه؛ فالعاشق مهما طلب من معشوقته، فهو لا يمارس إلّا حقه الذي شرَّعه له العشق! لو كانت منال تبادله الشعور ذاته، لعلمت من تلقاء نفسها كل هذا، وما تركته يغضب منها؛ ومن أجل ماذا؟! من أجل مظاهرة سخيفة لن تجدي أحداً نفعاً؟!

ظل طارق مع نفسه وتأمّلاته حتّى عاد إلى غرفته بالفندق من بعد تجواله. إشارة حمراء كانت تضيء الهاتف لتنبّهه إلى رسالة صوتية تركها له أحد...

– «طارق! ما الذي فعلته؟! لماذا سافرت هكذا فجأة من لندن دون أن تخبر منال؟! لا تتصور مدى قلقها عندما اتصلت بك في الفندق وأخبروها بأنك تركت المكان! اتصل بي فوراً. أنا في الشقة أنتظر مكالمتك».

لم يتفاجأ لسماع صوت نايف. فقد توقّع أن تتصل منال بابن خالتها عندما تدرك خطأ تصرفها؛ حتّى يصلح بينهما. استغرق الأمر أسبوعاً من الزمان، ولكنّها في نهاية الأمر رضخت بعدما حسَّت بغلطتها! الآن فقط، أخذ طارق يشعر بالارتياح. رفع سمّاعة الهاتف ليتصل على الشقة الّتي استضافته الصيف الماضي، والّتي شهدت مكالمة رباب المفاجئة الّتي أنهت قصّته معها...

– «هلا يا نايف».

– «أهلاً بالفتى الطائر. ما شغل الأطفال هذا؟! خلاف بسيط مع منال يجعلك تهج من لندن على هذا النحو؟!».

– «هل أخبرتك بما فعلته؟».

– «نعم أخبرتني. وبصراحة، لا أرى أنّها أخطأت في شيء».

– «طبعاً ستدافع عنها لأنها ابنة خالتك، وستحمّلني أنا الخطأ!».

– «يا طارق، يا حبيبي، أنت تعلم جيداً بأنك أقرب لي منها؛ وإن كانت ابنة خالتي! الموضوع لا علاقة له بمن فيكما أقرب إليّ، ولكنّني أقول لك رأيي بمنتهى الصراحة..».

– «يعني أنت موافق على..».

– «اسمعني يا طارق. منال ليست كأي فتاة أخرى. وأنا والله لا أقول هذا لأنّها قريبتي، ولكنْ فعلاً منال غير باقي الفتيات. منذ صغرها وهي مستقلّة برأيها. وعندما تكون مقتنعة بأمر ما فهي لا تتركه، وتسير فيه حتّى النهاية. أنا وأنت قد لا نهتم بما يجري في العراق أو الكويت أو أي مكان آخر بعيد عنّا، ولكن منال تهتم بمثل هذه المسائل، وترى أن من واجبها المشاركة في القضايا العادلة الّتي تؤمن بها. على الأقل من أجل إثبات الموقف. هذا لا يعني أنّك أقلّ أهميّة عندها، أو أنّها لا تحبك بالقدر الكافي الذي تريده أنت. كل ما في الأمر أنّها وجدت أن المظاهرة الّتي رغبت بالمشاركة فيها لن تتكرّر، ولن يجري شيء في الكون إن أجّلت لقاءها معك إلى يوم آخر».

– «معنى كلامك أنّها كانت شغوفة بالمظاهرة السخيفة تلك أكثر من رؤيتي! وأنا لا يمكن أن أقبل أن أكون في المرتبة الثانية!».

– «يا أخي، الموضوع ليس تنافساً بينك وبين المظاهرات! كبِّر عقلك، ولا تأخذ المسألة على هذا النحو! طارق، أنت أهم من أن تضع نفسك في محل مقارنة مع شيء كهذا. أنا أعرف منال جيداً، ولم أرَها في حياتي مهتمة بإنسان كاهتمامها بك أنت. الّذي بينك وبينها شيء جميل، صدّقني، يحسدك عليه كل الناس، فلا تُضَيِّعه من يدك بتصرفات أقل ما توصف بأنها سخيفة، وسخيفة جدّاً كمان! اسمعني. منال سوف تأتي إلى القاهرة بعد ثلاثة أيام لكي تقضي هنا بقية العطلة. تعال أنت الآخر. ستكون فرصة سانحة للمصالحة أثناء وجودي».

– «القاهرة؟!» ردّد طارق بنبرة لا تخلو من الاستنكار، مسترجعاً ما جرى له في الصيف الماضي.

– «نعم القاهرة، وهي فرصة كذلك لكي أصالحك على أم الدنيا بعد الذي جرى.» أجابه نايف ممازحاً حتّى يزيح عنه ما بدا من قلق له ما يُبَرِّره، ثم أكَّد عليه مرة أخرى :

– «خلاص، سوف أخبر منال بأنّ كل شيء على ما يرام، وأنّك مشتاق لرؤيتها في القاهرة. هيّا يا صديقي، استمتع بباقي الأيام التي لك في نيو يورك، دون أن تلعب بذيلك هناك! نراك قريباً؛ إلى اللقاء».

وعلى هذا النحو، ظنّ نايف أنه تمكن من إخماد نار الخلاف الّتي بدأت بين طارق ومنال في لندن، غير مدرك بأنه خفَّف فقط من لهيبها، لا أكثر!

***

لم تكن هناك حاجة للعتاب أو الملام. اكتفيا فقط بنظرة يملؤها الاشتياق قبل أن يتعانقا في ركن خالٍ من الناس، على إحدى شرفات فندق هلتون النيل، مختبئين بليلة قمرها لم يكتمل بعد بدراً. نوره خافت على خلاف كمّ الأشواق الّتي عبّرت عنها قبلات العاشقَين. لم تكن هناك حاجة للكلمات في تلك اللحظات الحميمة، بل لم يكن هناك وقت لها. فكيف يمكن للّسان والشفتين أن تنطق بحرف واحد، وهي مشغولة بما هو أهم؟!

نصف ساعة مضت قبل أن يأتي نايف، قاطعاً عنهما تلك الخلوة، لكي يخبر ابنة خالته بأنّ أمها قد وصلت إلى ردهة الفندق، وآن وقت الانصراف... افترق العاشقان على مضض، دون رغبة أي منهما، ولكن بعد أن اتّفقا على لقاء جديد في اليوم التالي، عند حديقة الأورمان.

***

لديّ خاطرة ملحّة... لِمَ لا أجعل لقصة طارق ومنال نهاية سعيدة؟ ما المانع؟ فلن أكون بذلك أول من يخادع الناس، ويُحَوِّر التاريخ من أجل ملاءمة رغبات العامّة الدهماء من الناس! هيّا، لا تحاولوا الإنكار! ففي قرارة أنفسكم، أنتم تتمنّون ألّا تكون نهاية قصّة هذين العاشقين تعيسة، أليس كذلك؟ تودّون أن تكون قصّتهما باعثة للأمل، حتّى تمنوا أنفسكم بقصّة رومانسية مماثلة، تنسيكم هموم حياتكم الرتيبة والخالية من أية بوادر للجمال! ولكن، لا... لن أكون مخادعاً لكم كما يفعل غيري، خاصة وأنّني عاهدتكم على الصدق منذ البداية. فيكفيكم كم الخداع الّذي يمارسه عليكم الآخرون، سواء أفعلوا ذلك بجهل

منكم أم بعلم! نعم، لن أخدعكم؛ وهذا ليس لأنّني لستُ إنساناً مخادعاً بطبعي، ولكن لشعوري بالشفقة عليكم من كم الخداع الذي تعيشونه بشكل يومي، حتّى باتت حياتكم أشبه بأكذوبة كبيرة متشابكة كتشابك خيوط بيت العنكبوت!

نعم يا أعزائي، لقد اقتربت قصة طارق ومنال من نهايتها. ولا أخفي عليكم بأنّني سوف أفتقد إلى التواصل المباشر معكم، عندما أعيد الدفّة مرة أخرى لأبطال قصّتنا الأساسيّة الّتي تَفرَّعنا عنها بسبب محاولة أحد هؤلاء إخفاء بعض الأمور عنكم، ظنّاً منه بأنّه ليس عليه رقيب!

***

تعددت اللقاءات، وإن لم تكن جميعها منفردة بينهما؛ فالبعض منها كان مع نوال، والبعض الآخر كان بوجود أصدقاء منال وأختها المقيمين بالقاهرة. لعلّ هذا الأمر ما كان ليُضايق طارق كثيراً لو أنّه انسجم مع أصدقاء حبيبته، ولكنّ الّذي حدث هو أنّه لم ينسجم. وما زاده حنقاً أنّ منال كانت في غاية الوئام والانسجام معهم! حاول مرة أن يبعدها عنهم، خاصة عندما أرادوا الذهاب ذات يوم لمشاهدة فيلم «كابوريا»، ولكن دون طائل. في مرّة أخرى، حاول أن يقنعها بالذهاب معه إلى دار الأوبرا لمشاهدة عرض للفرقة السيمفونية المصرية، ولكنّها آثرت الذهاب معهم إلى مسرحية «الواد سيِّد الشغال»، بحجة أنّها سبق ووعدتهم بالذهاب معهم، وقد تم شراء تذاكر المقاعد الأمامية منذ شهر... لم يقتنع طارق بهذا العذر، وإن بدا عذراً معقولاً بالنسبة لمنال...

– «أنتِ تفضلين أصحابك عليّ، وتُبَدّين رغباتهم على رغباتي!».

– «هذا غير صحيح، ولكنّك تريد كل شيء على حسب هواك، دون مراعاة للآخرين!».

– «ما الذي تقصدينه؟! أنا أناني؟!».

– «في بعض الأحيان أشعر أنّك أناني بالفعل! إن لم تسر الأمور كما تشاء تغضب، وإن لم أرضخ لطلباتك تثُرْ، وإن تأخرت عليك قليلاً لأمر خارج عن إرادتي تتّهمني بالتقصير! أنتَ لا تقدِّر كل ما فعلته من أجلك، وفقط تنظر إلى الأمور السلبية، وتُعَظِّم من شأنها! وفي كل مرّة، أنا الّتي أطَيِّب بخاطرك وأعتذر؛ مع العلم أنّني لم أخطئ في حقك قط! ولقد سئمت! حقّاً لقد سئمت!!»

بُهت طارق من ثورة منال عليه، خاصة وأنّه لم يعهدها منها من قبل... كأنّها تبالغ في تأنيبه، وتحمِّله اللّوم على كل شيء! شعر بالغبن، فكان لا بد له من أن يتّخذ موقفاً حازماً، حتّى لا تتكرّر مثل هذه الثورة عليه مرّة أخرى!

– «والله، إن كنتُ بهذا السوء كما تدّعين، وأتسبب لك في التعاسة، فأنا لا يخلّصني ذلك. ولأنّني أتمنى لك كل خير، فإنّني أحِلُّك من أي ارتباط بي. إن رغبت، فباستطاعتنا أن ننهي كل شيء الآن».

كان تهديداً أجوف منه، غير مقصود، أراد به فقط إبداء موقف ممّا تقوله، فتتراجع عن ثورتها العارمة ضدّه عندما تدرك بأنّها على وشك فقدانه؛ ولكنّ طارق كان على وشك أن يدرك أنّه أساء التقدير، وقد تجاوز الحدّ المسموح به!

– «حسناً.» أجابته منال، وقد بدأت عيناها تفيضان. في بادئ الأمر، ظنّ طارق أنّها تريد تهدئة الموقف، وربما الاعتذار منه، ولكنه سرعان ما أدرك حقيقة قصدها بعد جملتها التالية :

– «فلننهِ كل شيء».

– «ماذا؟!» لوهلة لم يفهم ما قالته. ظنّ أنّه ربمّا لم يسمعها جيداً... هل حقّاً قالت له إنّها لا تمانع إنهاء علاقتها به؟! مستحيل!!

– «يجب أن أعود إلى الفندق. سوف أطلب من نايف أن يأخذ منك جميع صوري الّتي أرسلتها إليك، والكروت، والرسائل الّتي كتبتها بخط يدي... رجاءً سَلِّمها له كاملة».

– «منال...» تلعثم طارق مصدوماً ممّا سمعه، غير مدرك بماذا يجيب عليها... مستحيل! منال ترغب في تركه؟! كيف وهي تعشقه؟! كيف وهو توأم روحها؟! لعلّها فقط ردة فعل عابرة، غير مقصودة... ربما إن حاول الاعتذار، وتطييب خاطرها...

– «منال... لا يجب أن نتسرع... أقصد في اتخاذ قرار قد... قد نندم عليه غداً، أشد الندم».

– «طارق، اسمعني جيداً... أنت محق. من الأفضل أن ننهي كل شيء الآن... حتّى نُبقي على ما تبقى من ذكريات جميلة بيننا... وحتّى... وحتّى لا ننفصل غداً وقد كرهنا بعضنا».

– «منال..».

– «لا تحسب أنّني لم أفكر مثلك في هذا الأمر من قبل، خاصة مع الخلافات الآخذة في الازدياد بيننا... لا أريد أن أكرهك يا طارق... حقّاً لا أريد!».

ثم تركته دون أن تنتظر منه ردّاً، واتجهت نحو بوّابة حديقة الأورمان دون أن تنظر خلفها، ولو لمرّة واحدة... وهنا أدرك طارق، واستوعب أخيراً، أنّ كل شيء قد انتهى مع منال.

***

وها قد أوفيت لكم يا أعزّائي بوعدي، وحكيت لكم ما حاول طارق إخفاءه عنكم من قصّته مع رباب ومنال: الفتاتين اللتين عشقهما– على حدّ زعمه– بخلاف كل من تعرّف عليهن سابقاً ولاحقاً. كما أزفّ لكم يا أصدقائي الأعزاء بشرى سارّة؛ إذ إنّني لن أستغل اليوم صفتي كراوٍ عليم، وأملي عليكم رأيي في ما حدث، بل سأترك الحكم لكم، وأعيد الدفّة من جديد لأبطال حكايتنا في الحاضر، مع إبقاء حقّي، طبعاً، في مقاطعتهم إن شعرت مجدّداً بأنّ أحدهم يحاول إخفاء شيء عنكم.

18

سلوى

يا له من يوم عصيب! لم أتصور أبداً أن أتلقّى اتصالًا من الدكتور طارق بعدما وصله ردّي عبر الدكتور أحمد! إصراره على مقابلتي أشعرني بالخجل. لم أعرف بماذا أردّ عليه، خاصة وأنّه زميل في المستشفى! فوافقت على مضض بأن يزورني في المكتب... حقّاً، لا أعلم ما الذي بإمكانه أن يقوله لي لكي يقنعني بالموافقة على مسألة محسومة عندي منذ زمن! أنا أتزوج من رجل متزوج؟! أكون زوجة ثانية؟!! مستحيل!!!

يا للرجال! كلّهم في الهم سواء؛ لا يقدرون على الوفاء لامرأة واحدة! كأنّ الخيانة محفورة في جيناتهم! لماذا لا يعيش الرجل وفيّاً لزوجته كما تعيش المرأة وفيّة لزوجها؟! غير الملتزم منهم بالدين يقيم علاقة آثمة مع ساقطة، والملتزم يفكِّر بالزواج من الثانية والثالثة والرابعة، ولو كان الشرع يسمح له بالزواج من خامسة لفعل!! آااه... أشعر في كثير من الأحيان بأن الحياة من غير الرجال أكثر راحة بكثير...

***

بدا عليه شيء من الخجل أثناء جلوسه أمامي. أخبرته على الفور، حتّى لا يكون هناك أي لبس في الأمر، بأنّه ليس من عادتي أن أوافق على مقابلة رجل

سبق أن تقدم لي ورفضته. ولكنّه اعتبر موافقتي على مقابلته استثناء يبعث الأمل! كان يجب أن أعتذر عن مقابلته... غلطة سوف أدفع ثمنها على ما يبدو!

حاولت أن أشرح له صعوبة المسألة بالنسبة لي وله كذلك، ولكنّه لم يمنحني أدنى فرصة، وبادر بالحديث عن مشاعره نحوي منذ أن رآني لأول مرة في سيب المستشفى، وكيف أنّه كان متعدد العلاقات، ولكنّه لم يعد يرغب في مثل هذا الأمر؛ إذ أصبح يبحث عن شيء أعمق، مثل الذي افتقده منذ زمن... أظن أنّ هذا الرجل يمرّ بفترة مراهقة متأخّرة! ماذا يحسبنا؟ مراهقَين في المدرسة أو الجامعة؟! حب من أول نظرة، وغرام، وهيام!! لكن... لكن إصراره ومحاولته الحثيثة معي جعلاني... جعلاني أشعر بالشفقة عليه. الحق يقال، وهو أنّني تلمست الصدق في عينيه؛ كما أنّه كان يخاطبني بكل احترام، ولم يتجاوز حدوده معي على الإطلاق. لعلّه صادق في مشاعره نحوي، أو على الأقل يتوهم ذلك؛ أو ربما يمرّ بمأزق في حياته مع زوجته جعله يرغب في الارتباط بغيرها. ولكن، إن كان الأمر كذلك، فلمَ لا يطلقها حتّى يرتاح؟ ولو أن الطلاق أمر صعب على الأطفال، ولكنه في بعض الأحيان يكون الحل الأمثل عندما يصل الحدّ بين الزوجين إلى مداه... على أيّة حال، هذه مسألة تخصّه وحده، ولا شأن لي بها.

– «أشكرك على صراحتك... في الحقيقة، أنا لا أعلم ماذا أقول! أنت فاجأتني بمشاعرك الرقيقة... لا أعلم إن كنت أستحق كل هذا... ولكن... تبقى مسألة زواجك... لا أريد أن أكون خرّابة بيوت».

حاولت أن أعتذر له بشكل رقيق، ولكنه كان مصرّاً.

– «لن تكوني كذلك على الإطلاق».

– «كيف؟ أنتَ متزوج ولديك أبناء».

– «أعلم، ولكن كل شيء يمكن إيجاد حل له إن كان الدافع قويّاً. في رأيي، السؤال الأهم هو: هل انجذابي نحوك يحمل في طيّاته معنى عميقاً؟ وهل تشعرين أنت بالأمر ذاته؟».

بماذا أجيبه؟! لا طبعاً، لا أشعر نحوه بأي انجذاب لأنه رجل متزوج! الأمر بالنسبة لي محسوم! لماذا لا يريد أن يفهم؟!!

– «أنت رجل ناجح، وتبدو لطيفاً، ولكنّك متزوج... هذا الأمر الأخير من المفترض أن يجعلني أحسم أمري منك، ولكن..».

– «ولكنّ شيئاً ما يمنعكِ من الرفض، أليس كذلك؟».

مرة أخرى قاطعني، دون أن يمنحني فرصة للرد عليه، بل حتى إنه يُؤوّل كلامي على غير معناه!

– «لا أعلم.» لا أعلم كيف خرج منّي هذا الرد العجيب!

– «دعينا نتعرف على بعض. لا أطلب منك إجابة صريحة الآن على الارتباط بي، ولكن دعينا نلتقي على الغداء مثلاً. وإن كان يناسبك، لعلّنا كذلك نتحدث على الهاتف. أعطي لنفسك فرصة حتّى تتعرفي عليّ أكثر، وأنا كذلك حتّى أتعرف عليك أكثر. مثل هذه الأمور لا ينبغي لها الاستعجال».

– «ولكن، ما فائدة كل هذا إن كنت أعلم نفسي جيداً؟ فكرة التعدد لا تروق لي على الإطلاق، كما أنّني لن أقبل أبداً أن تُطلّق زوجتك من أجلي».

حاولت جاهدة أن أوضح له فداحة الأمر الذي يطلبه منّي، ولكن دون جدوى... لقد أرهقني حتّى بتّ لا أعلم بماذا أجيبه. لم أرَ في حياتي إصراراً لهذا الحد، وكأنّني آخر امرأة في الوجود! لماذا لا يبحث عن امرأة أخرى لكي يتزوجها ويتركني وشأني؟! لكنّ الذي كنت أخشاه حصل... طلب منّي أن أفكر في ما قاله، ثم طلب لقاءً آخر على الغداء غداً حتّى نكمل حديثنا! المشكلة أنّني وافقت على طلبه دون أن أعرف كيف؟! أظنّني شعرت بالإرهاق، وأردت أن أنهي الحديث معه بأي شكل... لكن حتماً عندما ألقاه في المرّة القادمة يجب أن أحسم الأمر، وأقولها له صراحة: «لا! لن أتزوجك أبداً!!».

***

أنا بحاجة ملحّة للاسترخاء... بحاجة لتصفية ذهني... من حسن الحظ أنّ الحلّ متوفر، وفي متناول اليد: «السبا»! سأتّصل الآن وأحجز لنفسي موعداً بعد العشاء. لكم أشتاق للتدليك بالحجر الساخن! ثم أتبعه بعلاج للبشرة! إنّها من متع الحياة القليلة المتوفرة للمرأة هنا في الرياض.

أخْرِجُ هاتفي الجوال من حقيبتي الّتي وضعتها فوق الطاولة لأرى من الذي يتّصل عليّ الآن... لا أحب المكالمات الّتي تأتيني في مثل هذا الوقت، فور دخولي إلى المنزل من بعد الدوام... هذا سلمان.

– «هلا حبيبي».

– «ماما، أحتاج مساعدتك».

– «خيراً حبيبي».

– «عندي اختبار دين غداً، وبحاجة لأحد لكي يساعدني في المراجعة».

– «أين إخوتك؟ لماذا لا تطلب من أحدهم المساعدة؟».

– «طلبت، لكن كلهم مشغولون... ماما پليز ممكن تذاكري لي أنت؟».

– «ماذا عن بابتك؟».

– «قال لي أكلمك. ممكن آتيك بعد ساعة، على صلاةالعشاء».

ذلك الوغد! يأخذ الأولاد منّي، ولا يريد تحمّل مسؤوليتهم!

– «مهلاً حبيبي. دعني أولاً أكلّم بابتك، وإن شاء الله ما يصير إلّا الخير».

لا بد أن أضع حدّاً لهذه المهزلة! إما أنّه يأخذ باله من الأولاد، ويتحمل مسؤولياتهم كافة، بما فيها المذاكرة، أو يسمح لهم بالعيش معي! ولكنّ هذه الازدواجية في التعامل لا تصلح! الوغد يستخدمهم «كرتاً» للضغط عليّ حتّى لا أتزوج، وهو يعلم جيداً أنّه لا يقدر على تربيتهم والاهتمام بهم!

أضغط على رقم جوّاله المسجّل عندي تحت اسم: «غلطة عمري».

– «نعم.» يأتيني صوته البغيض من الجانب الآخر.

– «سلمان كلمني قبل قليل. لديه اختبار في مادة الدين غداً، وبحاجة لمن يساعده».

– «أعلم. لقد أخبرني، وسمحت له بالمجيء إليك، والبقاء حتّى الساعة الثامنة».

– «ولماذا لا تساعده أنت؟ ألست أباه، وهو الآن معك في بيتك؟!».

– «أنا مشغول الآن. لا أستطيع».

– «وأنا كذلك مشغولة، ومشغولة جدّاً كمان!».

– «خلاص. إن كنت مشغولة، إذاً يدرس بمفرده. هو الآن في الصف السادس، ولم يعد طفلاً صغيراً».

منتهى عدم المبالاة، ولا كأنّه ابنه!

– «لو لم يكن سلمان بحاجة للمساعدة لما طلبها! مادّة الدين هي الأكثر صعوبة عنده، أم أنك لا تعلم؟!».

– «سلوى، تراني مشغول، وليس لدي وقت للمهاترات! إن كنت ترغبين في المراجعة معه يأتيك الآن، ويبقى معك كما قلت حتّى الساعة الثامنة. وإن كنتِ لا ترغبين، فهذا شأنك. أنا لا أفرض عليك شيئاً!».

لا تفرض عليّ شيئاً؟! يا لها من نكتة الموسم!!

– «حسناً يا سعود! حسناً! سوف ألغي جميع ترتيباتي الليلة لكي أساعد ابنك في المراجعة للاختبار!».

– «هو ابنك أنت كذلك، أم أنك نسيت؟».

– «مع السلامة!!».

لا يوجد أحد في هذا الكون يستطيع نرفزتي كما يفعل هذا الوغد! كانت أكبر غلطة في حياتي عندما تزوجته!!

***

– «هيّا سلمان حبيبي؛ اذكر لي مرّة أخرى نواقض الإسلام، ولكن دون خطأ».

– «الشرك في عبادة الله... السحر... معاونة المشركين على المسلمين... من اعتقد أن غير هدي النبي أكمل من هديه... الإعراض عن دين الله، مثل الاعتقاد بأن الأرض تدور حول الشمس».

– «ماذا؟! سلمان حبيبي من أين أتيت بهذا الكلام الفارغ؟! هذا ليس في المنهج».

– «الأستاذ إبراهيم معلم الدين... قال لنا إنّه لا يجوز القول إنّ الأرض تدور حول الشمس، لأنّه يخالف القرآن. الشمس هي الّتي تدور حول الأرض».

– «حبيبي هذا هراء... لا توجد في القرآن آية تقول بدوران الشمس حول الأرض».

يا إلهي! ما هذا الذي يتعلمه الولد في المدرسة؟! المصيبة أنّه في أغلى مدرسة خاصّة في الرياض، ويَدْرُس في مسارها الدولي!!

– «يعني الأستاذ إبراهيم يكذب علينا؟».

- «لا حبيبي، هو لم يكذب، بل أخطأ... هو غلطان».
- «لكن ماما، كيف يكون أستاذاً ويخطئ؟».
- «حبيبي، كل إنسان قابل لأن يخطئ، وكذلك الأستاذ إبراهيم».
- «إذاً، كيف أعرف أنّه لم يخطئ في أشياء أخرى قالها لنا في الدرس؟».

لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم! لا أعلم من أين خرج لي هذا الأستاذ إبراهيم هو الآخر؟!! كأنّني ناقصة!!!

19

سعود

لا أعلم كيف استحملت الحياة معها طيلة سنوات زواجنا! لا شيء يعجبها، فهي دائمة التذمّر، وتعتقد أن الجميع يجب أن يكونوا رهن أمرها! حتّى الآن، بعد الطلاق، تريد أن تُمَشّي حياتي على حسب هواها... فجأة هكذا تتّصل بي، وتتطلب منّي مساعدة سلمان في دراسته لأنها مشغولة ولا تستطيع مساعدته، وكأنّ لا حياة لي أنا، ولا مشاغل! والأدهى أنّه عندما أخبرتها بانشغالي، وأنّ سلمان يجب أن يعتمد على نفسه لأنّه لم يعد طفلاً صغيراً غضبت، وقرّرت أن تساعده. إذاً، من الواضح أنّها ليست مشغولة كما تدّعي، ولكنّها فقط تريد أن تُملي عليّ قراراتها، وكأنّني أحد الأطباء المتدربين عندها!

شارع التحلية مزدحم كما هي العادة بعد العشاء... إن شاء الله أجد موقفاً للسيارة أمام المقهى حتّى لا أضطرّ إلى المشي مسافة في هذا الجو البارد... كأنّني لمحت سيارة فيراري كاليفورنيا زرقاء. أظنّها سيارة حمد العبد القادر. لا أدري لماذا اشتراها زرقاء؟ الفيراري ليست فيراري إن لم تكن حمراء... ها قد وجدت موقفاً ليس ببعيد عن المقهى... حقّاً أتمنى عدم تواجد ذلك الدكتور الجدّاوي، ثقيل الظل. لا أدري ما الذي جعل «نايف» يدعوه إلى المقهى، خاصّة وأنّ لا أحد غيره ينسجم معه؟! حقّاً، لا أحب أسلوب فرض الأشخاص هذا على الآخرين. من حسن الحظ أنّه لا يحضر كثيراً... إن شاء الله لا يكون موجوداً معنا الليلة.

***

– «هل يوجد حب حقيقي في هذه الحياة، أم أنّها مجرد رغبة حيوانية ويقوم الإنسان بتغليفها بأكذوبة ذلك المصطلح المبهم؟»

لا أدري لماذا خطر على بالي هذا السؤال العجيب، خاصّة وأنا بصحبة سلطان في المقهى.

– «كأنك أصبحت فيلسوفاً على غفلة. يبدو أن العروسة الجديدة قد فعلت معك الأفاعيل!».

حقّاً، في مثل هذه اللحظات أشتاق إلى نايف، فهو الوحيد من بين أصدقائي الذي أستطيع إجراء حوار معه فيه شيء من العمق!

– «لا فيلسوف ولا يحزنون. هي مجرد خاطرة طرأت على ذهني».

– «ولكنّك لم تخبرني، كيف وجدت أم عبد الله وبضاعتها؟».

– «بضاعتها؟! أنت تعلم بأنها خاطبة، وليست تاجرة مخدرات!».

– «كلاهما سواء يا عزيزي، كلاهما سواء».

– «كيف؟».

– «لن أجيبك... فها قد جاء من لديه الإجابات عن جميع أسئلتك المحَيِّرة».

لقد حضر نايف، وهذا صديقه الدكتور معه... لا بأس، فمن أجل عين تكرم مدينة.

– «هلا نايف... هلا دكتور طارق... هيّا يا شيخ سعود، اطرح سؤالك العميق على نايف».

– «سؤال عميق؟ عمَّ تتحدثان؟»

الاستغراب يبدو على وجه نايف، وإن كنت أحسبه لا يأخذ كلام سلطان دائماً على محمل الجد، خاصة عندما يكون في المقهى؛ فهذا مكان اللهو والمزاح، وليس مكان الأسئلة العميقة.

– «لا تأخذ في بالك. أنت تعلم جيّداً كيف يصبح سلطان على آخر الليل».

أطلقت ضحكة شاركني فيها الجميع، ولكنّ سلطان بدا مُصرّاً على الاستهزاء بسؤالي.

– «الأخ كان يسأل عن الحب ومعناه. يبدو وكأنه قد وقع في شراكه المسكين!».

ضحكات أخرى، ولكن هذه المرّة من دون الدكتور الذي– على ما يبدو– استثاره الموضوع.

– «الحب؟ ماذا عن الحب؟».

– «لا يُفتى ومالك في المدينة. أي سؤال عن الحب لا بد أن يوجَّه إلى طارق، فهو أكثرنا خبرة في مثل هذه المسائل».

لا أدري لماذا غمز نايف صديقه الدكتور بعد أن فرغ من جملته! يبدو وكأن بينهما قصّة ما تتعلّق بالموضوع المطروح.

– «هيّا يا سعود... ألقِ بسؤالك الخطير مرّة أخرى، حتّى تأتيك الإجابة عنه من جرّاح القلوب».

– «انسَ... دعنا نتحدث في أمر آخر».

– «لا والله! لا بد أن تطرحِ السؤال!»

أعتزّ بصداقة سلطان، ولكنّ خلطه بعض الأحيان ما بين الجدّ والهزل يضايقني... أمري لله، سأطرحِ السؤال حتّى «أفتك» اللّيلة من «رزالته»:

– «كنت أتساءل قبل مجيئكما إن كان للحب وجود فعلاً، أم أنّها مجرد خرافة ابتدعها الإنسان عبر العصور من أجل التغطية على رغبة جنسية لا يريد الاعتراف بها، من باب الخجل مثلاً؟»

– «ما هو تعريف الجاذبية؟ ما هو تعريف السعادة؟ ما هو تعريف الحب؟ هناك أمور تشعر بها، تدركها، ولكن لا تستطيع تعريفها. لكن حتماً الحب موجود، وهو أبعد ما يكون عن مجرد رغبة جنسية، وإلّا ماذا تسمي ذلك الرابط بين الأم وطفلها؟ الأخ وأخيه؟ أليس هو الحب؟».

– «ألم أقل إن الإجابة سنجدها عند جرّاح القلوب؟!».

– «ولكنّني لا أتحدث عن هذا النوع من الحب؛ بل أقصد العشق والغرام».

– «أظنّ أن العشق درجة من درجات الحب؛ درجة أعمق، وأكثر وجدانيّة. أما الرغبة الجنسية فهي غريزة حيوانية موجودة في الإنسان من أجل استمرار النوع، ولا علاقة لها بالحب أو العشق، والدليل على ذلك قصص الحب العذري. قيس عشق ليلى دون وجود رغبة جنسية».

كلام طارق يذكرني بالمحَلّى النجدي. طعمه حلو ولذيذ، ولكن سرعان ما تَشْعر بالتخمة منه... إن لم يشعر قيس قط برغبة جنسية نحو ليلى، فهذا ليس له سوى تفسير واحد: إنّه كان يعاني من عجز جنسي! نعم، الغريزة هي الّتي تحكم، وكلّ ما عدا ذلك مجرد هراء!

20

طارق

أنتظرها بمطعم المستشفى، بعد أن أتيتُ قبل الموعد بربع ساعة حتّى لا أتأخر عليها، ولكي أختار طاولة مناسبة بعيدة عن المدخل، ولكن في موقع غير منزوٍ حتّى لا يثير الشبهات. دقّات قلبي تتسارع مع اقتراب موعد مجيئها. أعلم جيداً أن هذا اللقاء هو الذي سوف يحسم علاقتنا! أشعر بالخوف؛ بل أشعر بالقلق... لعلّي أشعر بالخوف والقلق في الوقت ذاته! البارحة سألني صديق نايف، سعود، عن معنى الحب، وإن كان له وجود؟ لا أدري إن كانت إجابتي قد أقنعته، ولكنها أقنعتني أنا. أظن أن ما أشعر به نحو سلوى هو الحب... بل حتماً هو كذلك، وليس مجرد غريزة حيوانية. ما أشعر به نحوها يذكّرني بما شعرت به نحو منال ورباب من قبلها؛ وهو ما لم أشعر به تجاه أي امرأة أخرى لاحقاً. شيء غريب فعلاً؛ مع أنّني لم ألتقِها سوى مرّات قليلة، إلّا أنّني أشعر كما لو كنت أعرفها منذ زمن بعيد!

جاء الموعد، ولم تأتِ بعد... عشر دقائق أخرى عدّت... لا بأس، فلعلّ طارئاً جعلها تتأخر. يجب أن ألتمس لها العذر... ربع ساعة، ها هي قد جاءت! تبدو في غاية الجمال والأناقة! من الواضح أنّها تَزَيّنت من أجل هذا اللقاء؛ علامة مشجّعة! بل مشجّعة جدّاً!!

– «آسفة على التأخير، ولكن العيادة كانت جدّاً مزدحمة».

– «لا بأس. توقعت شيئاً كهذا؛ المهم أنك أتيت... تبدين في غاية الجمال».

أناولها وردة بيضاء... يبدو عليها الخجل والارتباك أثناء تناولها.

– «أووه... شكراً».

– «أخبريني، كيف كان يومك؟».

لا أريد أن أدخل في الموضوع مباشرة... لا بدّ من كسر الحواجز أولاً حتّى تشعر بالراحة في التحدث معي.

– «لا تسأل! عيادة مزدحمة كما هي العادة. لا أدري لماذا يُصرّون على قبول عدد من المرضى أكثر بكثير من قدرة استيعاب العيادة! النتيجة أنّني لا أستطيع إعطاء كل مريض حقّه من الوقت... مع الأسف، الإدارة كل همها الكم وليس الجودة».

– «لماذا لم تطلبي من مسؤول المواعيد الالتزام بالعدد المخصص من المرضى في العيادة؟».

– «طلبت منه أكثر من مرّة، ولكنّه دائماً يعدني خيرّاً ثم لا يفعل أي شيء غير الذي يريده».

– «بإمكانك رفع المسألة إلى الدكتور وليد الفديوي، المدير الطبي، من أجل حل المشكلة».

– «أعلم، ولكن لا أريد الدخول في مشاكل مع الإدارة».

– «معك حق... حتّى إن استجابوا لطلبك، فسيَقِلّ عدد المرضى في العيادة الواحدة، ولكن حينها قائمة الانتظار ستطول، وقد يطالبونك بفتح عيادة أخرى».

– «أليس كذلك؟ خلّينا كده على حالنا أفضل».

أعتقد أنّنا تكلمنا عن مشاكل العمل بما فيه الكفاية... لعلّه من الأفضل الآن تغيير مسار الحوار.

– «وكيف حال الأبناء؟».

– «بخير، الحمد لله».

– «أنت لديك أربعة أولاد، أليس كذلك؟».

– «نعم. صالح، وعبد العزيز، وفهد، وأصغرهم سلمان».

– «الله يحفظهم لك. الذي يراك لا يمكن أن يخمّن أبداً أنّ لديك أربعة أولاد... تبدين أصغر بكثير من سن الأربعين».

أخ! غلطة كبيرة!! فما كدتُ أنهي الجملة حتّى أدركت الخطأ الفادح الذي وقعت فيه! أمران لا يجب ذكرهما للمرأة أبداً: سنّها، ووزنها!!

– «وكيف عرفتَ سنّي؟».

لا تبدو غاضبة وهي تسألني، بل مندهشة. كأنّني ألمح ابتسامة تحاول إخفاءها.

– «أنا آسف... قصدت أن أقول إنّك صغيرة جداً..».

– «لا تحاول التهرب من السؤال... هيّا، أخبرني، كيف عرفتَ سنّي؟».

أظهرت ابتسامتها... هي ليست غاضبة، ولكنّها تشاكسني... الحمد لله!

– «الدكتور أحمد أخبرني».

– «يا ويل الدكتور أحمد! ألا يعلم أن سنّ المرأة سر عظيم لا ينبغي الإفشاء به لأيّ أحد؟! خاصة لشخص يرغب في الارتباط بها!».

تضحك، وأضحك معها. شيء جديد علمته عنها للتو؛ هي خفيفة الظل. «خصلة» جميلة أحبها في النساء... ولكن، مهلاً... كأنّني ألمح في حديثها قبول فكرة الارتباط بي؟! أو على الأقل، عدم رفض الأمر بالمجمل؟!

– «أرجو أن تعذري الدكتور أحمد. هو إنسان طيّب، والّذي في قلبه على لسانه».

– «لا تخبرني عنه! أعلم كم هو طيّب. ومع الأسف، الكثيرون يستغلون هذا الأمر فيه، وليست آخرهم ليليان!».

– «ليليان؟».

عمّن تتحدث؟

– «هذه ممرضة لبنانية تعمل معي في العيادة. تفهم في كل شيء إلّا التمريض!».

ممرضة لبنانية! غريبة، لا أذكر أنّني صادفت ممرضة لبنانية في المستشفى. يبدو أن اللبنانيات هنا في المستشفى أشبه بالشائعة الّتي تسمع عنها دون أن تلمسها واقعاً فتتحقّق منها.

– «أهي سيّئة لهذه الدرجة؟».

– «بل وأكثر! صدّقني، لا يوجد عندها أي مؤهل سوى جمالها وتغنّجها؛ ولذلك يبدو أنّه تمّ تعيينها في عيادة جراحة التجميل! لعلّ الإدارة أرادت لها أن تكون واجهة عيادة جراحة التجميل، على سبيل الدعاية!».

سلوى ليست فقط خفيفة الظل، ولكنّها كذلك تجيد التعليقات الساخرة الذكية! إنّها المرأة المثالية!! بتُّ أعتقد أنّني أحلم! فهل يمكن لامرأة مثلها أن يكون لها وجود في أرض الواقع؟!

– «مهما كانت ليليان هذه جميلة، فيستحيل أن تكون أجمل منك».

خرجت منّي الجملة بشكل عفوي... أظنّها شعرت بالخجل.

– «ثانك يو..».

لحظات صمت... لقد أحرجتها. كان ينبغي لي التروّي قليلاً، وألا أندفع هكذا.

– «طارق... أنت رجل جدّاً مهذب، وأنا واثقة بأن شخصاً مثلك، أية امرأة عاقلة تتمنى الارتباط به، لو لم تكن متزوجاً».

– «يعني لو لم أكن متزوجاً لوافقت على الارتباط بي؟».

– «أرجوك، لا تُسِئ فهمي. أنا لا أطالبك بالانفصال عن زوجتك! ولن أقبل أبداً بمثل هذا الأمر!».

– «لم أقصد ما ذهب إليه عقلك. الّذي أحاول إيصاله لك هو أن حكمك على من يتقدم إليك طالباً يدك للزواج يجب أن يكون قائماً على شخصه، ومدى توافقه معك، وشعورك نحوه، وليس على كونه متزوجاً أم لا... لا تؤاخذيني في ما سأقوله، ولكنّك سبق وتزوجت من شخص لم يسبق له الزواج من قبل، وانظري كيف آلت الأمور بينكما».

من الواضح أنّها تشعر بشيء نحوي، ولكنّ فكرتها المسبقة عن الارتباط بشخص متزوج يجعلها تجنح للرفض دون تفكير! لا بدّ من كسر هذا الحاجز! أن ترفضني لشخصي هذا عندي أهون من أن ترفضني فقط لأنّني متزوج؛ بالرغم من كوني الشخص الأنسب لها، والأكثر توافقاً!

– «والله أنا فاهمة قصدك، وكلامك جدّاً منطقي، ولكن..».

– «ولكن ماذا؟».

– «الأمر عليّ صعب؛ بل صعب جدّاً!».

– «أنا والله عارف يا سلوى، ولذلك كان طلبي منك البارحة أن نعطي نفسينا فرصة للتعارف؛ ولنرى إن كان أمر ما سينشأ بيننا قد يستحق التضحية».

– «ولكن، ما الفائدة؟ إن ارتبطنا ببعض، ونشأ شيء بيننا كما تقول، فسيكون الفراق أصعب! لماذا لا نحسم الأمر من البداية قبل أن ينشأ هذا الشيء الذي تتحدث عنه؟!».

– «قصدك الهروب دون مواجهة حقيقة مشاعرنا! وهل هذا حل في نظرك؟ هل هذه هي الحياة الّتي تريدينها لنفسك؟ هل تودّين الارتباط بشخص لا تربطك به أي عاطفة، فقط لأنه غير متزوج؟!».

– «لا أعرف... كلامك يزيدني حيرة على حيرتي... طارق، لماذا ترغب في الزواج على زوجتك؟ ألا تخشى من رَدّة فعلها، ورَدّة فعل أبنائك؟».

أظنها بدأت تلين... سؤالها عن ردة فعل زوجتي وأبنائي ينمّ عن ذلك! عظيم جدّاً، لقد بدأ الحوار معها يسفر عن نتيجة مَرْجُوَّة!!

– «دعي أمر زوجتي وأبنائي لي. أعلم جيّداً كيف أتعامل معهم؛ المهم أن توافقي أنت».

– «أوافق على ماذا يا طارق؟! ما تطلبه منّي صعب!! لا أعلم كيف وافقتك على هذا اللقاء. ما كان يجب أن أوافق..».

– «ولكنّك وافقتِ، وهذا يدلّ على شيء».

– «أنت شخص حالم. كأنّني أتحدّث مع فنان، وليس جرّاح قلب».

– «أنا في الأصل فنان، قبل أن أكون جرّاحاً».

تنظر إليّ باستغراب، دون أن تفهم قصدي من تلك العبارة... عليّ أن أوضح لها معنى ما قلتُه.

– «بدأتُ أتعلم العزف على البيانو منذ سن مبكرة. كان طموحي أن أصبح عازفاً محترفاً، وأجوب العالم مع الفرق العالمية، ولكن سرعان ما أدركت أن ليس كل حلم قابلاً للتحقق؛ وذلك الحلم على وجه التحديد غير قابل لأن يتحقق في بلد كالسعودية، لا يزال الكثيرون ينظرون فيه للموسيقى على أنّها حرام».

– «أنت تعزف على البيانو؟! هل تعلم أنّني عندما كنت صغيرة طلبت من أبي أن يشتري لي بيانو، ولكنّه رفض. على الأقل، أنت تعلمت كيف تعزف».

– «صحيح... شيء أفضل من لا شيء».

– «وهل ما زلت تعزف على البيانو، أم أنك توقّفت مع مشاغل الحياة والعمل؟».

– «بل ما زلت حريصاً على العزف كل يوم، ولو لمدّة دقائق».

– «حقّاً! وماذا تعزف؟».

– «أغلب المقطوعات الكلاسيكية الشهيرة، وبعض البلوز، والجاز».

من الواضح أنّها تحب الموسيقى مثلي. أسئلتها تنمّ عن ذلك. أنا سعيد لأنّ الحوار أخذ مساراً آخر، من بعد نقاش مسألة زوجتي وأبنائي. الحديث عن اهتمامات مشتركة أفضل بكثير في هذه المرحلة الحرجة. أهمّ شيء في الموضوع أنّها

لم تغادر بعد المكان... هي ما زالت جالسة أمامي، ممّا يعني أنّه لا يزال هناك أمل... وممّا يعني كذلك أنّها قد تلين في النهاية!

***

ساعتان مضتا دون أن يشعر أي منّا بالوقت... لا أعلم كيف حدث هذا! لا يوجد لدي أيّ تفسير سوى أنّه الانسجام المتبادل الّذي جعلنا نستمتع بحديث بعضنا دون ملل! تطرّقنا لأمور عدّة من بعد الحديث عن الموسيقى؛ بل حدّثتني حتّى عن مُعلم الدين الّذي أخبر ابنها الصغير بأنّه لا يجوز الاعتقاد أنّ الأرض تدور حول الشمس! شيء مذهل أن يعتقد إنسان من المفترض أنّه متعلم، وفي القرن الواحد والعشرين، أنّ الشمس هي الّتي تدور حول الأرض! ألم تحسم هذه المسألة منذ القرون الوسطى؟! ألا يزال أحد في هذا العصر يفكر بهذه الطريقة المتخلفة؟!! جلسنا نضحك أنا وهي على هذا المعلم وطريقته في التفكير، وأخَذَنا الحديث إلى بعض المعتقدات الأخرى البالية الّتي لا تزال تعشّش في أذهان البعض، مثل الاعتقاد بأنّ المرأة لديها غدّة في رأسها تجعلها كثيرة النسيان، وذلك هو السبب الّذي جعل شهادتها تعادل نصف شهادة الرجل، أو أنّ قيادة المرأة للسيارة تؤثّر في قدرتها على الإنجاب! تحدثنا في أشياء كثيرة غيرها، ولكنّني لم أسألها عن طليقها... لا أدري لماذا؟ ربمّا لأنّني شعرت بأنّ الوقت غير مناسب بعد... فلعلّ هذا الأمر لا يزال يشكّل لها شيئاً من الحساسية؛ ولو أنّها تطلّقت منه منذ سنوات كما علمتُ من الدكتور أحمد... لعلّي أسألها عنه في اللقاء القادم. نعم، هناك لقاء قادم! وهذا هو أهم ما حصلت عليه منها: وعد بلقاء آخر! أظنّ الأمور تسير أفضل ممّا تصورت!! فلا يزال هناك أمل بعد!!!

21

سلوى

– «أريده أكبر؛ مقاس دي. هكذا يحبّه زوجي».

المسكينة، تحسب أن تكبير صدرها سوف يصرف زوجها عن الالتفات لغيرها. لا تعلم أنّ الرجال بطبعهم زائغو الأبصار؛ لا يملأ أعينهم سوى التراب. لو كان الواحد منهم متزوجاً من هيفاء وهبي، لراح بعد فترة يبحث عن نانسي عجرم. هم هكذا؛ هي في جيناتهم.

– «حسناً، سوف أسجل في ملفك رغبتك في المقاس الكبير، حتّى يتم تحضيره يوم العملية».

– «شكراً دكتورة».

– «العفو».

أخّرتني عن موعدي مع الدكتور طارق. خيرة، فلعلّه ملّ من الانتظار وانصرف، فيكون بذلك قد وفّر عليّ الكثير من الحرج...

أتّجِه نحو المطعم... بطني يمغصني... أفكر بألّا أكمل سَيْري إلى هناك؛ لعلّي أعود إلى مكتبي، وأتحجج له بأي عذر. لا أعلم لماذا وافقته على هذا اللقاء الثاني! كان يجب عليّ أن أحسم الأمر البارحة عندما زارني في المكتب. في بعض الأحيان، أشعر وكأنّني بلهاء لا أجيد التصرف! ها قد وصلت إلى المطعم... لقد تأخرت ربع

ساعة عن الموعد... لعلّي لن أجده... أنظر حول المكان. المطعم شبه ممتلئ، ولكنّني لا أرى أحداً أعرفه. أغلب الموجودين الآن هم من أقسام أخرى... ولكن... يا إلهي! ها هو طارق؛ لقد اختار طاولة بعيدة عن الأنظار بعض الشيء. أتَّجِه نحوه... ما هذا الذي معه؟ يا ربّي، إنها وردة بيضاء!

***

كان ينبغي لي أن أحسم الأمر من البداية حتّى لا تستمر المسألة هكذا من لقاء للقاء، ولكنّني لم أفعل! لماذا لم أفعل؟! أنا لست امرأة ضعيفة، ولكنّني معه ضعفت. شعرت وكأنّني رجعت إلى سنوات المراهقة... لعلّها الوردة البيضاء الّتي أهداني إيّاها... أو ربما رقّته الّتي قلّما أجدها في الرجال هذه الأيام... آه، لو لم يكن متزوجاً لما تردّدت لحظة في قبول طلبه... جرّاح وفنان، هذه نادرة؛ لعلّ هذا الأمر هو ما شدّني إليه، وجعلني لا أشعر بالوقت معه وهو يمضي... يا إلهي، أمضينا ساعتين في مطعم المستشفى! من حسن الحظ أنّه لم ينتبه إلينا أحد أعرفه؛ ما الذي كان سَيُقال عنّا حينها؟! وبدلاً من أن أحسم الأمر، وأعتذر منه عن قبول طلبه، أوافق على لقائه من جديد، ولكن هذه المرة خارج المستشفى! يا إلهي، ماذا أصابني؟! أنا لم أتصرف قط من قبل بهذه الحماقة!!... ولكن... لعلّ «طارق» على حق... فما المانع من عدم التسرع في اتخاذ القرار؟ فهل يُرفَض الرجل المناسب فقط لأنّه متزوج؟ ماذا لو كان هو بالفعل الإنسان الوحيد القادر على إسعادي؟! القادر على فهمي؟! المتفهم لطبيعة عملي؟ أأرفضه فقط لأنه متزوج؟ يا إلهي، ماذا أصابني؟! بتّ أناقض نفسي، وكل أفكاري السابقة! فكيف يخطر على بالي أن أتقبّل مبدأ أن أكون الزوجة الثانية لرجل متزوج، مهما كانت ميزاته؟! أليس كل

الرجال سواء؟ يتظاهرون بالرقّة، وحسن الخُلُق، وقمّة التفاهم، إلى أن ينالوا ما يصبون إليه، ثم سرعان ما يظهرون على حقيقتهم؟! أليس هذا بالفعل ما حدث لي مع سعود؟! لا يُلدَغ المؤمن من جحر مرتين! ولكن... طارق يبدو لي مختلفاً كل الاختلاف عن سعود... من الظلم أن أشَبِّه هذا بذاك... حقّاً لا أعلم، فالأمر جدّاً محَيِّر... على أية حال، لقد وعدته بلقاء مساء الخميس القادم على العشاء. أعلم أنّه ما كان لي أن أوافق على مثل هذا اللقاء، خاصة وأنّني أم لأربعة أولاد، ولكن ما حصل قد حصل؛ فلعلّها تكون فرصة لكي أحسم فيها أمري... في مطعم لاكوتشينا... بفندق الفيصلية.

22

سعود

رسالة نصّية من ليليان تسأل فيها عنّي وعن أحوالي. لم ألتقِها منذ أسبوع. والحق يقال، إنّني لم أشتَق إليها. لقد شغلتني ريم، وأنستني ليليان ورفيقاتها. لكنّ صديقتي اللبنانية لها غرض آخر بجانب المتعة الحِسّية الّتي توفرها لي: أخبار سلوى؛ أم أولادي، لذلك لا أستطيع إهمالها. كما أنّه لا بأس من تَذَوّقها كل فترة وأخرى. فمهما كانت ريم جذابة، وتأسر الألباب بجمالها الفاتن والفريد من نوعه، فصنف واحد من النساء لا يُشبع أبداً شهية الرجل المُقْتَدر...

– «أهلين حياة قلبي؛ وينك؟ اشتقت لك.» ردّت على اتصالي من أول رنّة. يبدو أنها اشتاقت لي فعلاً، أو لعلّها اشتاقت إلى أموالي. في كلتا الحالتين لا بأس. أن أكون جذّابًا بأموالي، أفضل عندي مئة مرّة من أن أكون جذّابًا بمظهر زائل بأثر السنين.

– «كيف حالك ليليان؟ المعذرة كنت في غاية الانشغال في الأيام الأخيرة».

– «ولا يهمك. أعلم أنكم معشر البِزْنِسمن كثيرو الانشغال... ولكنّني اشتقت لك. متى راح أشوفك؟».

– «ليس الليلة... ربمّا غداً».

– «ربمّا! غريبة ربمّا هذه».

– «لا أفهم قصدك. ما هو وجه الغرابة في ما قلت؟».

– «يعني في العادة أنت الذي تحرص على رؤيتي دائماً. والآن، أسبوع يمر دون أن تسأل عنّي، وكأنّني لم أوحشك، ثم تقول لي ربّما غداً تلقاني».

– «قلت لك مشغول».

بدأت أملّ من هذا الحوار السمج! أنا لست زوجها حتّى تحاسبني على وقتي!! يبدو أن النساء كلّهن سواء؛ ترغب الواحدة منهنّ في تملك الرجل، حتّى إن لم تكن تربطها به صلة زواج!

– «مشغول!! أول مرّة أسمعها منك... سبحان مُبَدِّل الأحوال! يا ترى، ما هو ذلك الشيء الذي يشغلك لهذه الدرجة؟ لا بد أنّها في غاية الجمال!».

– «ليليان... المسألة... ليست كما تظنين».

عجيبة والله!! هذه المرأة المُنْحَلّة تحاسبني على حياتي الشخصيّة!! يبدو وكأنّها صدّقت أنّني «البوي فريند» تبعها! وكأنّني لا أعلم بعلاقاتها المتعدّدة بغيري من الرجال!!

– «على العموم، حبيت أعلمك بأنّني مسافرة على بيروت الأسبوع القادم لمدّة شهر، إجازة».

هو ذاك إذاً... المسألة ليست اشتياقاً، وكلاماً فارغاً... ستسافر، وترغب في الحصول على المال. لا بأس، فهي تستحق؛ على الأقل نظير خدماتها المتعدّدة والمتميزة.

– «آه، إذا كنت ستسافرين، فطبعاً لا بد أن أراك قبل السفر. إذاً، نلتقي غداً على العاشرة مساء، في المكان نفسه. سوف أحضر معي لك هديّة الوداع».

– «حياة قلبي، لا أنحرم منك!».

– «ولا منكِ يا قلبي».

لا أحبّ اللّف والدوران، فليس هناك ما هو أفضل من العلاقة الشفّافة... ليت ليليان تتعلم قليلاً من ريم!

***

كلّما دخلت إلى منزل ريم شعرت وكأنّني انتقلت من الرياض إلى مكان آخر ليس له مثيل على وجه الأرض! ڤيلّتها ليست بحجم ڤيلّتي أو فخامتها، ولكنّها «أشرح» بكثير. حديقتها الصغيرة غنّاء، الزهور تملأها من كل جانب، وتتوسطها جلسة تتّسع فقط لنفرين، نستمتع بها كلانا في أجواء الرياض الشتوية. نتناول هناك قهوة المساء عندما أمرها في الأيام المتّفق عليها. لكن دون منازع، أجمل ما في منزل ريم هي غرفة النوم! لا شيء يضاهيها، لا هنا ولا في أي مكان آخر بمدينة الرياض؛ أنا على ثقة من ذلك... ثلاثة أيام فقط مع هذه الحورية العجيبة حتماً لا تكفيني! أشتهيها كل يوم من أيام الأسبوع. لا أظنّ أن ليليان، مع كل مؤهلاتها، سوف تغنيني عنها وتُشبعني. ليتني استمعت إلى نصيحة أم عبد الله... على أية حال، كل خطأ قابل للتصحيح...

– «ريم، هناك أمر أود الحديث معك فيه».

– «مُرْني يا بعد عمري».

– «لا يأمر عليك عدو... ثلاثة أيام في الأسبوع أراها غير كافية. حابب أمرّك أكثر؛ وأنا بالطبع مستعد لدفع الفرق».

حالة من الصمت والتأمل تنتاب ريم... أظنّها تفكّر في عرضي الجديد. لا أحسبها ترفض المزيد من المال.

– «ما ينفع يا بعد عمري... لقد اتفقنا وحُسم الأمر. أنت الذي اخترت ثلاثة أيام في الأسبوع، وعلى هذا الأساس وقّعنا العقد».

ما هذا الهراء الذي أسمعه؟! ألا تعلم ريم أن جميع العقود قابلة للتفاوض، وإعادة الصياغة! آاااه، لقد فهمت... أيتها الخبيثة! ترغبين في الحصول على مبلغ أكبر عبر رفع سعر اليوم الواحد، ولذلك تتظاهرين بالتَمَنُّع... لا مانع عندي، فوالله امرأة من نار كهذه تستحق كل خير!

– «أنا فاهم، ولكن ما المانع في إعادة صياغة الاتّفاق الذي أبرمناه، بما فيه الأسعار القديمة. أنا مدرك أن تكاليف الحياة تزداد ارتفاعاً يوماً من بعد يوم. صدّقيني، لن نختلف في الأسعار، فأنا متفهم جدّاً لمثل هذه الأمور».

– «يبدو وكأنك تحسبني إنسانة مادّية، كل همّها في هذه الحياة هو المال!».

لا يعجبني المنحى الّذي يتّجه إليه الحوار! ما الّذي تريد ريم الوصول إليه؟! هل نَسِيَتْ نفسها؟!

– «المعذرة، أنا لم أقصد أية إساءة... ولكن... هل يوجد هناك أي مانع من زيادة عدد الأيام؟ لم أحسب أن المسألة فيها هذا القدر من الصعوبة».

– «أنا بطبيعتي أحب الالتزام بالعقود المبرمة، ولا تستهويني إعادة صياغتها بعد توقيعها. على العموم، دعني أفكر في الأمر، وسوف أوافيك بردّي النهائي في زيارتك القادمة».

والله شيء عجيب هذا! أظنّ لو أن الحكومات العربية كانت تجيد فنّ التفاوض مثل هذه المرأة، لاسترجعت فلسطين منذ زمن بعيد!!

23

طارق

لا أدري ما الذي جعلني أذهب إلى مكتب سالم وأقصّ عليه كلّ ما حدث بيني وبين سلوى حتّى الآن! ما الذي كنت أتوقع سماعه غير هذا؟!

– «حقّاً، أنا عجزت عن فهم سرّ كرهك لها إلى هذا الحد!».

– «طارق، يا صديقي العزيز، كم من مرّة أعيدها عليك: أنا لا أكرهها، ولا أحبها؛ بل ليس بيني وبينها غير الزمالة في القسم ذاته. إن لم يعجبك رأيي، فلا تسألني».

– «إذاً، كيف تفسر موافقتها على لقائي للمرّة الثالثة؟! وماذا عن الانسجام الّذي بدا واضحاً بيننا؟ تحدثنا لمدة ساعتين دون أن نشعر بمرور الوقت!».

– «كل هذا جميل، ولعلّها بالفعل شعرت بعاطفة ما تجاهك، ولكن..».

– «ولكن ماذا؟!».

– «أكرّر للمرّة الألف! من معرفتي بشخصيتها، فهي لن تقبل أبداً بأن تكون زوجة ثانية. لن تقبل مشاركة امرأة أخرى في رجل، مهما كان».

– «قصدك أنّها ستطلب منّي أن أطلّق زوجتي؟».

– «حتّى هذا لا أظنّها ستفعله؛ فهي لن تقبل بأن يُقال عنها إنّها سرقت رجلاً من زوجته. لا، فهي تهتم برأي الآخرين فيها، ومنظرها أمام الناس».

– «حيَّرتني يا أخي معك!».

– «أنت الذي تُحيّر نفسك بنفسك! اسمعني يا طارق جيّداً، وخذها نصيحة من صديق مخلص لك: لا تخرب عليك بيتك. أنت لديك زوجة مخلصة، وخمسة أبناء مثل الفل. صدّقني سلوى لا تستحق مثل هذه التضحية منك».

– «أحترم رأيك يا سالم، ولكنّني لا أتّفق معك في ما تقوله. سلوى إنسانة رائعة، والعاطفة الجميلة الّتي أخذت تنشأ بيننا ستجعلنا نتجاوز جميع العقبات؛ ثم أنّ الشرع حلّل التعدد لمثل هذه الظروف. أنا لست أول ولا آخر من يتزوج على زوجته. نعم، ستغضب منّي هديل، وكذلك الأولاد، ولكن مع مرور الوقت سوف يتقبلون الأمر الواقع».

– «ربمّا».

– «أنت دائماً هكذا متشائم، وتتصور الأسوأ!»

مسكين سالم، لقد عقّدته زوجته السابقة من جميع النساء. لهذا لم يتزوَّج بعدها، حتّى بعدما طلّقها، إلى يومنا هذا، ولا أظنّه سيتزوَّج أبداً! لقد كره صنف النساء بسببها؛ ومن يلومه؟! فلو كنتُ متزوجاً من امرأة مُتَسلطة مثلها لكرهت جميع النساء أيضاً! نكد مستمر، وخلافات لا تنتهي بسبب متطلّباتها المادّية، ورغباتها المستمرة في السهر والسفر مع صديقاتها، بجانب تذمّرها الدائم الّذي لا يكاد ينقطع لأتفه الأسباب! لا أعلم كيف تحمّلها سالم كل تلك السنوات الّتي كانت فيها على ذمّته!

– «لا متشائم، ولا متفائل. يا سيدي، الله يكتب لك الخير أينما كان... قلتَ لي إنّك ستقابلها مساء الخميس في مطعم لاكوتشينا؟».

– «نعم. أخبَرَتْني بأنّها تفضل المطاعم الإيطالية».

– «فندق الرتز كارلتون يوجد به كذلك مطعم إيطاليجيّد».

– «الرتز فندق فخم وجميل، ولكنّه لا يعجبني. كلّما دخلتُه شعرتُ بالغمَّة... ولكن، دعك من كل هذا، وأخبرني: ما حكاية تلك الممرضة اللبنانية الّتي لا تطيقها سلوى؟».

– «أتقصد ليليان؟».

– «أنت تعرفها إذاً».

– «ومن لا يعرفها في قسم الجراحة؟! لولا أنّني أخشى على نفسي من الفتنة، لطلبتها بالاسم لكي تعمل معي في العيادة!».

– «أهي جميلة لهذا الحد؟».

لقد أثار سالم فضولي... لعلّها هي الّتي كانت عند الدكتور مارتن زرتك، مدير مركز القلب، في تلك الليلة».

– «لو رأيتَها، أنا واثق لكانت أنْسَتْك سلوى!».

– «لا يا عم، أنا لا شأن لي بالنساء المتزوجات».

– «ومن قال لك إنّها متزوجة؟ يا عزيزي، أمثال ليليان لا يفضّلن الزواج!».

غريبة... أذكر أن الّتي كانت مع مارتن سمعتُها تتحدث عن زوجها.

– «أأنت متأكد من أنّها ليست متزوجة؟».

– «طبعاً متأكد. أعرف ليليان منذ سنوات؛ ولكن ما سر اهتمامك بها؟ ورجاءً، لا تمتحن ذكائي، وتخبرني بأن سؤالك عنها فقط لأنّ سلوى ذكرتها لك».

لا بأس... سوف أخبره الحقيقة.

– «قبل أن أفصح لك بأي شيء، أريدك أن تعدني أولاً بأنّ ما سوف أذكره لك سيبقى سراً بيننا».

– «طارق! حقّاً ما كل هذه الدراما؟!».

– «لن أنطق بكلمة واحدة قبل أن تعدني».

– «يا سيدي أعدك بأن ما سوف تقوله لي سيبقى سرّاً بيننا... هيّا، هات ما عندك».

– «قبل نحو أسبوع، أخذني الوقت، وتأخّرت في المستشفى، وبالصدفة استمعت إلى صوت امرأة في وضع أقل ما يوصف بأنّه مُخل، في مكتب مدير مركز القلب، الدكتور مارتن زرتك، كانت تتحدث معه بلكنة لبنانية..».

– «لا يا شيخ! أتعتقد أنّها ليليان؟!».

– «لا أظن؛ لأن المرأة الّتي كانت معه، فَهِمْتُ من حديثها الّذي سمعتُه أنها متزوجة».

– «وليليان حتماً غير متزوجة... إذاً، من تحسبها تكون تلك الساقطة؟!».

– «لا أدري. ولكنّ هذا ليس كل ما حدث... لقد فتح الدكتور مارتن الباب ورآني، فأدرك أنّني قد علمت بأمر المرأة الّتي كانت معه في المكتب».

– «لا يا شيخ! ماذا فعل؟!».

– «أبداً، تغيّرت معاملته لي تماماً؛ مئة وثمانين درجة، حتّى بتّ أحصل منه على كل ما أريده، تقريباً».

– «أذكر أنك كنت دائماً ما تشتكي من سوء تعامله مع السعوديين على وجه التحديد، وتطفيشه المستمر لهم، حتّى تخلو له الساحة من أولاد البلد!».

– «كل ذلك تغيّر يا صديقي بعدما ساقتني الأقدار إلى مكتبه في تلك الليلة الموعودة! بتُّ أنا الآن بمثابة طفله المدلّل؛ وطبعاً رئيس قسم جراحة القلب، الدكتور أحمد العميل، سوف يجنّ جنونه!».

– «يبدو وكأن مشاكل مركز القلب بالمستشفى لن تنتهي أبداً. من رئيس قسم حقود ومتسلط، إلى مدير مركز متعالٍ على أولاد البلد، والآن اكتشفنا أنّه كذلك زير نساء، ويأتي بهن إلى مكتبه الخاص بعد أن حوّله – على ما يبدو – إلى چرسونيرة من أجل إشباع شهواته! في بعض الأحيان أشعر وكأن كل رجل في هذا المستشفى لديه امرأة في حياته، إلّا أنا!!».

24

سعود

خبر سعيد أبدأ به يومي، لعلّه يكون فأل خير لباقي اليوم! لقد تمت الصفقة، وبعنا الدّعامات المعدنية للمستشفى! أحب مثل هذا النوع من الصفقات الّتي أسميها السَهلة المُمْتَنعة... معدات، وأدوات طبية على وشك أن تنتهي صلاحيتها، نشتريها أنا وسلطان من المصنع مباشرة في أمريكا بعُشر قيمتها الأصلية، عبر شركة أنشأناها لهذا الغرض، ثم نبيعها هنا بسعر السوق المحلي ناقص ثلاثين في المئة! المحصّلة النهائية: مكسب خرافي! بضاعة قد لا تتجاوز قيمتها مليون ريال، نبيعها نحن للمستشفى بعشرين مليوناً! لا أظن أن هناك تجارة مربحة كهذه. لكن مثل هذه النوعية من الصفقات لكي تتم، لا بد أن يأخذ كل شخصٍ معني نصيبه. وفي هذه الصفقة، سيحصل مدير المشتريات على مليون ريال، والدكتور مارتن زرتك كذلك سيحصل على مليوني ريال بصفته رئيساً للّجنة الفنية المسؤولة عن تقييم جودة المعدات، وثلاثة ملايين ريال ستذهب لزوج أختي، مدير المستشفى. الصفقات من هذا النوع بحاجة لثقة متبادلة ناتجة عن علاقات شخصية؛ وقد توفّرت الظروف المناسبة بشكل مذهل، ممّا جعل من إتمامها أمراً حتمياً، غير قابل للأخذ والرد! الدكتور مارتن زرتك طبيب أمريكي، ولن يشكّك أحد في خبرته ونزاهته بحكم جنسيته، وتربطه علاقة صداقة حميمة مع سلطان، وهو الذي أشار عليه بفكرة الصفقة. ولكن، كان لا بدّ لمدير المشتريات من أن يغضّ الطرف عن كون البضاعة المعنية على وشك أن تنتهي صلاحيتها،

ولكي يحصل هذا، لا بد من إيعاز يأتي من مدير المستشفى الّذي هو لحسن الحظ رحيمي!

في الماضي، كانت تنتابني لحظات من وخز الضمير، لمثل هذه النوعية من الصفقات المشبوهة. لكنّ ضميري ارتاح بعدما علمت من زوج أختي بأن المستشفى لا يستخدم أي أداة طبّية فور ما تنتهي صلاحيّتها؛ وبالتالي لا ضرر يقع على المرضى. هذه المعلومة أراحتني كثيراً... كما أنّني استفتيت أحد الشيوخ، فقال لي إنّه بإمكاني تطهير مالي من الحرام عبر التصدق بعُشْرِه. هناك مقولة شهيرة: ضع بينك وبين النار شيخاً... وقد وضعتُ بيني وبين جهنم ذلك الشيخ، جزاه الله خيراً!

لقد تجاوزت ثروتي اليوم المليار ريال. سوف أبني بمئة مليون ريال عدّة مساجد؛ فلعلّ ذلك يشفع لي يوم القيامة.

***

تذكرت أغنية إسماعيل ياسين وأنا في طريقي إلى منزل ريم: «كلنا عايزين سعادة، بس إيه هي السعادة؟ ولّا إيه معنى السعادة؟ قولي يا صاحب السعادة، قولي، قولي».

كثيراً ما سألت نفسي عن معنى السعادة، وكيف أحصل عليها. عندما كنت شاباً يافعاً، تصورت أن سعادتي ستكمن مع زوجة جميلة من عائلة كريمة، تنجب لي عدداً من الأولاد يحملون اسمي من بعدي؛ ولكن عندما تحقق لي مرادي، اكتشفت أمراً عجيباً... اكتشفت أنّني لم أكن سعيداً... حتّى الثروة الهائلة الّتي حققتها لم تجلب لي السعادة. شعوري بالنجاح في جني المال، كان دائماً

كشعوري اليوم عندما سمعت خبر الصفقة الجديدة: فرحة مؤقتة، سرعان ما تتلاشى. لا أعلم، لماذا تتلاشى فرحتي دائماً بشكل متسارع؟ لماذا لا تبقى معي؟ هل فعلاً أعاني من الاكتئاب كما قالت لي سلوى؟ ولكن، إن كنت أعاني من الاكتئاب، فلماذا أشعر بالسعادة دائماً وأنا مع ريم؟ شعوري معها يختلف عن شعوري مع كل النساء اللّواتي عاشرتهن، ولقد عاشرت العشرات من النساء. إذاً، المشكلة ليست فيّ أنا، بل هي في العالم من حولي! شيء عجيب فعلاً... أتساءل أحياناً: هل وقعتُ في حب ريم؟ هل هذا هو الحب الذي يتحدثون عنه في الأفلام وقصص الغرام؟ أظنه هو، وإلّا ما تفسير هذا الشعور الغريب الذي انتابني منذ أن تعرفت عليها؟ ولكن هذا كلّه لا يهم... فسواء أكان حبّاً أم شيئاً آخر، المهم هو أنّني أشعر بالسعادة وأنا معها. ونعم، لن أخدع نفسي وأتناسى أنها قد تكون سعادة عابرة اشتريتها بمالي؛ طز. فلتكن كذلك، فما فائدة المال إذاً، إن لم يجلب السعادة لصاحبه؟! وإن كانت سعادتي مؤقتة وليست دائمة، فسوف أستمتع بالوقت مهما طال أو قصر، ثم سأبحث لنفسي عن مصدر سعادة آخر؛ وهلمَّ جرًّا، حتّى آخر رمق!

***

وافقت ريم! مقابل زيادة في المبلغ عن السعر المعتاد. أضافت لي يومين؛ وبذلك يصبح عدد زياراتي لها خمسة أيام في الأسبوع، بشرط ألّا تتضمن يومي الجمعة والسبت. هذا الأمر البسيط سوف يضيف لعلاقتنا آفاقاً جديدة! فبإمكاننا الآن مثلاً السفر، ولو لمدّة قصيرة. لعلّنا نذهب إلى ڤينيسيا، أو باريس، أو

لندن، أو أية مدينة أخرى نشتهيها. لمَ لا؟ عُطلات قصيرة، ولكن مُتَكرِّرة على مدار السنة مع ريم... هذه هي السعادة بحق!

– «ريم».

– «نعم، يا بعد عمري».

كم هي رقيقة... قبلاتها تطبع أماكن متفرقة من جسدي، حتّى أثناء حديثها معي، بين كل كلمة تنطق بها. لا شيء يمنعها من محاولة إسعادي.

– «هل تشعرين بالسعادة؟».

– «طبعاً يا روحي. يكفيني أنّني بين أحضانك الآن».

– «لا أقصد في هذه اللحظة خاصة، ولكن بشكل عام، هل تشعرين بالسعادة؟».

– «لا أفهم سبب سؤالك».

– «أسألك لأنّني في حياتي لم أشعر بالسعادة كما شعرت بها بعد أن تعرفت عليك».

– «يا روح قلبي أنت! حتّى أنا لم أشعر بسعادة قط كالّتي أشعر بها الآن».

يا ترى، هل هذا الحديث من قلبها، أم هي مجرد مجاملة نابعة من مقدار صرفي عليها؟ مهما كانت الإجابة، فلن تُغَيِّر شيئاً ممّا أشعر به الآن!

– «ألا ترغبين في زواج حقيقي؟».

– «أوليس هذا زواجاً حقيقياً يا بعد عمري؟»

– «هذا زواج مسيار. ألا ترغبين في زواج مكتمل؟».

– «أنا سعيدة بزواج المسيار يا حُبّي، طالما أن العلماء أفتوا بجوازه. هكذا أنا حُرّة نفسي، وأنت كذلك حرٌّ في ما تفعله بعيداً عنّي، دون مساءلة. ألم تخبرني بأنّك جرّبت الزواج التقليدي ولم يصلح معك؟».

– «ربمّا لم يصلح لأنّني أسأت الاختيار، ولكن معك قد يبدو الأمر مختلفاً».

– «لا يا عيوني، الزواج التقليدي كله واحد. أنا لا أعرف شخصاً واحداً، رجلاً كان أو امرأة، متزوجاً زواجاً تقليدياً يحيا حياة سعيدة. كلّهم تعساء، وإن حاولوا إظهار خلاف ذلك».

– «أحقّاً تظنين ذلك؟».

– «بل أنا على يقين... صدّقني يا قلبي، لا يوجد ما هو أفضل من هذا الحال الّذي أنا وأنت عليه، ولذلك أنت تشعر بهذا الكم من السعادة. أنصحك بألّا تفكر في أي تعديل على هذا الحال، حتّى لا تنطفئ سعادتنا».

في كلامها وجاهة ومنطق. هذه المرأة لديها خبرة كبيرة بالرغم من حداثة سنّها! كلّما ازددت معرفة بريم تعاظم احترامي لها...

– «عفواً حياتي، جوّالي يرن».

تلتقط ريم جوّالها من على الطاولة الّتي بجوارها... ألمح اسم المتصل على شاشته... لوهلة قصيرة جدّاً لا أعير الاسم الّذي قرأته اهتماماً، ولكن سرعان ما أدير رأسي مرّة أخرى إلى شاشة الجوّال، لأتنبه للأمر الذي ما كان ليَخْطر على بالي قط!

- «هلا دكتورة..».

إنّها سلوى!

25

طارق

أكّدت لي سلوى حضورها الليلة إلى المطعم عبر رسالة نصيّة على الواتس آب. كنت أخشى من اعتذار يأتي في آخر لحظة، ولكن حمداً لله هذا لم يحدث. الآن أدخل إلى المنزل، وكالعادة هديل في المطبخ تحضّر الطعام، والأبناء كلٌ في عالمه الخاص. في الماضي البعيد، كانت هديل تستقبلني بالأحضان والقبلات بعد أن تتزيّن لي، ولكن هذا الأمر أخذ ينحسر بعد كل طفل تنجبه، إلى أن أصبح مجرّد ذكرى شيء كان... لا أذكر متى كانت آخر مرة عاشرتها؛ ربما منذ ستة أشهر أو أكثر... منذ سنوات وأنا لا أشعر بشهوة تجاهها، ولولا انتصاب الصباح لحسبتُ أن عجزاً أصابني! لكنّني، ولله الحمد، ما زلت فحلاً قادراً على الإنجاز...

ساعات قليلة فقط هي الّتي تفصلني عن رؤية سلوى، ولكنّها تمُر عليّ وكأنها سنون! أدرك جيّداً أنّ لقاء اللّيلة هو اللّقاء الفاصل بيني وبينها، ولكن يملأني أمل! نعم، أشعر بأنّ كل شيء سوف يسير كما ينبغي له أن يسير: رغبة متبادلة ومُلِحَّة بالارتباط! كنت أحسب أنّني سوف أشعر بالذنب وأنا أواعد امرأة لغرض الزواج، من وراء هديل، ولكنّ الأمر الغريب أنّني لا أشعر بأي ذنب! ألسنا مسلمين، والشرع أباح التعدّد؟ فلماذا أشعر بالذنب وأنا أمارس أمراً أقرّه لي الله؟ أظنّ هديل سوف تغضب، وكذلك الأولاد، ولكنّهم حتماً بعد فترة سوف يرضخون للأمر الواقع. أنا لن أكون أول ولا آخر من يتزوج على امرأته. نعم، أيام عصيبة تنتظرني، ولكنّ الحق يقال: سلوى تستحق! أتذكر دوماً كلام نايف حول حاجة الرجل لأكثر من

امرأة في حياته، ولذلك هو بحاجة للتعدّد، على خلاف المرأة، حيث يكفيها رجل واحد في حياتها.

أذهب إلى البيانو... أبدأ في عزف مقطوعة لشوپان: «نكتورن سي شارپ ماينور»، ولكنّني لا أكملها. أذهب إلى جهاز «الستريو»، وأضع سيمفونية بيتهوڤن الخامسة، لكي أستمع إلى طرقات القدر من جديد، ثم يأتيني صوت هديل من داخل المطبخ:

– «أخفض الصوت! ما كل هذا الإزعاج!!».

***

الطريق إلى فندق الفيصلية سيستغرق هذه الليلة حسب چوچل مايس: 45 دقيقة. أتحرك إذاً قبل الموعد بساعة، حتّى أصل إلى هناك مبكّراً... لا أريدها أن تنتظر. باقة الورود الحمراء اشتريتها وأنا في طريقي إلى البيت، وهي الآن في السيارة، بعيدة عن الأنظار. لا ينقصني الآن سوى الانطلاق إلى وجهتي... إلى سلوى!

***

أصل إلى مطعم لاكوتشينا قبل الموعد بربع ساعة. يرحب بي مدير المطعم، ثم يسألني عن الحجز، وكما توقعت، سلوى لم تصل بعد. يأخذني إلى طاولة قريبة جدّاً من المدخل، لكنّها لا تعجبني... أفَضِّل طاولة منزوية، وبعيدة عن المدخل، من أجل إضفاء المزيد من الخصوصية لجلستنا. تعجبني المطاعم ذات الإضاءة الخافتة؛ فهي تُضْفي جوّاً من الرومانسية على المكان... أغلب المتواجدين

في المطعم هنّ النساء. الرجال قليلون جدّاً؛ لماذا يا ترى؟ هل النساء يفضّلن صحبة النساء؟ أم أن المشكلة تكمن في الرجال؟ لعلّهم لا يفضلون الظهور مع نسائهم، خشية أن يراهم أحد؛ مع أنّهم لا يمانعون الظهور مع نسائهم في الخارج. هل المشكلة إذاً في البيئة السعودية؟ هل هي الخصوصية السعودية الّتي دائماً ما نسمع عنها دون أن ندرك طبيعتها وماهيَّتها؟ لا أدري، لماذا كل هذه الأسئلة تتساقط على ذهني؟ حتماً أنا قلق! ستصل سلوى في أية لحظة الآن... سنتناول العشاء معاً... سنتحدث... وسوف أقنعها بقبول الزواج منّي... سوف أقنعها بأن تقبل أن تصبح زوجة ثانية!

***

كم تبدو جميلة! من يراها لا يظن أبداً أنّها في الأربعين. هي ليست بحاجة لكي تضع الكثير من المساحيق على وجهها، فيكفيها القليل منها فقط لإبراز مفاتنها! أرى الفرحة في عينيها وهي تأخذ باقة الزهور الحمراء منّي. يبدو لي أنّها تفهم في لغة الزهور... يا ترى، هل زوجها السابق كان يهديها الزهور؟

– «أنا آسفة. تأخرتُ عليكَ قليلاً، ولكنّ الطرق جدّاً مزدحمة».

– «ولا يهمك. أنا كذلك للتو وصلت».

كذبة بيضاء؛ حتّى لا تشعر بالخجل على تأخرها.

– «تبدين في غاية الجمال، كما هي العادة طبعاً».

– «ثانكس».

– «أخبريني، كيف كان يومك؟».

– «أبداً، أنهيت اليوم العمل مبكّراً، فأخذت سلمان إلى درس الفروسية في حي السفارات».

– «لم أكن أعرف أن ابنك فارس».

تطلق ابتسامة ساحرة تجعل قلبي يخفق، قبل أن ترد على ما قلته.

– «بصراحة، أنا الّتي أغصبه على هذه الدروس. إن كان عليه، فهو يفضّل أن يبقى في البيت لكي يلعب على البلاي ستيشن».

– «كأنك تتحدثين عن أبنائي! الألعاب الإلكترونية أصبحت وباء العصر! الأطفال أصبحوا لا يرغبون في أي شيء آخر».

– «على أيامنا كانت الأتاري. هل تذكرها؟».

– «طبعاً أذكرها، ولكنّها كانت جداً متخلفة مقارنة مع ما نراه اليوم! لعبتي المفضّلة كانت پاك مان. ماذا عنك أنت؟».

– «فروچر... كنت أحب مساعدة الضفدعة المسكينة حتّى تقطع الشارع!»

تطلق ضحكة فاتنة، ومرّة أخرى قلبي يخفق!

– «من حسن الحظ أن تلك الألعاب لم تكن تجعل صاحبها يدمن عليها كما هو حاصل اليوم، وإلّا لما تعلمتَ العزف على الپيانو».

– «الموسيقى في دمي منذ الصغر. لا أعتقد أنّ شيئاً كان سيمنعني من تعلم العزف على آلتي المفضّلة».

– «هل تودّان الطلب الآن؟».

النادل يقاطع حديثنا من أجل أخذ طلبات الطعام! لا أدري لمَ كل هذه العجلة؟! المطعم أمامه ساعات قبل أن يُغلق أبوابه!!

– «أنا سأكتفي بالسلطة».

يبدو أنّها تود الحفاظ على رشاقتها. الحق يقال، إن جسدها كجسد فتاة في العشرين، ولا يعكس على الإطلاق إنجاب أربعة أطفال!

– «فقط سلطة!؟ ما رأيك لو نتشارك في طبق رئيسي على الأقل؟».

إن وافقتْ على مشاركتي في الطلب فستكون هذه إشارة مشجعة جدّاً على التقارب بيننا!

– «لا مانع... أنت اختَر، وأنا أشاركك».

رائع!!

– «سمعتُ أنّ اللازانيا هنا جيدة جدّاً. ما رأيكِ؟».

– «لا بأس. نأخذ طبق سيزر ساليد، وواحد لازانيا».

يبدو وكأن الليلة تسير لصالحي! فكل الدلائل تشير إلى أنّها تقبلت فكرة الارتباط بي!! يبقى فقط التصريح بذلك، وسأحصل عليه اليوم إن شاء الله!!

– «هل لديكِ عيادة خاصة مسائية، أم أنكِ مكتفية فقط بالعمل في المستشفى؟».

– «لا، ليست لدي عيادة في القطاع الخاص. يكفيني عملي بالنهار».

– «مع أنّ هناك طلباً كبيراً على جراحة التجميل في القطاع الخاص، وأجمل ما في الأمر أنّها خارج نطاق التأمين؛ يعني المراجع يدفع مباشرة دون وجود طرف ثالث».

– «صحيح، ولكنّ المال ليس كل شيء. الراتب الذي أحصل عليه يكفيني ويزيد. ماذا عنك أنت؟ هل تعمل في مستشفى خاص مساءً؟».

– «أنا مثلك مكتفٍ فقط بعمل النهار. فكرة أن أقوم بعمل شيء يخالف الأنظمة لا تروق لي، مع أن إدارة المستشفى من المفترض أنّها تغضّ الطرف عن الأمر، ولكنّ الحقيقة أنّها تغضّ الطرف فقط عمّن تريد. وعندما تغضب من طبيب، أو تريد الضغط عليه لمسألة ما، تبدأ في مساومته على عمله في القطاع الخاص، ومخالفته للأنظمة. لذلك أرحت رأسي، وفضّلت ألّا أعمل في القطاع الخاص مساءً كما يفعل أغلب الأطباء. لا أريد لأيّ أحد أن يمسك عليّ أيّ شيء قد يساومني عليه مستقبلاً».

– «كأنّني أفهم من حديثك بأنّ علاقتك مع الإدارة ليست على أحسن حال».

– «صحيح إلى حدّ ما، وليس فقط إدارة المستشفى، ولكن حتّى إدارة القسم. مع الأسف، علاقتي مع أحمد العميل، رئيس قسم جراحة القلب، مضطربة. ربما

لأنّه جراح متواضع ولا يطيق وجود من هو أفضل منه، خاصة عندما يكون الفرق واضحاً جدّاً في نتائج العمليات. تصوري أنّه في وقت من الأوقات كان يُشَنِّعُ عليّ، وعلى غيري من الجراحين، مُدَّعياً كذباً أن نتائجنا نحن السيّئة، وأننا نتعمد أخذ الحالات السهلة، ونترك له الحالات الصعبة!».

– «معقولة؟!».

– «أي والله! والمصيبة أن الإدارة الغبيّة صدَّقته. لكن سبحان الله، ربك يمهل، ولا يهمل؛ فعندما عُيّن مارتن زرتك فوقه، مديراً لمركز القلب، دبّ بينهما الخلاف، فأخذ مارتن يُخرج كل فضائح أحمد العميل».

– «يبدو أن مشاكل المستشفى لا تنتهي أبداً».

– «أنا آسف، يبدو أنّني دَوَشْتُك بمشاكل العمل. كان من المفترض ألّا نتحدث في مثل هذه الأمور».

– «لا أبداً، على العكس تماماً».

– «ما رأيك لو نتحدث في الأمر الذي التقينا اللّيلة من أجله؟».

لم تُعلق على سؤالي... شيء من الخجل بدأ يعتريها.

– «سلوى، أظنّك تدركين جيداً أنّني معجب بك، بل الأمر أكثر من مجرد إعجاب؛ فمنذ أن رأيتك وأنا أفكر فيك ليل نهار. وعندما التقيتك وتحدثت معك، تَيقَّنتُ من صدق مشاعري تجاهك».

– «طارق... أنت لم تتعرف عليّ إلا منذ فترة بسيطة جدّاً... ألا تظن أن الأمور تسير بشكل متسارع؟».

– «لا أظن أنّ للمشاعر مقاييس ثابتة... ثمّ ألا يقال إنّ الأرواح جنود مجندة، من تعارف منها ائتلف؟ لعلّ روحينا تعارفتا، فائتلفتا... ولكن السؤال: ماذا عنك أنت؟ هل تشعرين بشيء نحوي؟».

– «لو لم أكن أشعر لما وجدتني هنا، وقد قبلتُ دعوتك على العشاء؛ فليس من عادتي أن أقبل مثل هذه الدعوات من الرجال».

رائع! لقد حصلتُ منها على أول تصريح مباشر!! إنجاز عظيم!! الحمد لله، فالأمور تسير حتّى الآن كما تمنيت، وأكثر!

– «إذاً، لماذا لا نخطو الخطوة المنطقية التالية، وأتقدم لأهلك؟».

لحظات من الصمت، وكأنها تفكر في مسألة تشغلها، وتحَيِّر بالها...

– «لا أدري... لا أود أن أصبح خرّابة بيوت يا طارق!».

– «صدّقيني، لن تكوني أبداً خرّابة بيوت... سلوى، رجاءً لا تفكري بهذه الطريقة!».

– «كيف تريدني أن أفكر؟ ماذا ستفعل إن طلبَتْ منك زوجتك الطلاق؟».

سؤال ملغم، أكثر من مرّة خطر على بالي، ولكنّني كنت دائماً أنحّيه جانباً. ولكن الآن الأمر مختلف، إذ سلوى هي الّتي تطرحه عليّ... فلا بد من إجابة واضحة لا تترك أي مجال للشك.

– «إن أصرّتْ على الطلاق، فسوف أطلقها».

– «وماذا عن أبنائك؟!».

– «أنا لست مِلكاً لأحد، ولا حتّى أبنائي! هل يجب أن أبقى تعيساً من أجلهم؟!».

– «أليس هذا دور الأب والأم؟ أن يضحّيا من أجل إسعاد أبنائهما؟».

– «ولماذا لم تضحّي أنتِ من أجل أبنائك وتقبلي بالبقاء على ذمّة أبيهم؟!».

– «لأنه رجل سيّئ! خانني أكثر من مرة مع امرأة أخرى!!».

جعلتُها تنفعل! ما كان يجب عليّ أن أجعلها تنفعل هكذا... ولكن الأمر قد لا يكون بهذا السوء؛ فعلى الأقل وضّحت لها بأن الطلاق قد يكون في بعض الأحيان الملاذ الأفضل للجميع... أحسبها فَهِمتْ هذه النقطة... أظن.

– «سلوى... أدرك جيداً أن هذا الأمر ليس بالهَيِّن. ولكن، ألا تتّفقين معي بأن المشاعر الجميلة الّتي أخذت تنشأ بيننا تستحق الصبر على أية مصاعب قد نواجهها؟ من قال إن الحياة دائماً سهلة؟ المهم أن تكون النتيجة الّتي نرجوها تستحق العناء، أليس كذلك؟».

لقد هزّت رأسها، وإن كان على استحياء، ولكنّها حتماً هزّت رأسها بالموافقة على ما قلت! معنى هذا أننا قد تجاوزنا العقبة الأكثر أهمية: كوني متزوجاً! هذا أقصى ما كنت أتمناه في هذه المرحلة الحرجة... يجب عليّ الآن تغيير دفّة النقاش مرّة أخرى، حتّى لا يكون حديثنا كله همّاً ونكداً وغمّاً!

– «حَذِّري أين سأكون بعد يومين؟».

– «أين؟».

– «في لندن. سوف أحضر افتتاح مسرحية أمريكي في باريس. حجزت التذكرة منذ عدة شهور، تَصَوَّري!».

– «لم أسمع بهذه المسرحية من قبل».

– «هي مسرحية غنائية مبنية على فيلم يحمل العنوان ذاته تمّ إنتاجه في الخمسينيات، وقام ببطولتها حينها الفنان الاستعراضي الشهير جين كيلي. الفيلم، وكذلك المسرحية، يعتمدان في المقام الأول على أغانٍ شهيرة من تأليف جورج جيرشْونِ. الفيلم كان رائعاً جدّاً، وقرأت أن المسرحية لا تقل روعة عنه... هل تحبين مشاهدة المسرحيات الغنائية؟».

– «بالطبع. عندما كنت في نيو يورك شاهدت مسرحية كاتس للمرّة الثانية، ولقد استمتعت بها أكثر من المرّة الأولى. ربما لأنّني في هذه المرّة كنت بمفردي؛ على خلاف المرّة السابقة الّتي كنتُ فيها مع سعود، وكدنا نخرج من منتصفها لأنّه شعر بالملل!».

– «سعود؟».

– «المعذرة، حسبتُ أن الدكتور أحمد أخبرك باسم طليقي: سعود الحسن».

– «سعود الحسن صاحب مقهى نيس؟!».

– «نعم هو. هل تعرفه؟».

ذلك الرجل المغرور، الغثيث، هو زوج سلوى السابق؟!! مفاجأة لم تخطر على البال أبداً.

– «معرفة سطحية عن طريق صديق مشترك: نايف القاضي».

– «لا أعرفه... وعلى هذا، أين قابلت «سعود»؟».

– «فقط في المقهى، في المرّات القليلة الّتي ذهبت فيها إلى هناك».

– «أظن أن زوج دينا، سلطان العميم، هو أيضاً من روّاد مقهى نيس. أكيد التقيته هو الآخر».

– «نعم، ولكن كذلك معرفتي به سطحية؛ بل لو لم يخبرني نايف ذات يوم على انفراد بأن زوجة سلطان هي الدكتورة دينا السعيد لمَا عرفت، فهو لم يذكرها قط أمامي؛ بالرغم من علمه بأنّني أعمل بالمستشفى ذاته الّذي تعمل به زوجته».

– «لأنكم معشر الرجال السعوديين لا تحبون التحدث أبداً عن نسائكم، ولا حتّى تذكرون أسماءهن، خشية الحرج؛ ولكن فور السفر إلى الخارج، الأمر ينقلب مئة وثمانين درجة... هي الخصوصية السعودية، على ما يبدو».

أبتسم لنقدها الساخر... كلامها صحيح، فلا يسعني إلّا أن أوافق على ما تقول... لكن... لعلّ هناك سبباً آخر لعدم ذكر سلطان سيرة زوجته أمامي... سبب يتعلق بسيرة أم عبد الله ونسائها! لا أظنّ سلوى تعلم أي شيء عن نشاط زوج دينا الجانبي، ونشاط طليقها سعود!

– «دينا السعيد صديقتك، أليس كذلك؟».

– «هي أكثر من مجرد صديقة. هي كاتمة أسراري».

– «أعلاقتكما قويّة لهذا الحد؟».

– «بل وأكثر».

– «هل هي سعيدة مع زوجها؟».

تنظر إليّ سلوى باستعجاب... كأنّها تقول في خاطرها: سؤال غريب، ليس له معنى!

– «سعيدة جدّاً... أظنّها وسلطان أسعد زوجين صادفتهما».

إذاً، سلوى حتماً لا تعلم شيئاً! ولكن، هل يا ترى دينا، هي الأخرى، لا تعلم شيئاً عمّا يفعله زوجها؟ أم أنّها تعلم وتغضّ الطرف حتّى تسير القافلة، وتكتفي بالتظاهر أمام صديقاتها بالسعادة؟ على أي حال، هذا أمر لا يعنيني، وكفى بنا حديثاً عن سلطان العميم، وسعود الحسن!

– «هل تعلم دينا عن أمرنا شيئاً؟ هل أخبرتها؟».

– «لا، ليس بعد، ولكنّني حتماً سوف أخبرها في لقائنا القادم».

أنظر إلى سلوى مبتسماً، ثم أسألها بخبث:

– «وماذا سوف تقولين لها يا ترى؟».

تصمت قليلاً وكأنّها تفكّر، ثم تردّ عليّ وقد رسمتْ هي الأخرى ابتسامة على وجهها:

– «سوف أقول لها إنّ طبيباً مرموقاً، ولطيفاً جداً، يرغب في الزواج منّي».

– «فقط؟ أهذا كل ما سوف تقولينه؟».

– «وماذا تريدني أن أضيف؟! أوليس هذا كل ما حدث؟».

تتساءل بنبرة يملأها الدلال. هي تدرك جيدّاً ما الّذي أرمي إليه... لكن لا بأس؛ فالدلال يزيد النساء جمالاً.

– «ألن تخبريها بأنّ الذي تقدم إليك هذا، أخذت تنشأ بينك وبينه عاطفة جميلة الكثير من الناس يحلمون بأن يصادفوها ولو مرّة واحدة في حياتهم؟».

وجنتاها تَحمرّان من الخجل... كمْ تبدو جميلة، وهي خجولة!

– «أنتَ تتمنّى أن أقول لها هذا».

تردّ عليّ بصوت خافت يكاد لا يُسمع.

– «واحد سيزر ساليد، وواحد لازانيا».

حسبي الله على هادم اللّذات! توقيت النادل جدّاً سيّئ!! هل كان يتعمّدها؟!

- «شكراً... ضعهما في المنتصف، لو سمحت».

جاء الطعام، وانقطع الكلام... لكن بشكل عام، لا يسعني إلّا أن أقول: إنّ اللّيلة تسير على أحسن ما يرام... لقد فاقت توقعاتي! أظنّ أن العلاقة بيننا أنا وسلوى، قد قطعت شوطاً كبيراً... نعم، أنا حتماً أحبها، وأظنّها هي الأخرى قد بدأت تحبّني، إن لم تكن تحبّني بالفعل! لقد رمى كيوبيد بسهامه، فأصابت قلبينا... لا مجال للإنكار الآن!

26

سلوى

يا لها من ليلة عجيبة! كان من المفترض أن أضع النقاط على الحروف، وقد فعلت، ولكن تبَيَّن لي أنها غير الحروف الّتي توقعتها! يبدو وكأنّني تأثّرت بكلامه، وبعاطفته الجيّاشة نحوي. أظنّها عاطفة صادقة، وإن كانت مُتَسرِّعة. فارق كبير بين طارق وسعود. ليته كان هو الذي تقدم إليّ وتزوّجني منذ عقدين. كم كانت ستكون حياتي حينها مختلفة! أظنّني رفعت الراية البيضاء واستسلمت له، عندما ناولني باقة الزهور الحمراء... كم كانت لفتة جميلة منه! إنّه حسّ الفنّان المرهف. لحسن حظه أن الجراح فيه لم يطغَ على الفنان، وإلّا كانت الأمور آلت إلى غير ما انتهت عليه! الساعة تجاوزت الواحدة بعد منتصف اللّيل، ولا أشعر برغبة في النوم؛ بل أرغب في استرجاع تفاصيل ما جرى على العشاء، لحظة بلحظة، منذ أول ما استقبلني بباقة الزهور الحمراء، وحتّى ودّعني عند باب الفندق. قضينا ثلاث ساعات دون أن نشعر. مرّت علينا وكأنها ثلاث دقائق! هو ليس سعيداً في حياته الزوجية؛ هذا ما استشفيته من حديثه. المسكين، حاله الآن كحالي قبل أن أخلع «سعود»! ليته اتّخذ القرار الشجاع، وأنهى زواجه الفاشل، قبل البحث عن البديل؛ ولكنّه لم يفعل... الطلاق أمر ليس بالهيِّن، ولكنه في أحيانٍ كثيرة يكون الملاذ الوحيد. لكنّني شعرت من حديثه بأنه على أتم استعداد لاتخاذ تلك الخطوة الجريئة! أظنّه سوف يطلق زوجته، ولكن لن أطلب منه أنا ذلك! لا، لن أكون سبباً في هدم كيان أسرة!! إن أراد هو تطليقها، فهذا شأنه... حتماً زوجته لن تقبل

أن يتزوج عليها، وستطلب منه الطلاق. هذا حقها. لماذا تستمر مع رجل لا يحبها، ويحب غيرها؟! يجب أن تدعه يرحل، ولعلّ الله يُعَوِّضها بمن يحبها ويسعدها... ولو أنّه من الصعب أن تجد شخصاً مثل طارق؛ جراح قلب ناجح، وفنّان مرهف الحس، ووسيم، و... الحق يقال، أي امرأة عاقلة تتمنى أن يكون مثله زوجها... ولكن... ليته لم يكن متزوجاً... لا شيء يكتمل في هذه الحياة... أنا بحاجة للتحدث مع دينا، ولكن ليس على الهاتف، بل وجهاً لوجه. أحتاج إلى مشورتها. سأكلّمها في الصباح، وأرتّب معها لقاءً في السبا. لعلّي أحجز حجرة الجاكوزي الخاصة لأتحدث معها بجسد مرتخٍ وسط الماء الدافئ، وبذهن صافٍ. دينا تحب مثل هذه الأجواء، وكذلك أنا...

***

– «لم أكن أعلم بأن نفوذك يصل إلى حدّ حجز الحجرة الڤي آي پي، في اليوم نفسه! مع أنّني زبونة دائمة هنا، إلّا أنّني في العادة بحاجة إلى أسبوع على الأقل، إن لم يكن أكثر، من أجل حجزها!».

دينا تنتقل إلى الجاكوزي، بعد أن فرغت من مساج الحجر الدافئ، وأنا أتبعها. أجمل ما في الحجرة الخاصة أن جميع أنواع التدليك متوفرة على مدار فترة الحجز. حقّاً، لا يوجد في الرياض أفضل من سپا الريم... أعرف جَيِّداً كيف أجعل دينا تُفَرِّغ لي نفسها!

– «ألم أخبرك بأن ريم الحمامي، صاحبة السپا، زبونة مستديمة عندي؟ أجريت لها ما لا يقل عن خمس عمليات تجميل».

– «خمس عمليات تجميل!».

– «نعم، ما بين إبراز الوجنتين، وتعديل الأنف، ونفخ الشفتين، وتكبير النهدين والردفين، ورفع الحاجبين، وطبعاً شفط الدهون..».

– «حيلك، حيلك! ما كل هذا؟! وأنا الّتي كنت أحسب جمالها طبيعياً!».

– «لا يا عيوني، بل هو من صنع إيدَيّا، وحياة عينَيّا!».

أردّد العبارة المصرية الشهيرة الّتي لا أذكر من أي فيلم سمعتها، ثم أطلق ضحكة مرِحة تنمّ عن سعادتي الغامرة.

– «سلوى! ... ماذا أصابك اليوم؟ تبدين لي مختلفة... ما الحكاية؟».

– «يعني حرام أكون سعيدة؟!».

– «لا طبعاً؛ لكن يبدو لي، وكأنّ هيك سعادة مبالغ بها حَبْتين!».

تعجبني اللّهجة اللّبنانية الّتي تتسلّل إلى حديث دينا كل فينة وأخرى... تأثير أمّها اللّبنانية بلا شك. الحق يقال، إنّ كل شيء في دينا يعجبني؛ لهذا هي أعز صديقاتي، وكاتمة أسراري. آن الأوان لكي أبوح لها بكل شيء...

– «طرأ شيء جديد في حياتي. لم أكن أرغب في التحدث معك فيه حتّى تتّضح الأمور، وقد اتّضحت ليلة أمس».

– «خيراً؟».

– «هل تعرفين الدكتور طارق أيوب جرّاح القلب؟».

– «معرفة من بعيد فقط... ولكن، لماذا السؤال؟».

– «التقيته أكثر من مرّة... يريد الزواج منّي».

– «مبروك! أنا صحيح لا أعرفه، ولكنّه يبدو وسيماً... هو لم يسبق له الزواج من قبل؟».

– «بل تزوج..».

– «يعني أنه مطلّق مثلك».

– «لا... بل لا يزال متزوجاً، ولكنّه غير سعيد في زواجه!».

– «سلوى، ماذا أصابك؟! أكيد رفضته! لا تقولي لي إنّك تفكرين جدّياً بالأمر!!».

– «رفضته في بادئ الأمر عندما فاتحني فيه الدكتور أحمد، ولكنّ «طارق» أصرّ على محادثتي، ثم تقابلنا أكثر من مرّة، ثم..».

– «ثمّ ماذا؟! الأمر لا يوجد فيه ثمّ يا سلوى!! هذا رجل متزوج! كيف تقبلين على نفسك أن تكوني زوجة ثانية؟! ماذا سيقول عنك الناس؟! المرأة الّتي لفّت حبالها حول رجل متزوج!! أنت أفضل من هذا! استشارية مرموقة في مستشفى عريق. لا تضيّعي كل هذا من يدك من أجل مسألة لا تستحق!!».

– «صدّقيني يا دينا، أنا مثلك، وأتّفق معك تماماً في مسألة التعدّد، ولكن الشأن مختلف مع طارق... هو يحبني، وأخبرني بأنّه تعيس مع زوجته».

– «ماذا عنك أنت؟ هل تحبينه؟».

– «أشعر بعاطفة تجاهه... لا أعلم إن كان هذا هو الحب أم لا، ولكنّني حتماً أشعر بشيء!».

– «إن كان فعلاً يحبك، ولا يحب زوجته، وحياته معها تعيسة فليطلقها».

– «هو أخبرني بأنّه على استعداد لأن يطلقها لو طلبت هي منه الطلاق بعد زواجنا، وحتماً ستطلب؛ فلا توجد امرأة اليوم تقبل أن يتزوج عليها زوجها».

– «يعني يتزوجك ثم احتمال يطلقها؟! لا يا سلوى! في كلتا الحالتين الأمر سيّئ لك... إن طلّقها فسَتُلامين أنتِ! وإن لم يطلقها، فماذا ستفعلين؟ هل ستتحملين أن تشاركك امرأة أخرى زوجك الذي تحبينه؟!».

لم أفكر في المسألة من هذا الجانب... سؤال دينا عن تقبل مشاركة طارق مع زوجة أخرى أعاد إليّ ذكريات سعود المؤلمة، وخياناته المتكرّرة! أن تشاركني امرأة أخرى في طارق... بدأتُ أتخيل المنظر... يتركني أبيت وحدي، ويذهب هو إلى فراش زوجته الأخرى... يعاشرها!!

– «ولكنّه لا يحبها! حتماً سوف يطلقها!!».

– «إذاً، يطلقها أولاً، ثم يتقدم لخطبتك، وليس قبل ذلك».

– «لا أستطيع أن أطلب منه أن يطلقها! مستحيل يا دينا!! هذا أسوأ!!».

– «ومن قال لك أن تطلبي منه أن يطلقها؟ أخبريه فقط بأنك لا تستطيعين الزواج منه لأنه رجل متزوج، وأنك ضد مبدأ التعدّد، ودعيه هو يفعل الباقي... إن كان يحبك كما تقولين فسوف يطلقها، دون أن تطلبي منه أنتِ ذلك، وبعدها يكون لكل حدث حديث».

– «لا أدري يا دينا..».

لقد أصابني حديثها بالحيرة... كلامها منطقي، ولكن... لا أدري، لماذا تهيأت بأنّ حديثنا سوف يسير على خلاف ما سار عليه؟! كأنّني لا أعرف دينا السعيد، وموقفها من التعدّد! لعلّي كنت بحاجة لكي أسمع صوت العقل بعد أن أخذتني العاطفة... طارق رجل لطيف جدّاً، وأحسبه صادقاً في مشاعره، ولكن... ولكنه متزوج! كيف سيكون مظهري أمام صديقاتي إن وافقت على الزواج منه؟ ماذا سَيُقال عنّي؟! كيف سأبدو أمام أولادي؟! سعود لن يتركها فرصة، وسوف يُشَنِّع عليّ حتماً!!

«خطّافة الرجال»!

لا أدري ماذا أفعل! أنا بحق في حيرة!!

27

طارق

كانت المسرحية جميلة كما توقعت، وأكثر. استطاع المخرج تجسيد أغاني جورج جيرشْوِن وموسيقاه بشكل مذهل يفوق الوصف! لم ينقصني شيء في تلك اللّيلة اللندنية الرائعة سوى سلوى. ليتها كانت معي، تشاركني هذه السهرة؛ أعلم أنّها كانت ستستمتع بها مثلي تماماً... اتّصلت بها، ردّت عليّ، ولكن كانت نبرة صوتها مختلفة؛ لا أدري كيف أصفها، ولكن... كأنها مهمومة. ربما بعد المسافة. لعلّها اشتاقت إليّ بعد تلك المقابلة الرائعة على العشاء في مطعم لاكوتشينا. حاولت أن أستفسر منها، دون إلحاح، ولكنّني لم أتمكن من إخراج منها أي شيء مفيد. ذكرت لي أنّها تحدّثت عنّي مع صديقتها الدكتورة دينا السعيد، دون أن تخبرني بتفاصيل ما جرى بينهما؛ وإن كانت قد ذكرت أيضاً أنّها ستعاود الحديث معها في الأمر مرّة أخرى بعد رجوع دينا من رحلتها إلى أمريكا. يبدو أن حديثهما في المرّة الأولى كان مقتضباً، وعلى عجل. أنا واثق بأن دينا لم يعجبها الأمر على رمّته! مع أنّني لم ألتقِ بها من قبل، إلّا أنّني سمعت الكثير عنها حتّى فهمتُ شخصيتها، وقد صادفت في حياتي هذه النوعية من النساء: الاستشارية المرموقة، المتزوجة من رجل أعمال غنيّ؛ لا شيء يهمها في الحياة مثل المظاهر الاجتماعية الكذّابة! «پريستيجها» أمام الناس! حتّى إن كان زوجها يخدعها؛ فطالما أنّه يفعل ذلك من وراء ستار، فلا يهم! أخشى أن تكون عقبة أمامنا أنا وسلوى؛ وإن كنت على ثقة بأنّ العاطفة القويّة الّتي أخذت تنشأ بيننا ستتجاوز كل الصعاب. أن يجد الإنسان الحب الحقيقي في

هذه المرحلة من حياته، أمر ليس بيسير! لعلّي أكون حالماً، ولكن مع جمود الحياة من حولنا وقسوتها، ألا تصبح الأحلام ملاذنا الأخير؟

***

أتيت إلى لندن مرّات كثيرة، وبالرغم من ذلك، ما زلت أذكر تلك الزيارة من صيف عام 1990. شهر أغسطس الّذي احتل فيه صدّام الكويت... شهر أغسطس الّذي شهد بداية نهاية علاقتي بمنال. وعلى الرغم من حبي لمدينة الضباب، إلّا أنّني لم أزرها في فصل الصيف منذ ذلك العام، واقتصرت زياراتي لها على باقي فصول السنة، وبالأخص فصل الشتاء. فصل الصيف في لندن كان مليئاً بالذكريات الجميلة، وكذلك الحزينة... شعور غريب أن ترغب في نسيان الذكريات المؤلمة، وعدم نسيانها في الوقت ذاته، وكأنك تخشى إن زال الألم مع النسيان أن يذهب ويأخذ معه جزءاً من كيانك الّذي يجعلك أنت. نعم، فالألم حقٌ مكفول لكلّ إنسان، وإلّا يكون من غيره أشبه بالجماد.

حاولت أن أبتعد عن مدينة لندن عدّة سنوات، ولكنّني في الأخير لم أستطع. انجذبت إليها، وللذكريات الّتي صنعتُها هنا في الماضي مع منال، والّتي آمل أن أصنعها مستقبلاً مع إنسانة أخرى مثل سلوى...

***

وسط تأملاتي، أجلس في ردهة فندق هلتون پارك لين. الأسعار خارج المواسم دائماً ما تكون أرخص بكثير. أمطار لندن لا تزعجني، بل أراها ميزة لشخص مثلي يعيش وسط الصحراء، حيث الأمطار شحيحة. لم أرَ الشمس في

سماء لندن منذ أن أتيت، ولكنّني كنت أراها كل يوم في سماء الرياض؛ لذلك أنا لست مستاءً، على خلاف الكثيرين هنا... أفكر أن أرتدي معطفي، وآخذ مظلّتي، وأسير نحو حديقة الهايد پارك...

عزمتُ أمري، وها أنذا أتّجه إلى بوابة الفندق لكي أغادره. لسبب ما، أنظر إلى يميني نحو مدخل مطعم تريدر ڤيكس، ثم أتوقّف فجأة عن السير؛ ردّة فعل غير مقصودة لرؤيتي زوجها السابق!

– «دكتور طارق... ما هذه المصادفة الجميلة؟!».

سعود يترنح من السكر، وبجواره امرأة في غاية الجمال، واضعة ذراعها حول خصره. رائحة الكحول تفوح منهما؛ لعلّ هذا يفسر مرحه غير المعتاد... ولكن، من هي هذه الّتي معه؟ من معرفتي به، لا أستبعد أن تكون عاهرة من عاهرات لندن الشهيرات، من اللّواتي لا يخرجن إلّا مع أصحاب المال الوفير...

– «أهلاً سعود. لم أكن أعلم أنّك في لندن».

– «إجازة... سريعة لم أخبر بها أحداً... ولكن... ماذا تفعل أنت هنا؟ مؤتمر طبي؟».

العجيب أنّه يواصل الحديث معي، غير آبه برؤيتي له في وضعه الحالي، بل أكاد أجزم أنّه... أنّه سعيد لأنّني رأيته!

– «لا، بل إجازة سريعة أيضاً، من أجل مشاهدة مسرحية أمريكي في باريس».

- «رأيتُ دعايتها في الشوارع! أتستحق المشاهدة؟».

المرأة الّتي مع سعود تتحدث العربية، وبلهجة نجدية! إذاً، أغلب الظن هي ليست من عاهرات لندن، إلّا إذا كانت من المغربيّات اللّواتي يتظاهرن بأنهن سعوديات؛ لقد شاهدت ذلك الصنف من قبل. لسبب ما، المغربيات يجدن اللّهجة الخليجية أكثر من أي جنسية أخرى مرّت عليّ؛ لا أدري ما السرّ في ذلك؟ تبدو سعيدة مثل رفيقها؛ أظنّه من أثر الشراب، وليس لرفقة هذا اللّطخ الذي معها!

- «جدًّا تستحق، إن كنتِ من هواة المسرحيات الغنائية».

- «أنا أهوى أشياء كثيرة... كثيرة جدًّا».

تنغز خصر سعود، ثم تطلق ضحكة مسموعة دون مراعاة لأيّ حرج. لا أدري ماذا شربت، ولكن يبدو أنّ مفعوله قوي جدّاً، وواضح للعيان! حتّى سعود بدأ يطلق ضحكات متقطعة، ولكن خافتة... حقيقة، أشعر بالحرج لوقوفي معهما وهما في هذه الحالة من السكر! أظنّ أنّ أنظار المتواجدين في الفندق قد بدأت تتّجه نحونا؛ لحسن الحظ أنّهم ليسوا بكُثُر!

- «فرصة طيِّبة يا سعود... أراك لاحقاً».

- «على فين؟! تناول معنا القهوة... بالمناسبة... نسيت أن أعرّفك؛ هذه أجمل نساء العالم، ريم الحمامي، زوجتي».

– «زوجتك؟!» خرجت منّي دون أن أشعر... آااه، تذكرت الآن... أم عبد الله؛ هذه حتماً عن طريقها.

– «وهذا أحد أصدقائي، الدكتور طارق..».

من الواضح أن هذا الأهبل يحاول تذكّر اسم عائلتي، ولكن دون جدوى! والله لن أساعده وأملأ له الفراغات. سأدعه هكذا في حرجه!

– «هو جراح قلب شهير!» يواصل الأخرق بعد أن يئس من استعادة اسم عائلتي!

لا أدري، كيف وافقت سلوى على الزواج من شخص مثله؟! لكنّ أفضل ما فعلَتْه أنّها تخلّصت منه، وخلعته!!

– «وكذلك عاشق للمسرحيات الغنائية! أهلاً وسهلاً دكتور طارق... تشرفت بمعرفتك.» المرأة الجميلة الّتي اسمها ريم تمازحني، وكأنّها تعرفني؛ هذا كذلك من أثر الكحول بلا شك. لكنّ الحق يقال، أم عبد الله هذه تعرف كيف تختار نساءها! فمن مقياس واحد إلى عشرة، ريم تستحق عشرة دون تفكير! يا ترى، كم كلّفت هذا اللّطخ؟

أظنّ قد آن الأوان لكي أنهي هذه المهزلة الّتي طالت عن حدها!

– «الشرف لي، ولكنّني أعتذر عن القهوة؛ لديّ موعد مهم. فرصة أخرى إن شاء الله».

أغادر الفندق على عجل، دون انتظار ردّ من أيهما... لا أدري لماذا أشعر بالغيرة من سعود؟! فهذا الأهطل يحظى بالجميلات، الواحدة تلو الأخرى!!

***

لم يتبقَّ لي من رحلة لندن سوى يوم واحد فقط... لكم اشتقت إلى رؤية سلوى! عزائي الوحيد أنّني هنا في متجر هارودز، من أجل شراء خاتمٍ جميل من الماس، أهديها إياه بعد ترتيب لقاء معها في حديقة المستشفى، بعد انتهاء دوام يوم الخميس. أتخيل المنظر وكأنّه حاصل الآن: أنتظرها في زاوية الحديقة المخفية عن الأنظار؛ تُقْبِل عليّ، وعلى وجهها أرى سعادة غامرة لرؤيتي بعد أيام من الغياب، فأفاجئها بالنزول على ركبتي، كما في الأفلام، وأقدم لها الخاتم، عارضاً عليها أن تقبل الزواج منّي! ستكون حتماً مفاجأة جميلة تسرّها، لا شكّ عندي...

أدخل متجر هارودز شاعراً بالسعادة والتفاؤل والأمل في حياة جديدة كلها مسرّات! لست من هواة التسوق، ولكن كما يُقال في الأمثال: من أجل عين تكرم مدينة... أسير بين محلاته الفاخرة، حتّى أجد نفسي في الركن المصري. سمعت عن نُصب تذكاري فيه للأميرة ديانا وصديقها المصري دودي؛ ابن الملياردير محمد الفايد من زوجته السعودية سميرة خاشقجي، أخت تاجر السلاح عدنان خاشقجي. قرأت أن محمد الفايد أقام ذلك النصب عندما كان يمتلك متجر هارودز، قبل أن يبيعه للقطريين، بل واشترط عليهم أن يبقى ذلك النُصب التذكاري قائماً، من أجل أن تتم الصفقة...

في قبو الركن المصري، ذي الطابع الفرعوني بامتياز، أرى أمام السلالم الكهربائية صورة للأميرة ديانا، وبجانبها صورة لدودي الفايد، وأمامهما هرماً زجاجيّاً صغيراً تتوسطه كأس نبيذ شربت منها ديانا قبل موتها عندما كانت في فندق الرتز بباريس، وبجانب الكأس وُضِع خاتم جميل من الماس: كان من المفترض أن يهديه دودي لديانا، ولكنّ القدر كان أسرع منه... ولكن هناك جانباً آخر لقصة ديانا مع دودي؛ وجهة نظر تقول إنّها كانت تستخدمه فقط من أجل إثارة غيرة حب حياتها الحقيقي، الدكتور الباكستاني حسنت خان؛ وهو جراح قلب بالمناسبة! الّذي قرأته أنّه كان مغرماً بها جدّاً، وكان سيتزوجها، ولكنّ الأضواء الشديدة الّتي كانت تصاحب أميرة القلوب جعلته يبتعد عنها؛ المسكين لم يتحمل تتبّع الصحف لحياتهما الخاصة. لقد تجاوز الأمر برُمّته قدرته على التحمل، فآثر الابتعاد عن حبيبته، فانكسر قلب ديانا المسكينة، ولهذا لجأت لصديقها دودي لكي يواسيها في وحدتها؛ ولعلّها كذلك تثير به غيرة حبّها الحقيقي، فيرجع لها نادماً على ما فعل! هل يا ترى كانت ستنجح تلك الخطة؟ وهل كان دودي يعلم بها؟ لقد ذهب الرجل ضحية خطّة أميرة القلوب الماكرة! ومن الحب ما قتل!!

سئمتُ من هذا النصب السخيف، ولعلّي الآن أواصل رحلتي من أجل إيجاد خاتم الماس الخاص بأميرة قلبي أنا... أصعد إلى الطابق الرابع حيث قسم المجوهرات. أسير نحو ركن الخواتم، فتلتقط عيناي امرأة أعرفها، تقف بمحاذاة وجهي، تتفحّص ساعة رولكس رجالية... تبدو لي دينا السعيد مختلفة بعض الشيء من غير غطاء الرأس الّذي ترتديه عادة في المستشفى. هي بلا شك امرأة

أنيقة، ولكنّني لا أزال أعتقد أنّها كانت أجمل قبل إجراء عملية نفخ الشفتين. لعلّها أجرتها من أجل زوجها سلطان. المسكينة لا تعلم بأنّها مهما فعلت من أجل ذلك الرجل، فسيبقى دائماً زير نساء كبيراً! لكنّني أذكر أن سلوى أخبرتني بأنّها سافرت إلى أمريكا... ربّما رغبتْ في كسر طول المسافة عبر المكوث في لندن بضعة أيام... أشعر برغبة في الذهاب إليها ومصافحتها، خاصة بعدما حكت لها سلوى عنّا. بما أنّني سوف أتزوج قريباً من أعز صديقاتها، فلعلّه من الأنسب أن أذهب وأسلّم عليها؛ وهي فرصة من أجل التعرّف عليها أخيراً عن قرب...

- «أهلًا دكتورة دينا... لا أدري إن كنتِ تعرفينني أم لا؟ أنا..».

- «أهلين دكتور طارق. طبعاً أعرفك... كيفك؟».

غريبة... لسبب ما أشعر وكأنّني تحدثت معها من قبل، مع أنّني لا أذكر لقاءً جمع بيننا قبل اليوم... لعلّنا التقينا في اجتماع بالمستشفى قبل سنوات عديدة، ونسيت... يا إلهي! كم هو عدد السنين الّتي عَدّت عليّ في المستشفى؟!

- «أنا آسف لو كنتُ قطعتُ عليكِ التسَوُّق».

- «لا، أبداً... فقط كنتُ... كنتُ أبحث عن ساعة لزوجي».

- «يا حظ سلطان!».

- «أنتَ تعرف زوجي؟!».

كأنّها تفاجأت؟!... الوغد لم يذكر لها أنّه يعرفني!

– «نعم. التقيته عدة مرّات في مقهى نيس».

– «آااه... المقهى».

يبدو وكأنّني أحرجتها. ربمّا سلطان من النوع الّذي لا يحب الخلط بين عمل زوجته وحياته الخاصّة... أتفهم ذلك.

– «على العموم، فرصة طيّبة... إلى اللقاء، وأعدك بأن لا أفصح عن سرّك».

– «سرّي؟! عن أي سرٍّ تتحدث؟!».

يا إلهي! ماذا أصاب هذه المرأة؟!! ما كل هذا الانفعال المبالغ فيه من أجل هديّة لزوجها؟!

– «أقصد الساعة... أكيد ترغبين في مفاجأة سلطان بها».

– «نعم... أكيد طبعاً... أرجو ألّا تخبر بها أحداً».

والله هذه أعجب زيارة قمت بها إلى لندن! قابلتُ صدفة «سعود» البارحة مع زوجته الجديدة، إن كان يصح وصفها بالزوجة، وهما في حالة سكر. والآن أقابل دينا، وهي تشتري هديّة لسلطان... لم يتبقَّ غير نايف، وتكمل الشِلّة!

من هذا؟! ماذا يفعل هنا هو الآخر؟! ما أكاد أبتعد عن دينا السعيد حتّى أرى من بعيد مارتن زرتك، متّجهاً نحو محل المجوهرات... ليس الشخص الّذي أود رؤيته اليوم! ما هذا الّذي يحدث؟! كأن جميع سكّان الرياض قد قرّروا المجيء إلى لندن في الوقت نفسه الّذي جئت أنا فيه!!

أتّجه خلف عمود بيني وبينه حتّى لا يراني، ويستوقفني للحديث. أختلس النظر مرّة أخرى نحوه، حتّى أتبين إلى أين أتّجه؟ عجيب، كأنّه متجه نحو... ولكن، لماذا؟ هذا أمر غريب! يتوقف عند... عند دينا؟! ويميل نحوها لكي... يُقبِّلها؟! لكنّها تدفعه بتوتر ملحوظ، ثم تقول له شيئاً، ممّا يجعله فجأة يلتفت من حوله إلى كل مكان وقد أصابه القلق، وكأنّه يبحث عن شيء ما... بل... بل هو يبحث عنّي!

يا إلهي، الآن فهمتُ كل شيء! أجد نفسي أخرج هاتفي الذكي دون تفكير، وألتقط صورة لهما... لا أعلم لماذا فعلت ذلك؟! ولكنّني فعلت عندما تيقّنت دون أدنى شك، بأنّ المرأة الّتي كانت في مكتب مارتن زرتك تلك الليلة، هي زوجة سلطان، وصديقة سلوى... دينا السعيد!!

28

سعود

طبيعة العلاقة الّتي بين سلوى وريم لا تزال تُحيِّرني! الحديث الذي دار بينهما على الجوّال كان مقتضباً؛ والّذي تمكّنت من فهمه أنّ سلوى أرادت شيئاً من ريم؛ خدمة ما! كيف يمكن لأم أولادي، الاستشارية المرموقة، أن تكون على علاقة وثيقة مع امرأة مثل ريم؟! وما هي هذه الخدمة الّتي يمكن لريم أن تقدّمها لها؟!! حاولت أن أستفسر عن الأمر بطريقة غير مباشرة، دون أن أبيّن طبيعة علاقتي بسلوى، ولكنّني لم أسفر عن شيء؛ كانت ريم مقتصدة جدّاً في كلامها، كما هي عادتها كلّما دار الحديث عن حياتها الخاصة... فكّرت أكثر من مرّة في أن أصارحها، وأخبرها بأن سلوى طليقتي، ولكنّني أخشى أن تؤثر هذه المعلومة على علاقتنا الحميمة، خاصّة لو كانت تربطهما صداقة ما. لعلّي أستطيع إخراج شيء من ريم أثناء رحلتنا إلى لندن الّتي أعتبرها بمثابة شهر عسل مختصر! لذلك، قمت بحجز جناح شهر العسل في فندق هلتون پارك لين... لكم وددتُ أن تكون إقامتنا في الدورشستر، لكنّني مع الأسف لم أجد الجناح المطلوب؛ ربما المرّة القادمة... أرجو أن تُقرِّب هذه العطلة القصيرة بيننا. لا أريد أن أكون مجرد زوج مسيار آخر بالنسبة لريم. أريد أن أعرف كل شيء عنها. أتمنى أن تصل علاقتنا إلى الحد الذي نثق فيه ببعضنا، ونبوح فيه بأسرارنا؛ ولعلّ أول سر أود معرفته، هو طبيعة العلاقة الّتي تربطها بسلوى!

***

أربع وعشرون ساعة في جناح شهر العسل ما بين السرير والجاكوزي! أخشى أن أصاب بذبحة صدرية لو استمررنا على هذا الحال!! يا إلهي، كم هي رائعة!!! فعلاً، تستحق كل ريال دفعته لها، ومن أجلها... يكفيني فقط الاستمتاع بالنظر إلى جمالها الأخّاذ الّذي لم أرَله في حياتي مثيلاً. والله إن النظر إليها فقط مفعوله أقوى من مفعول الڤياچرا! كيف يمكن لامرأة أن تكون بهذا الجمال؟! لا أعلم... لكنّ ما أعلمه هو أنّها الآن ملكي! نعم، ملكي أنا وحدي! لكم أشتاق للخروج معها، والتجوال حول لندن، خاصة في أماكن السهر الشهيرة في سوهو، وپيكاديلّي، وكنسنچتون، لكي يراني الناس وهي تتأبط ذراعي، فيشعرون بالغيرة والحسد!

– «حبيبي، ما رأيك لو نتعشى في أحد مطاعم الفندق؟ ملّيت من الروم سيرڤس».

– «ليس لدي أي مانع... تريدر ڤيكس فيه موسيقى حيّة، وأكله لذيذ».

– «وكوكتيلاته ملغّمة بعد؛ ليست كالّتي في الرياض».

تطلق ضحكة من ضحكاتها الّتي تأسر الألباب، وتنتصب لها السواكن! كيف سأتحمل الانتظار حتّى نذهب إلى المطعم، ومن ثمّ نعود إلى الفراش؟! لا أظن أنّ أي كوكتيل ملغّم سوف يفي بالغرض. أنا بحاجة إلى جرعة من الڤودكا، بل إلى جرعات!!

***

أظنني... شربت كثيراً... أشعر وكأنّني... ثمل... ما كان... ما كان ينبغي... أن أسكر... الفتوى الّتي ورّاني هي سلطان، تبيح شرب الخمر إن لم يكن مصنوعاً من ال، ال... التمور وال، والأعناب... أبو حنيفة أظنّ قالها، لكن بشرط ألّا أسكر! لحسن الحظ، الڤودكا مصنوعة من... من ماذا؟

– «ريم... هل تعلمين من ماذا تصنع الڤودكا؟».

لا تكاد تسمعني وسط... الموسيقى الصاخبة في المطعم.

– «ماذا؟».

– «الڤودكا... ممَّ تُصنع؟!».

– «لماذا تصرخ؟! لا أدري».

لا بأس... من حسن الحظ عندي صديقي چوچل... أخرج جوالي من السترة... وأبحث... أهّا، مصنوعة من... معقولة؟!... أطلق ضحكة كبيررررة.

– « **مصنوعة من البطاطا** !!».

– «البطاطا؟!!».

تطلق هي الأخرى... ضحكة أكبرررر!

نهم بمغادرة تريدر ڤيكس... أضع مئة جنيه استرليني بقشيشاً للنادل... تضع ريم ذراعها حول خصري... أظنّها... أظنّها بالكاد تقوى على المشي، من السكر!

من هذا الذي أراه خارج المطعم؟ كأنّه... صديق نايف، الدكتور؟! أرَحِّب به... يبدو متجهّماً كعادته! حتماً هو... يحسدني على ريم! لا يحلم في الحصول على امرأة في جمالها!! دع شهادته... الّتي يتباهى بها... تنفعه!!

– « ... لديك مؤتمر؟».

– « ... مسرحية..».

مسرحية؟! مسرحية؟!! من يأتي إلى لندن من أجل... مسرحية؟!! ما هذا الهبل؟!!!

– « ..... ».

– « ..... ».

– « ..... ».

لقد تجاوزتُ قدرتي على مُجاملة هذا الشخص!

الحمد لله! ها هو يرحل... أنا وريم نواصل سَيْرنا إلى المصعد...

***

أستيقظ من النوم ورأسي يكاد ينفجر من الصداع! ليت هذا ما حصل فحسب، ولكنّني أشعر كذلك بغثيان يجعلني أقفز إلى المرحاض حتّى أفَرِّغ ما في معدتي وأستريح!! لقد أكثرتُ من الشراب، وهذه هي النتيجة! في العادة لا أتناول سوى كأس، أو كأسين على الأكثر، ولكنّني تجاوزت حدّي ليلة البارحة... ريم لا

تزال في سباتها العميق؛ لا أظنّها ستستيقظ قبل الظهر... كأنّه صوت رنين هاتفها الجوّال! أخرج من المرحاض لأستكشف الأمر... نعم، هو جوّالها؛ الصوت قادم من داخل حقيبة يدها الكوتش الّتي كانت معها عندما ذهبنا إلى المطعم... أفتح الحقيبة، وأخرج منها الجوّال. نرمين هو الاسم الظاهر على الشاشة... يصمت الجوّال بعد برهة قليلة، وأهمّ بإعادته إلى الحقيبة، ثم فجأة يخطر على بالي أمر كان قد حيّرني: اتصال سلوى بريم منذ أيّام! ما زلت أرغب في كشف سرّ معرفتهما ببعضهما، ولعلّ هذه فرصتي! أستغل نوم ريم العميق، وأضع سبّابتها على مستشعر البصمات الخاص بجوّالها، وعلى الفور تُفتَح لي مغارة علي بابا! على الفور أذهب إلى الواتس آب، وأبحث عن اسم سلوى في خانة البحث، فتأتيني محادثتهما... حتماً سوف تُبَيِّن لي الكثير!

أستعرض الرسائل بينهما... مجموعة من التحيّات، والمقاطع المتداولة؛ ليس هذا ما أبحث عنه... أرجع إلى الوراء قليلاً، فأجد حديثاً عن السپا لا يهمني... إلى الوراء أكثر... هذه معلومة غريبة. ريم تسأل سلوى عن موعد وصولها من السفر، حتّى ترتب معها موعداً في العيادة! هذه الرسالة عندما كانت سلوى في رحلتها... غريبة، فما حاجة امرأة مثل ريم بعيادة تجميل؟! لعلّها رغبت في أخذ رأيها في بعض المسائل البسيطة. لا بأس، فعلى الأقل عرفتُ الآن سرّ معرفتهما ببعضهما... لكنّ الظاهر في الواتس آب أن الرسائل بينهما تمتد إلى فترة أبعد من ذلك بكثير. ما زالت عندي رغبة في الاطّلاع عليها... مجموعة أخرى من المقاطع المتداولة، لكنّني أجد مقطعاً يلفت انتباهي أكثر من غيره، تحت عنوان: تقنية جديدة في شفط الدهون! ريم أرسلت هذا المقطع لسلوى لكي تستفسر عنه. هل هي بحاجة لكي

تستفسر عن شفط الدهون؟! أستمر في استعراض الرسائل، وقد وصلت الآن لقبل ستة شهور... رسالة من ريم تستفسر فيها إن كان بالإمكان تكبير... غير معقول! تريد تكبير مؤخرتها، وتردّ عليها سلوى بأنّها لا تنصح بتكبيرها للمرّة الثالثة!!... معقول؟! ريم أجرت عملية تكبير لمؤخرتها مرّتين، وترغب في تكبيرها للمرّة الثالثة؟!! ثم رسالة أخرى مشابهة، ولكن هذه المرّة حول ثدييها! أستمر في استعراض الرسائل بلهفة وذهول حتّى أجد نفسي وقد رجعت سنة ونصف السنة عبر الزمن... أجد صورة لوجه امرأة مُزرقَّة الجفون، وحول أنفها ما يشبه الكدمات، وكأنّ أحداً ضربها، أو خرجت لتوِّها من مباراة ملاكمة من دون قُفّازات! تحت الصورة رسالة من ريم، تسأل فيها إن كانت هذه الآثار الّتي على وجهها طبيعية بعد العملية الّتي أجرتها، ومتى– تسأل– سوف تزول؟!! يا إلهي! ما كل هذا الذي أكتشفه؟! بِتُّ أخشى أن أقَلِّب أكثر في الرسائل، ولكنّ الفضول يدفعني... ثلاثة أشهر أخرى عبر الماضي، وأجد صورة مرسلة هذه المرّة من سلوى لامرأة متوسطة الجمال– إن أردت أن أكون كريماً في وصفها– ذات جسد مُترهِّل، وبجوارها صورة افتراضية لها بعد إجرائها عمليات تجميل مُزمعة... أشعر بحالة جديدة من الغثيان وأنا أشاهد الصورة الافتراضية: إنها ريم الّتي أعرفها!! كل شيء اتّضح لي الآن... سرّ علاقتهما... هاتان الصورتان المتجاورتان أفصحتا عن المستور، وأنبأتاني بالخبر!!

ريم من قبل، وريم من بعد!!!

29

سلوى

كنتُ فعلاً بحاجة لكي يبتعد طارق قليلاً حتّى أفكر برَويَّة. حديثي مع دينا في السپا أيقظني من غفوة عابرة سبَّبتها لي عاطفة طارق الجيّاشة. نعم، هو رجل لطيف ووسيم ورقيق المشاعر، ولكنّه أيضاً متزوج، ولديه من زوجته خمسة أبناء! هذا كله يجب أن يوضَع في الحسبان، ولا أستطيع تجاهله أبداً! لو وافقت على الزواج منه، فسأظل أنا دوماً الزوجة الثانية، والّتي يمكن الاستغناء عنها إذ ما اشتدت عليه الضغوط. مهما كان مغرماً بي الآن، وبالرغم من عدم حبّه لزوجته كما يدّعي، إلّا أنّه لن يتحمل هجر أبنائه له عندما يصطفّون مع أمهم ضدّه. وإن صدق معي في ما قال، وطلّق زوجته من أجلي إن طلبَتْ منه الطلاق، فسوف أوصم بأنّني خرّابة للبيوت! كيف سيكون مظهري حينها أمام زملائي في العمل؟! أمام أصدقائي؟! أمام أولادي؟! سوف يستغل سعود الأمر ضدّي حتّى يُكرِّه الأولاد فيّ!! «انظروا إلى أمكم الّتي لافت حول زميلها المتزوج، وسرقته من أسرته حتّى تظفر هي به!» أعلم جيِّداً أسلوب سعود اللئيم!! ارتباطي بطارق سوف يفقدني أشياء كثيرة، ولن أجني منه سوى القليل. لذلك، يجب عليّ أن أحسم الأمر اليوم عندما ألقاه في حديقة المستشفى بعد نهاية الدوام.

***

الساعة الخامسة مساء... تأخّرتُ نصف ساعة عن موعدي مع طارق. ليتني بعثت له برسالة نصّية عبر الجوال؛ أعتذر له عن الموعد، وأنهي معه كل شيء. لو فعلت، لربما كان ذلك أهوَن علينا من اللقاء وجهاً لوجه. لا فائدة الآن من مثل هذا التفكير. عليّ أن أذهب إليه بالحديقة، حيث ينتظرني... يجب أن أتحلّى بالشجاعة، وألّا أضعف أمامه مرّة أخرى!

أسير ببطء إلى الحديقة، تحت أجواء غائمة. يبدو أنّها ستُمطر اللّيلة... الحركة في المستشفى قليلة جدًّا في هذا الوقت، بعد أن غادر جلّ الموظفين ليبدؤوا عطلة نهاية الأسبوع. هذا جيّد، حتّى لا يراني أحد يعرفني وأنا مع طارق في الحديقة، فتبدأ الشائعات!

أدخل من بوّابة الحديقة متجهة نحو طارق الّذي أراه واقفاً وسط مجموعة من الأشجار... ما هذا الذي أراه ممسكاً به في يده؟ يا ربّي! باقة ورد من جديد! لماذا يريد هذا الرجل تصعيب الأمر عليّ؟! ولكنّني لن أضعف هذه المرّة... مهما فعل وقال، فلن أضعف!

– «يا هلا بأجمل جرّاحة في السعودية! وحشتِني! أرجو أن تتمكن هذه الباقة البسيطة من التعبير لك عن مدى اشتياقي».

يناولني باقة الورد... لماذا اشترى لي ورداً؟! لماذا يُصَعِّب عليّ كل شيء؟!!

– «شكراً، ولكن... كيف سأحملها معي في المستشفى؟ لو رآني أحد، ماذا سوف يظن؟»».

خرجت منّي الكلمات دون ترتيب مسبق. نطقت بها بشكل عفوي وصادق... ابتسامته الّتي أخذت تختفي بعد أن تفاجأ بردّي البارد، أظنّها تدلّ على أنّه بدأ يشكّ في أن الأمر ليس على ما يرام... تمهيد جيِّد وغير مقصود.

– «أنتِ لستِ الوحيدة في المستشفى الّتي تحمل معها باقة ورد... لا أرى في الأمر أية مشكلة».

لحظات من الصمت، وكأنّه فقد رغبته في الحديث بسبب برود استقبالي له. أظنّه توقع ردّة فعل أكثر حميميّة منّي... أنظر إلى الأرض؛ كأنّني أتحاشى النظر إلى عينيه الحائرتين... هل أصارحه الآن أم أنتظر قليلاً؟

– «ما الحكاية يا سلوى؟ هل أنتِ متضايقة من شيء؟».

– «طارق... أنا جدّاً آسفة، ولكن... لا أظنّني أستطيع البقاء معك أكثر في الحديقة. أحتاج إلى أن أذهب».

– «أبهذه السرعة؟! أنتِ جئتِ للتوّ!».

– «أعلم، ولكنّني مشغولة... لديّ أشياء كثيرة..».

– «لا بأس، إن كنت مشغولة... متى تودين أن نلتقي مرّة أخرى؟».

– «لا أدري».

– «لا أفهم... ماذا تقصدين؟».

– «أقصد أنه من الصعب أن نلتقي... لا أظنّها فكرة جيدة».

افهم يا طارق! هل أنا بحاجة لكي أكون فجّة معك لكي تفهم بأنّني أرغب في إنهاء كل شيء معك؟!!

– «ماذا دهاك يا سلوى؟ غبتُ عنك أسبوعاً، وتستقبلينني على هذا النحو البارد! تصوَّرتك مشتاقة لي كما أنا مشتاق لك!».

– «أنا آسفة».

– «طَيِّبْ، هل تودين أن نتحدث فقط عبر الهاتف إلى أن أتقدم لأهلك؟».

– «لا أظن ذلك».

– «سلوى! ما الحكاية؟! ماذا دهاك؟!».

– «أنا آسفة يا طارق، ولكن لا أستطيع الزواج منك... حاولت، ولكن... لا أستطيع، لا أستطيع!».

– «لماذا؟!!».

– «أنت تعلم لماذا... سبق، وقلتها لك، ولكنك لا تسمع! لأنك متزوج!!».

– «ثاني يا سلوى! ألم نتناقش في هذا الأمر من قبل، وحسمناه؟!».

– «أنت ربما حسمته، ولكنّني لم أحسمه! صدّقني، لقد فكّرت في الأمر مراراً وتكراراً، واستشرت أعز صديقاتي، لعلّي أجد شخصاً يشجّعني على مبدأ الارتباط برجل متزوج، ولكنّ كل من استشرته أكّد لي ما كنت دوماً على قناعة به؛ وهو أنّ

فكرة القبول بأن أكون زوجة ثانية خطأ؛ بل وخطأ كبير! ورجاءً، لا تفهم من كلامي هذا أنّني أطالبك بتطليق زوجتك!! فهذا الأمر لن أقبله بتاتاً!».

إن كان طارق تعيساً في زواجه كما يدّعي، فلماذا لا يطلّق زوجته ويبدأ حياة جديدة؟! ما الفائدة من البقاء في حياة زوجية تعسة؟! أنا لن أطلب منه أبداً أن يفعلها، ولكنّه ليس بحاجة لأي شخص آخر غير نفسه لكي يقنعه بالبحث عن السعادة أينما كانت!

– «من هي يا ترى تلك الّتي استشرتِها؟ دينا السعيد؟!».

– «لا يهم من استشرت... حتّى لو لم أستشر أحداً، فقراري سيظلّ كما هو».

– «لكنّ دينا هي أعز صديقاتك، وأنتِ استشرتها بعد لقائنا الأخير في المطعم قبل سفري، أليس كذلك؟ هكذا فهمتُ منك عندما كلّمتُك من لندن».

– «نعم، تحدثت مع دينا في الأمر، وأيَّدت وجهة نظري».

– «أية وجهة نظر هذه الّتي أيّدتها دينا؟ الّذي فهمته منك في المطعم أنّك تودين الارتباط بي، وأنّك على استعداد لخوض التجربة معي؛ بكل ما فيها من معوقات، لأنّك تشعرين بعاطفة نحوي... فما الّذي تغيَّر الآن؟! الإجابة الوحيدة الّتي أراها منطقية هي أنّك عندما تحدّثت مع دينا، أثنتك عن قرار الارتباط بي، أليس كذلك؟!».

– «حتّى وإن كان ما تقوله صحيحاً، فهذا إن دلّ على شيء، فهو يدلّ على أنّني لم أكن مقتنعة بالأمر من الأساس! لو كنت أشعر برغبة صادقة في الارتباط

بك، بالرغم من كونك متزوجاً، لما استطاع أي شخص أن يثنيني عن قراري. ولكن... كما قلت لك في أول مرّة تحدّثنا فيها على الهاتف، أنا ضدّ فكرة التعدّد من الأساس! حاولت... والله حاولت، ولكن لم أستطع!! أرجوك افهمني يا طارق، ولا تضغط عليّ أكثر من هذا!!».

لا أظنّني أستطيع أن أكون أكثر وضوحاً! ليته يفهم ويتركني، ولا يزيد من الأمر صعوبة...

- «شيء عجيب فعلاً! ...... ».

لا أدري ماذا قال! فلم أعد قادرة على سماع أي شيء يقوله... فقط أريد أن أذهب... أعصابي لم تعد قادرة على التحمل! طارق يتحدث كثيراً، ولا يريد الاستماع إلى ما أقوله! كأنّه يرغب في إرغامي على أمر سبق ورفضته!! يُذكِّرني إلى حد ما بسعود... بل لعلّ كل الرجال في هذا الأمر سواء؛ يريدون فرض إرادتهم على النساء دون أدنى اعتبار لرغباتهن!! قلت له أكثر من مرّة إنّني لا أريد أن أكون زوجة ثانية!! لماذا لا يفهم؟! لماذا؟!! أن أبقى هكذا بلا زواج، عندي أرحم مئة مرّة!! يبدو أن جميع الرجال مهما بلغوا من رقيّ وتهذيب يبقون دائماً وأبداً نسخة ما من سعود... والابتعاد عنهم هو أكبر غنيمة!!

30

طارق

يا له من جوٍّ جميل، لا تزيده النسمات العليلة، والغيوم الهائمة في السماء، إلّا سحراً! أنتظر سلوى في حديقة المستشفى. أمسك في يدي باقة من الورود الحمراء، وفي جيب معطفي الأبيض الخاتم الذي اشتريته لها من متجر هارودز. تأخرتْ عن موعدها قليلاً، ولكن لا بأس، فأنا لم أعد ذلك الشخص الّذي يغضب على مثل هذه الأمور... أدَنْدن مع نفسي أغنية عبد الحليم الشهيرة: «أوّل مرّة تحبّ يا قلبي»... صحيح هي ليست أوّل مرّة أحب فيها، ولكنّني أشعر وكأنّها أوّل مرّة؛ ربّما لبعد الفترة الزمنية عن آخر حب صادفته قبل سلوى... أشفق على كل إنسان لم يصادفه الحب؛ كم هو مسكين لا يعلم مدى ما فاته! ولكن، في نهاية المطاف، ما ذنب ذلك المسكين، أوليس الحب هو الذي يختار صاحبه؟

بين أشجار السدر أمشي؛ وفي انتظارها أتخيل ما سوف يكون عليه اللقاء من شغف ووله. حتماً اشتاقت إليّ، كما اشتقت إليها. مرّ أسبوع كامل منذ أن رأيتها، بل وحتّى المكالمات كانت مقتضبة؛ بحكم السفر. لديّ الكثير ممّا أود قوله لها، وإن كانت الكلمات تعجز في كثير من الأحيان عن الإفصاح عن مكنون الفؤاد من الهوى...

ها هي قد أقدمت. تبدو كعادتها في غاية الجمال! تسير نحوي مبتسمة، وإن كانت ابتسامتها تبدو خجولة بعض الشيء. يا ترى، هل لاحظت باقة الورد الّتي أحملها؟ هل زادت من سعادتها؟ أعلم أن الورد تأثيره ساحر على النساء...

– «يا هلا بأجمل جرّاحة في السعودية! وحشتِني! أرجو أن تتمكن هذه الباقة البسيطة من التعبير لك عن مدىاشتياقي».

أناولها باقة الورد. تمدّ يدها بشيء من التردّد والخجل؛ كأنّها لم تتوقع منّي هذه الالتفاتة الرومانسية.

– «شكراً، ولكن... كيف سأحملها معي في المستشفى؟ لو رآني أحد، ماذا سوف يظن؟».

ما هذا الردّ العجيب البارد؟! كأن شيئاً ما ضايقها... ربما لأنّني غبت عنها كل هذه المدّة؛ فاليوم بِسَنة عند العاشقين!

– «أنتِ لستِ الوحيدة في المستشفى الّتي تحمل معها باقة ورد... لا أرى في الأمر أية مشكلة».

لحظات من الصمت حتّى تهدأ قليلاً... أراها تتحاشى النظر إليّ، وكأنّها خجلت من نفسها. لا بأس، إن لم أتحملها أنا، فمن سيتحملها؟ كل إنسان تمرّ عليه لحظات حيرة وضيق؛ دور الحبيب أن يستمع إلى هموم حبيبته، ويخفّف عنها ما استطاع.

– «ما الحكاية يا سلوى؟ هل أنت متضايقة من شيء؟».

– «طارق... أنا جدّاً آسفة، ولكن..... لا أظنّني أستطيع البقاء معك أكثر في الحديقة. أحتاج إلى أن أذهب».

– «أبهذه السرعة؟! أنتِ جئتِ للتوّ!».

– «أعلم، ولكنّني مشغولة.... لدي أشياء كثيرة..».

– «لا بأس، إن كنت مشغولة... متى تودين أن نلتقي مرّة أخرى؟».

– «لا أدري».

– «لا أفهم... ماذا تقصدين؟».

– «أقصد أنّه من الصعب أن نلتقي... لا أظنّها فكرة جيدة».

حتماً هي لا تقصد ما تقوله! يجب ألّا أصَعِّد الأمر معها، فلعلّها تمر بيوم عصيب في العمل؛ أو ربما مشاكل مع الأولاد؛ أو حتّى مجرد اضطراب هرمونات بسبب الحيض!

– «ماذا دهاك يا سلوى؟ غبتُ عنك أسبوعاً، وتستقبلينني على هذا النحو البارد؟! تصورتك مشتاقة لي كما أنا مشتاق لك!».

– «أنا آسفة».

– «طَيِّبْ، هل تودين أن نتحدث فقط عبر الهاتف إلى أن أتقدم لأهلك؟».

– «لا أظن ذلك».

– «سلوى! ما الحكاية؟! ماذا دهاك؟!».

– «أنا آسفة يا طارق، ولكن لا أستطيع الزواج منك... حاولت، ولكن... لا أستطيع، لا أستطيع!».

– «لماذا؟!!».

– «أنت تعلم لماذا.... سبق وقلتها لك، ولكنك لا تسمع! لأنك متزوج!!».

– «ثاني يا سلوى! ألم نتناقش في هذا الأمر من قبل، وحسمناه؟!».

– «أنت ربما حسمته، ولكنّني لم أحسمه! صدّقني، لقد فكّرت في الأمر مراراً وتكراراً، واستشرت أعز صديقاتي، لعلّي أجد شخصاً يشجّعني على مبدأ الارتباط برجل متزوج، ولكن كل من استشرته أكّد لي ما كنت دوماً على قناعة به؛ وهو أنّ فكرة القبول بأن أكون زوجة ثانية خطأ؛ بل وخطأ كبير! ورجاءً، لا تَفْهم من كلامي هذا أنّني أطالبك بتطليق زوجتك!! فهذا الأمر لن أقبله بتاتاً!».

يعني لا تريد أن تكون زوجة ثانية، ولا تريدني أن أطلّق زوجتي من أجلها! إذاً، ما العمل؟! ما الذي تريدين منّي يا سلوى أن أفعله؟!! لا شيء يرضيها، وكأنّها ترغب في تعجيزي! أهذه هي مشورة صديقتك؟! أهذه مشورة دينا؟!

– «من هي يا ترى تلك الّتي استشرتِها؟ دينا السعيد؟!».

– «لا يهم من استشرت... حتى لو لم أستشر أحداً، فقراري سيظل كما هو».

حتماً استشارتْ دينا السعيد، ومن غيرها تلك العاهرة الأفّاقة!! هل أخبرها بأن صديقتها تلك الّتي تستشيرها في أدق تفاصيل حياتها، وتأخذ برأيها، تخون زوجها مع مارتن زرتك؟! فهل هي مؤهلة لإبداء أي رأي، أو إعطاء أية نصيحة في

أمور الزواج والعلاقات الإنسانية؟!! يا له من زمن عجيب!! دينا تنصح صديقتها بألّا تقبل أن تصبح زوجة ثانية، ولكن لا مانع عندها من أن تكون خليلة لذلك اللّطخ الأمريكي!!!

– «لكن دينا هي أعز صديقاتك، وأنتِ استشرتها بعد لقائنا الأخير في المطعم قبل سفري، أليس كذلك؟ هكذا فهمتُ منك عندما كلّمتُك من لندن».

– «نعم، تحدّثت مع دينا في الأمر، وأيَّدت وجهة نظري».

– «أية وجهة نظر هذه الّتي أيدتها دينا؟ الّذي فهمته منك في المطعم أنّك تودين الارتباط بي، وأنّك على استعداد لخوض التجربة معي؛ بكل ما فيها من معوقات، لأنّك تشعرين بعاطفة نحوي... فما الّذي تغيَّر الآن؟! الإجابة الوحيدة الّتي أراها منطقية هي أنّك عندما تحدّثتِ مع دينا، أثنتك عن قرار الارتباط بي، أليس كذلك؟!».

– «حتى وإن كان ما تقوله صحيحاً، فهذا إن دلّ على شيء، فهو يدلّ على أنّني لم أكن مقتنعة بالأمر من الأساس! لو كنت أشعر برغبة صادقة في الارتباط بك، بالرغم من كونك متزوجاً، لما استطاع أي شخص أن يثنيني عن قراري. ولكن... كما قلت لك في أول مرّة تحدّثنا فيها على الهاتف، أنا ضدّ فكرة التعدّد من الأساس! حاولت... والله حاولت، ولكن لم أستطع!! أرجوك افهمني يا طارق، ولا تضغط عليّ أكثر من هذا!!!».

مستحيل! مستحيل أن تكون النهاية هكذا، وعلى هذا النحو!!

– «شيء عجيب فعلاً! ترفضين الارتباط بي فقط لأنّني متزوج؛ بالرغم من مدى توافقنا في أشياء كثيرة؟! أهذا هو المعيار الرئيس الّذي تبحثين عنه في الشخص الّذي يتقدم إليك: ألّا يكون متزوجاً، وطز في كل شيء آخر؟! أنت كنت متزوجة من رجل لم يسبق له الزواج، فانظري إلى ما آلت إليه الأمور بينكما! كان زواجاً فاشلاً!! والآن، عندما يأتيك الشخص الّذي يقِّر لك بحبّه، وتشعرين أنت بعاطفة قَويَّة نحوه، وبينكما أمور كثيرة مشتركة، ترفضينه فقط لأنّه متزوج؟!! أهذا منطق يا سلوى؟! ردّي عليّ، أهذا منطق؟!!».

أخذتُ أصرخ وأصرخ، وأكرّر نفسي، وأعيد ما قلتُه، وكأنّني أرجو أن تجعلها كلماتي تعدل عن رأيها، ولكن دون طائل... تتحاشى النظر إليّ مرّة أخرى... الصمت... لا شيء غير الصمت... فليس لديها ما تقوله، ولم يعد هناك شيء لديّ لكي أقوله. لقد قلتُ كل ما عندي دون أن يترك ذلك أثراً عليها كما يبدو... لا شيء... مع الأسف، لا شيء، وأنا الّذي حسبتُ أنّ الذي بيننا هو كل شيء! ألهذه الدرجة أنا إنسان ساذج؟! ألهذه الدرجة أسأت قراءة ذلك الشيء الّذي ظننته بيني وبينها؟! مع الأسف... يبدو ذلك... لعلّ «سالم» كان دائماً على حق.

إذاً، لقد آن أوان مغادرة حديقة المستشفى. المدهش أنه في اللّحظة الّتي بدأنا نتحرك فيها لكي نغادر، بدأت السماء تمطر، فانتابني شعور غريب بأنّها تبكينا... أخرج هاتفي الذكي من معطفي الأبيض. أفتح الصورة الّتي التقطتها لدينا ومارتن في متجر هارودز. أنظر إليها، وكلّي رغبة في الانتقام من الّتي ساهمت في إفساد حياتي عليّ! بل لعلّي أضرب عصفورين بحجر واحد إن أرسلت هذه

الصورة إلى مدير المستشفى، وكذلك سلطان، فأفضح بها مارتن المحتال، ودينا الخبيثة... ولكنّني لا أفعل...

أكتفي فقط بمسح الصورة من على هاتفي الغبي.

31

سعود

ليتني لم أتطفّل! فوالله، لا شيء يُتعِس الإنسان مثل الفضول، والتطفّل! مالي أنا، ومال جوّال ريم؟! ليتني ظللت في جهلي سعيداً، ولم أتبيّن الحقيقة فأصبح تعيساً!! فعلاً، صدق من قال: «الجهل نعمة»... فمنذ أن تبيّنت لي حقيقتها ما عدت قادراً على معاشرتها! كلّما هممتُ بها، تبادرت إلى ذهني تلك الصور اللّعينة، فما عدتُ أرى ريم فائقة الجمال، بل ريم ما قبل عمليات التجميل المتعدّدة الّتي ما أبقتْ شيئاً منها إلّا وبدَّلَته! فما عدتُ قادراً على الإنجاز: مع كل حبّات الڤياجرا والسيالس الّتي استهلكتُها!! أنا لم أدفع كل هذه الأموال الطائلة من أجل امرأة مُصَنّعة، تشكَّلت على حافة مبضع سلوى! تبّاً لك يا سلوى، فمنذ أن تعرفتُ عليك والتعاسة تحالفني!

عدت من لندن، وكانت أسوأ عطلة قضيتها في حياتي... أخبرت ريم بما اكتشفته عنها، وأقسمتُ لها إنّني لن أجعل خداع أم عبد الله الأفّاقة، وخداعها لي، يمرّان هكذا دون توابع! جميع صورها ومراسلاتها مع سلوى حَمَّلْتُ نسخة منها على جوّالي، حتّى لا تستطيع الإنكار... إن لم تُعِد لي كل قرش صرفته عليها فسوف أفضحها، هي والمزَوِّجة لها أم عبد الله النتنة!! أنا سعود الحسن، يتمّ خداعي بهذه الطريقة؟! والله، إن الحسرة ليست على الأموال الّتي صُرِفت، بقدر ما هي على شعوري بالمرارة والمهانة؛ لأن امرأتين كهاتَين تمكنتا من خداعي... من استغفالي!! لو أنّني ظللتُ جاهلاً بخداعي، سعيداً بجهلي، لكان ذلك عليّ أهون من هذا الشعور

البائس!! ظننتُ ريم حلماً جميلاً، فإذا هي كابوس استفقتُ منه على فزع! أحمد الله لأنّني لم أتهوّر وأنهِ علاقتي مع ليليان؛ وإن كانت ليست في جمال ريم بعد التعديل، إلّا أنّ كل شيء فيها طبيعي... وإن كنت الآن بدأت أشكّ في هذا الأمر أيضاً. أخشى أن يكون مبضع سلوى لم يترك أية امرأة في حالها... والله، لن أسأل وراء ليليان، وسأظل هكذا على جهلي سعيداً بها، ولعلّي أستعيد مرّة أخرى قدرتي على الانتصاب!

32

الراوي

أخيراً! لا أعلم كيف تحمّلت الصمت طيلة هذا الوقت، إلى أن فرغ أبطال الحكاية من روايتها. ولكنّني فعلت؛ كما وعدتكم آخر مرّة تحدثت فيها معكم. لا أدري إن كانت النهاية قد جاءت على حسب هواكم، وإن كنت أظنّ أنّكم تمنَّيتم نهاية أكثر بهجة وسعادة؛ كتلك الّتي تعوّدتم عليها من الأفلام والمسلسلات الّتي نشأتم عليها؛ أليس كذلك؟ لكن، ماذا نفعل؟ فهذه هي ضريبة السماح لأصحاب الشأن بالتعبير عن أنفسهم بكل حرّية، ودون رقابة! فلعلكم تتّفقون معي بأنّ ليس كل الناس مؤهلين لأن يكونوا أحراراً. وصدّقوني عندما أقول لكم: لو أنّني رويت لكم الأحداث بنفسي، لجعلت نهايتها تروق لكم أكثر. فعلى سبيل المثال، وليس الحصر، لجعلت نهاية سلوى وطارق أشبه بمسلسل عائلة الحاج متولي؛ ولمَ لا؟ ألم ينجح ذلك المسلسل نجاحاً مبهراً؟ ألا يدلّ ذلك النجاح على مكنون رغباتكم؟ فما المانع من أن تقبل سلوى بالزواج من طارق دون التأثير على زوجته الأولى وأبنائه، والكلّ يعيش في وئام وسلام وسعادة ما بعدها سعادة؟ أمّا سعود، فحتماً سوف ينال جزاءه العادل الّذي يستحقه! ما رأيكم في خسارته لجميع أمواله؟ أليس عقاباً كافياً؟ لا بأس، فلنضِف كذلك إلى العقاب مرض الإيدز، بل ويحصل عليه من ليليان! وريم تقبض عليها هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأم عبد الله تنتحر، لا أدري لماذا؟ ولكن نجد لها سبباً ما. وطبعاً، لن أنسى دينا السعيد الّتي سوف تصاب بانهيار عصبي عندما تنفجر شفتاها من أثر

النفخ، وعشيقها مارتن زرتك سوف يُطرد من المستشفى لسوء خلقه، وسيتم تعيين طارق مديراً لمركز القلب بدلاً منه! ما رأيكم في مثل هذه النهاية للحكاية؟ جميلة، ومنعشة، وتبعث الأمل. كفانا هموماً، ومآسي، وأحزاناً! ألا يكفينا ما نشاهده على قناتي الجزيرة والعربية؟! لماذا لا نجعل حياتنا كلها مثل قناة الإم بي سي؟ ستكون حياة أجمل بلا شك، ألا تتّفقون معي؟ لو كنت أنا الذي رويت لكم الأحداث، لجعلتها كذلك. لجعلتكم تعيشون الوهم الّذي تستحقونه، المصحوب بالسعادة الدائمة... صدّقوني يا أعزّائي، ليس هناك أجمل من العيش في غفلة عن الواقع. إنّها حياة مريحة جدّاً، وهذا ما أريده أنا وغيري لكم. لذلك، أقدم لكم مجدّداً اعتذاري عمّا أجرمته في حقكم، عندما سمحت لطارق وسلوى وسعود بالتحدث معكم مباشرة دون رقيب. إنه خطأ فادح، ولن يتكرّر مجدّداً، أعدكم بذلك... وتمنياتي لكم بغفلة دائمة، بعيدة كل البعد عن شرور اليقظة.

(يا لكم من سُذَّج!)